اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ

مجلة نصف سنوية محكّمة تعني بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية
تصدر عن المجلس الأعلى للّغة العربية بالجزائر

العربية

العدد الرابع والثلاثون - السداسي الأول 2016

المجلس الأعلى للّغة العربية
اللغة العربية
34

تقرأون في هذا العدد:

اللّغة العربيّة

مجلة نصف سنوية محكّمة تعني بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية
تصدر عن المجلس الأعلى للّغة العربية بالجزائر

العدد الرابع والثلاثون - السداسي الأول 2016

المجلس الأعلى للّغة العربية

اللّغة العربيّة

34

تقرأون في هذا العدد:

اللُّغةُ العربيَّةُ

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية

العربية

العدد الرابع والثلاثون

اللّغة العربيّة

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للّغة العربية

هيئة التحرير

مجلة اللغة العربية

دورية تعنى بقضايا اللغة العربية وترقيتها
يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية.
المجلة منبر حر، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن موقف المجلس

قواعد النشر

- ✓ التقيد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها:كالتوثيق..
- ✓ أن تكون الأعمال أصيلة لم يسبق نشرها من قبل.
- ✓ ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو رئيس التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- ✓أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.
- ✓ المقالات التي ترد إلى المجلة لا تردّ إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

التحرير والمراسلة:

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت الجزائر
ص.ب . 575 ديدوش مراد – الجزائر
الهاتف: 25 /24 07 23 21 (00213)
17 / 16 07 23 21 (00213)
الناسوخ:07 07 23 21 (00213)

الترقيم الدولي الموحّد للمجلاّت (ر.د.م.م) :1112. 3575
الإيداع القانوني:02 20 /7

الفهرس

كلمة رئيس التحرير

يراها حبَة وأراها قبَة - 4 -

أ.د/ مختار نويوات (ج.عنابة)

... ويقولون ثَوَراتُ الشعوب وجلْساتُ البرلمان غير آبهين بقواعد الصرف العربيّ، واللّغةُ لا تجيز إلاّ الثوْرات لسكون واوها- وهي التي يسمّونها عين الكلمة- والجلَسات لصحّة لامها وهي عين الكلمة أيضا. جمعُ جَوْلَةٍ وصَوْلة وروْضة وجَوْزة جَوْلاتٌ وصَوْلاتٌ ورَوْضات وجَوْزات. وجمع عَبْرَةٍ وسَكْرَة وعشْرة عبَراتٌ وسكَرات وعشَرات لصحّة عين كلمتها وفتح فائها ولكونها أسماءً.

أمّا الصّفات المؤنّثة فتجري في جمعها على لفظ مفردها مطلقا. يقال ضَخْمَة وضَخْمات، وحُلْوَة وحُلْوات، وخَشِنَة وخَشِنات، وحَسَنَة وحَسَنات.

ويقولون " حَسْبَ رأيِه " يريدون وَفْقَ رأيِهِ (بفتح الواو). والإعراب " **على حَسَبِ** رأيه.

أمّا حَسْب فاسمُ فعْلٍ ومعناه **يكفي** كما في قوله تعالى : " قل حَسْبِيَ اللّه عليه يتوكّل المتوكّلون" (الزُّمَر:38) ومنه المثل " حَسْبُك من شَرٍّ سماعُه ".

ويقولون " اُشْتُهِرَ القاضي فلانٌ بعدله" بالبناء للمفعول ولا مفعول له للزومه. فصوابه **اشتَهَرَ** بعدله؛ كما يقولون **تَوَفَّى** فلان أمسِ" ولا مُتَوَفِّيَ إلاّ اللّه " يَتَوَفَّى الأنفسَ حين موتها والتي لم تمت في منامها " (الزُّمَر:42).

ويغرزون الملعقة فيما يقدَّم إليهم من طعام قائلين " سوف نتناول اليوم طعاما طيّبا " **وسوف** للمستقبل البعيد لا للحال. محصها اللّه ليوم القيامة في أغلب آياته. قال : " ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على اللّه يسيرا " (النساء 30) وأخلصناها نحن عباده للحاضر في الطعام وفي كلّ ما يلذّ لنا تعجيله. لا نعرف التسويف بمعناه العربيّ إلاّ في قضاء واجب أو دَيْن. والتسويف أن تقول : سوف أفعل. وقالوا : فلان يقتات السَّوْف إذا كان يعيش بالأماني.

وينصحون بالتواضع فيقولون " اُجلسْ أين انتهى بك المجلسُ ". وأظنّهم يترجمون اللّفظ الفرنسيّ où بما لا يوافق الروح العربيّة. ولا يخطئ في هذا إلاّ بعضُ مُزْدَوِجي اللّغة أو بعض من قلّدهم. الصحيح أن يقال " اجلس حيث انتهى بك المجلس".

وما تُنكر مِنْ **قَيَّمَ** ؟

- أخذوها من القيمَة وظنّوا أنّ الياء فيها أصليّة أو عرفوا أنّها مقلوبة عن واوٍ سُبِقتْ بكسرة كالصيام والعيادة والريادة (من صام يصوم وعاد يعود وراد يرود). وأرادوا أن يميّزوا بين **قوّم المُعْوَجّ** وبين **قوّم السلعة** فقالوا في السلعة وما أشبهها في نظرهم قيّم السلعة وقيّم الكتاب مع أنّ السياق يميّز بينهما. عَنْوَنَ الجغرافيّون العرب بعض كتبهم ب" **تقويم البلدان** " وما التبس على أحد من القرّاء دلالة التقويم ولا ظنّ أنها من

قوّم المُعوَجّ كذلك فعلت العامّة قالت **قيّمها** تريد المبالغة في ردّ الفعل. أخذتها من القيامة، وأصلها القِوامة، سُبِقت واوها بكسرة فقلبت ياءً.

وألْفَتَ انتباهي، والمُلْفِت للانتباه، وإلفاتُ نظرٍ خطأ فادح. لا يستعمل إلاّ ثلاثيّا. فالصحيح لفت انتباهي، واللاّفت للانتباه، ولَفْتُ نظرٍ.

وما تَنْقِمُ منّا حين نقول: " وضعنا أقلامنا فوق الطاولة "؟

- أَنقِمُ منكم أنّكم لا تميّزون بين على وبين فوق. على تدلّ على المُماسَّة بخلاف فوق. يقال " وضعتُ القلمَ على الطّاولة" و" السماءُ فوقنا والأرضُ تحتنا ".ويقال"وفوق كلّ ذي علم عليمٌ ".

- وما رأيك في قولهم " كأنّ على رؤوسهمُ الطّيرَ " ؟ - هذا عليك لا لك. على للمباشرة كما ذكرت لك. ذلك أنّ البعير يلصق به القرادُ ويقع الطائر على رأسه ليقتات ممّا لصق بها وبجسمه من قراد. فيسكن البعير سكونا تامّا لئلاّ يزعج هذا الطائر الذي يخلّصه ممّا يؤذيه.

- وكيف تخطّئ من روى قول الجاحظ كما وجده ؟ ألم يَقُلِ الجاحظ: " البلاغة هي الإيجاز " ؟

- أبدا، إنّما قال : " البلاغة الإيجاز ". لا يفصل الجاحظ بين المبتدإ والخبر بالضمير **هو** أو **هي** فصلا مطلقا كما يفعل الكثير منّا. ذلك ينافي الأساليب العربيّة. إنّما كثر هذا الفصل بأثر من نقل النصوص اليونانيّة إلى العربيّة. أمّا في باب :كان وإنّ فيصحُّ الفصل بين الاسم والخبر بضمير يدعى ضمير الفصل وضمير الشأن وضمير القصّة. ومنه " ألا إنّ اللّهَ هوَ الغفورُ الرحيم " (الشورى 5) ومنه " وأنّه هو أضحك وأبكى وأنّه هو أمات وأحيا " (النجم 43).

- وكيف يُضحكنا اللّه ؟

- إنّ اللّه لا يلعب معنا. تعالى عن ذلك علوّا كبيرا. المراد بأضحك : جعل

الإنسان يضحك، خلق فيه القدرة على الضحك. لِنَعُدْ إلى ضمير الفصل فإنّ الطلبة كثيرا ما يخطئون فيه ويجعلونه مبتدأ ثانيا. يكتبون مثلا : "كنتُ أنا القائمُ عليهم" وليس لضمير الفصل عمل. الصحيح : " كنتُ أنا القائمَ عليهم ".

ومن قال " المنسوب له " كمن قال " المضاف له ". إنّما التعبير الصحيح " المنسوب إليه" و" المضاف إليه ". ما أكثر ما يخطئ الناس في التعدية بالحرف لعدم تمكّنهم من الأساليب العربيّة !

- وأين اللّحن في " مدّوا أياديَهم إليه يلتهمونه التهاما " ؟

- لِلْيَدِ معنيان : **الجارحة** التي نتناول بها الأشياء ونعمل بها وجمعها **أيْدٍ**، و**النّعمة** -وهي على المجاز- وجمعها أيادٍ. ومن ذلك قول المتنبّي:

وكم في ظلام اللّيل عندك من يَدٍ   تُخَبِّرُ أنّ المـْانَوِيّةَ تكذبُ !

وقول البحتريّ :

واجتماع الأضداد فيما تُوالي من أيادٍ فينا ثقالٍ خِفافِ

فالتعبير الصحيح " مدّوا أيديَهم إليه يلتهمونه التهاما ".

ويكثر اللّحن في التشديد وعدمه وبخاصّة في حروف العلّة. يشدّد بعض الطلبة الياء في " أقدار متساوِيَة" (متساويّة) ويخفّفونها في "مشكلة سهلة عاديّة" (عاديَة) مع أنّ الأولى على وزن مُتَفاعِلَة والثانيَة ياء النسبة. وقد

لاحظت أنّ الذين يخطئون في مثل هذه المعتلاّت لا يعرضونها على أوزانها الصرفيّة ولو فعلوا لاُستراحوا من عنائها. ولا يبسّطون الجمل لينتبهوا إلى أنّ تركيبها فاسد. لا يوجد تلميذ في الابتدائيّ بَلْهَ الطالبَ المترشّح لشهادة الدكتوراه يقول " جاء والتّلميذُ" بعطف الفاعل على فعله. ومع ذلك من هؤلاء الطلبة ومن الصحفيّين والمذيعين من يقول " سبق وأن أشرْنا " يريد " سبق أن أشرنا إلى...". ولو بسّط التعبير لقال " سبقتِ الإشارةُ " وأدرك أنّ " سبق وأن أشرنا " أبعدُ ما يكون عن العربيّة " بُعْدَ " سبقَتْ والإشارةُ ".

ومنهم من يدخل لَمّا على المضارع المرفوع. يقول أو يكتب " لَمّا نقومُ " يريد " حين نقومُ أو " عندما نقوم ". وهو تعبير عامّيّ وقع فيه " علماء أجلاّء ". لا تدخل لَمّا إلاّ على ماض (لَمّا قام) أو على مضارع تجزمه وتجعله دالاّ على زمن ماض (لَمّا يَقُمْ).

وما عندك في إنّ بعد القول ؟

- قليل من كثير أُوجِزُهُ في مثالين :

لنتخيّلْ رجلين خائضين في حديثٍ وبالقرب منهما ثالثٌ. يقول الأوّل لصاحبه : " إنّي راضٍ بما كتب اللّه لي". أراد الثّالث أن يعرف ما قال. فسأل الثانِيَ عن ذلك ولم يكن سمعه. فأجاب الثاني : قال : " إنّي راضٍ بما كتب اللّه ". من الواضح أن الثاني لم يزد على أن روى قول الأوّل حرفيّا ". هذا ما سمّاه النحاة " الجملة المحكيّة بالقول" وقالوا بوجوب كسر إنّ المحكيّة بالقول.

فإنْ كانت **قال بمعنى ظنّ** نصبتْ مفعولين. ونُمثّل لها بما يفيد الظّنّ مثل " أتقول أخاك آتيا بعد غدٍ" ؟ تريد : أتظنّه آتيا ؟ وبِما أنّ **ظنّ** تطلب مفعولا وجب فتح همزة إنّ بعد قال المفيدة للظّنّ أو ما يقرب منه. ومثال ذلك " أتقول أنّ أخاك آتٍ " ؟

هذا بالضبط ما نجده في حديثنا اليوميّ : "واشْ تقول في القضيّة "؟ بمعنى " ما رأيك في القضيّة؟ أبْدِ رأيك فيها. ما ظنّك ؟ ... ويكون الجواب: أقول أنّ المسألة... ، أرى أنّ ...

عبّروا بِالقول لأنّ الرّأي لا يكون إلاّ به.

ممّا سبق يتضح الفرق بين قال إنّ... وقال أنّ...

أمّا **ما زال ولا زال** وما إليهما فنرجئ القول فيهما إلى لقاء آخر.

آليات الإقناع في التخاطب البياني

د: **غانم حنجار** (ج.ابن خلدون-تيارت-)

مقدمة:

شاع الاعتقاد بالتمايز العقلي بين الأمم والشعوب، ومرد ذلك الاختلاف أمر مكين بقوة الفطرة « **فأقم وجهك للدّين حنيفا فطرة الله التي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون»** [1]. وتأسيسا على ظاهرة التمايز الفكري الذي ينبغي إدراجه في سياق التكامل الإنساني لا التفاضل الجنسي- كما أرادت بعض المفاهيم المتعصّبة ترسيخه- فإنّ مقولة «**الشرق بياني والغرب برهاني**» لا يمكن اعتبارها إلاّ ضربا من التصنيف المغالط، الذي يجعل الحضارات مرهونة لهذا التصنيف أو ذاك. فإذا كانت الحضارة الإغريقية قد قامت على العقل، والعقل صفة في الإنسان مقدّم على سائر الصفات والقيم. فلا يعني بحال أن تكون حضارة اليونان ملهمة لبقية الحضارات الإنسانية كما يزعم بعض الدارسين؟ أو يكون الرجل الغربي بفعل هذا الشعور هو وحده من يستأثر بالعقلانية، والفكر الراشد، والأمر سيان بالنسبة لأهل البيان. فالأمة العربية ذات بيان عال، يشهد لبراعتها البلاغية كلّ من احتكّ بها في مضمار التخاطب والكلام ، ومع هذا لا ينبغي عدّ هاته الخصية سببا تفوقياً، تتأسّس عليه حضارة البيان في مقابل حضارة البرهان.

والذي ينبغي ادّعاؤه هو أنّ الأمم متكافئة بفضل مواهبها الإدراكية، وهي في ذلك على أقدار متفاوتة من العقل والبيان، لما بينهما من تعلق، وتكامل، وتأثير. وإنْ جرى في معتاد الناس أنّ التخاطب الإقناعي لا محالة يحصل بقوة البرهان، وحجّة العقل.

فإلى أي مدى يمكن تصديق هذا التوهّم؟ ألا يمكن فرض الإقناع بسلطان البيان متى توافرت الشروط، وتهيّأت لذلك السياقات؟ كيف يقنع البياني مخاطَبيه؟ وما هي آلياته الوظيفية في ذلك الاختيار؟

هذا ما تسعى الدراسة إلى بسطه من خلال التعرّض لأهمّ العينات النصية الدالة، ومن مختلف الأجناس الأدبية.

1 - البيان: الدلالة والسياق:

تفحّص المعجميون مادة «بين» فوجدوها جامعة لمعاني الوضوح، والإظهار، والفصاحة، يقول الإمام الجوهري(393-هـ):«البيان، الفصاحة واللَّسَن.»[2]، وتعني عند ابن منظور(711هـ): «... والبيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ. وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع اللسن. وأصله الكشف والظهور.»[3]

أما في مدوّنات التفسير؛ فللعلماء إزاء لفظ البيان أقوال لم تحَد بعيدا عمّا أشار إليه اللغويون المذكورون. فهم يفسرون قوله تعالى:«**خلق الإنسان علّمه البيان**» بحسب كل مدرسة، وما عرفت به من التوجّه في فهم الظواهر القرآنية. فالإمام ابن كثير(...774هـ) يعتمد رأي الحسن البصري(110هـ) «قال الحسن: يعني النطق، وقال غيره: يعني الخير والشر. وقول الحسن ها هنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى

القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الحلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها على اختلاف مخارجها وأنواعها».(4)

أمّا الإمام جار الله الزمخشري (467 - 538هـ) فيرى البيان هو «ما تميز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب.» (5)

في حين يذكر الإمام الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين«..وحينئذ فالمراد بالبيان علم ما كان ،وما يكون ، وما هو كائن. وقيل: آدم عليه السلام، والمراد بالبيان أسماء كل شيء، ما وجد، وما لم يوجد بجميع اللغات، فكان مئة لغة أفضلها العربية.» (6)

فجملة هذه التخريجات تتقارب في المدلول، وتلتقي عند معنى النطق والفصاحة التي لا تحيد عن مدلول البلاغة إلا بقدر من التلاؤم مع الحقل الجمالي، كون مصطلح البيان في الدرس البلاغي شديد التعلق بالصفة الجمالية، التي اشتغل على أثرها ثلة من النقاد، والبلاغيين بدءا بالجاحظ (255هـ) وانتهاء بالإمام السكاكي (626).

فيكفي أن يكون الجاحظ ألّف كتابا صريحا فيه، وحشد في مضامينه نصوصا وشواهد واستدلّ بالشروح، وأفاض بالأخبار لغرض إقناع الخاصة قبل العامة بشرعية السلطة البيانية من باب كونها مزية عربية، وخصيصه قومية نطق بوجودها القرآن. ولأجل هذه القيم عرفه الجاحظ بقوله: « البيان اسم جامع لكل شيء، كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنس كان ذلك الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام.

فبأيّ شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.» [7]

فالجاحظ يستجمع لصفة تحقق البيان في الخطاب أطراف التخاطب، ومقاصده، وطرائق تحقيقه وسياقاته، فيكون قد وسّع من مدلوله وربطه بالوظيفة التواصلية، التبليغية التي تقتضيها الوظيفة الإمتاعية في المقام المتأدِّب. ومن هنا يقنعنا أن البيان خصوصية لسانية يتعذر إتيانها لدهماء الناس وعمومهم.

أما السكاكي فقد فسّر البيان مستفيدا من الآراء السابقة له في باب النقد البلاغي. فنظر إلى البيان نظرة معيارية.« فأدخل الدلالات في تقسيم موضوعاته التي انحصرت في التشبيه والمجاز بأنواعه والكتابة»[8] قاصدا المعنى التصويري بفعل التخيل، وهو العنصر الذي تقتضيه أدبية التصوير في السياق الجمالي.

والخلاصة من كلّ هذا. إنّ مصطلح البيان واسع الدلالة، متشعِّب المراد، لا ينضبط إلا بحدّ سياقاته المعرفية التي تتعاضد في كلّها مشكِّلة التوصيف المدلولي بسمته اللغوي والاصطلاحي.

2 - آليات الإقناع في مقامات التخاطب البياني:

إنّ العلاقة التي تجمع بين ثنائية المقام والمقال لا يمكن اختزالها في المتن القولي، وتحديد المناسبة التي سيق فيها ذلك القول. ولكن مدار الأمر يقتضي الشعور بأطراف الخطاب من: متكلم بمواصفاته العقلية والنفسية، ومتلق مقصود بذلك الخطاب، لغاية يحملها المخاطِب سلفا في وعيه. ولأجل هذا تكون مقولة: « لكلّ مقام مقال « قد أحاطت ضمنيا بالدورة الخطابية إحاطة تامّة، وفرضت على المتكلِّم حينها الشعور

بمسؤولية التبليغ والإفهام، الذي لا يعني أكثر من كونه مخاطِبا بليغا، تترتّب عليه واجبات التأديّة في أعلى مستوياتها. يقول ابن المقفع «إذا أعطيت كلّ مقام حقّه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك **المقام**، **وأرضيت من يعرف حقوق الكلام...»** [9]

فإرضاء من يعرف حقوق الكلام بأية أداة يكون ؟ وإلى أيّ سبيل ينتسب؟

فالناس مفطورون على الاختلاف، ومحتوم عليهم الانتهاء إلى حد من التلاقي والتفاهم. لكن ما السبيل إلى ذلك ؟

«فطرق التصديق الموجودة للناس ثلاثا: البرهانية ، الجدلية، الخطابية... وكأنّ الناس كلّهم ليس في طباعهم أن يقبلوا البراهين. ولا الأقاويل الجدلية فضلا عن البرهانية من العسر.»[10]

وهذا إشكال متحقّق ، وسيظل قائما بين المتخاطبين على مستوى التواصل ولا سيّما إذا ما كانت البرهانية، أو الجدلية خيارا تخاطبيا. لأنّ طبيعة اللغة البرهانية بتجريدها، وجفاف مقولاتها، والتواء طرق تعبيرها عن الأفكار تلحق النفور لا محالة، وتلقى البرودة في حسّ المتلقي. وهذا مؤشّر كاف على عجز التلقي والاستيعاب.

فالحكم هذا لا يعني بحال أنّ التواصل قد ينصرم حبله بين الأطراف، لأنّ الإقناع البرهاني متوقِّف على قوّة الاستدلال الحجاجي، وعلى تخيّر النخبة المقصودة بالسماع، فالمعاني اللطيفة «لا يبصرها إلاّ ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدّة، لأن تعيّ الحكمة، وتعرف فصل الخطاب.» [11] مّما يهيئ للقول:

إنّ الإرضاء بالبيان، والإقناع بفن الخطاب يكون خليقا بأن يستغرق الكثرة الكاثرة من طبقة الخواص، ممّن هم في مقام التلقّي، إن حشِر له من أدوات التبليغ ما يوفي الغرض حقّه.

وحتّى نعدّد بعض أهم الآليات الإقناعية بالبيان فلا مناص من التمثيل لها، وبأوضح النماذج الصالحة، وبقدر من التنويع النصّي من خلال الجمع بين الحديث النبوي، والمقطوعة الشعرية والمساءلة الهادفة، والتوقيع الرسمي، إيمانا منّا بصلاحية هذه العيّنات لا اشتمالها على شرائط التخاطب التواصلي في بعده الجمالي.

1 - النبرة الصوتية:

ويراد بها التأدية الشفوية للخطاب، حيث يعدّ الصوت قيمة مطلقة، ذات محمولات دلالية تجاه المتلقّي، وفي سياقات معينة. لأنّ العرب وضعت شرطا في الخطابة، يتعلّق بصفة الصوت. **فكان إذا سُئل أحدهم عمّا هو الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحب الأشداق، وبعد الصوت.** وهو ما يفسر اقتناع الجاحظ بأنّ الصّوت البشري هو كل شيء بل هو الإنسان نفسه[12]. فبه نتسامع، وبه نتفاهم وعليه مدار التبليغ. فهذا نبينا- صلى الله عليه وسلم - لم يمنعه في حجّة الوداع الاستعانة بصوت عمّه العباس، وسياق الحدث أمر جامع للناس، من كلّ جنس وجهة. قاموا مصغين له، منصتين لمقرّراته -صلى الله عليه وسلم- على أنها مقرّرات حاسمة وأبدية ملزمة. وسياق الخطاب هنا يستلزم حسن إفهام الخطيب، مع حسن فهم السامع.

ولكن من ذا الذي يجرؤ على الشكّ في كفاءته – صلى الله عليه وسلم - لحظة التبليغ فيطلبَ منه بلاغة الخطاب، وهو الذي استوي له عود الكلام، وأوتي جوامعه مختَصَرا ؟ ولكن استعانته بصوت العباس كان

قد حقّق غرضه الإبلاغي بانتفاع المسلمين في هذا اليوم المشهود، كما انتفعوا ثانية بصوته يوم حنين، ساعة انكفأ المسلمون عن رسول الله فَرَقا وبقيّ وحده- صلى الله عليه وسلم - تتربّص به دوائر الشماتة والرِّيب في حصول النصر. وكان إلى جنبه **«العباس آخذا» بلجام بغلته دلدل وهو عليها وكان العباس جسيما، شديد الصوت فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :« يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار. يا أصحاب السَّمُرة. ففعل فأجابوه»** (13) **وزاد مسلم:«فقلت – أي العباس- بأعلى صوتي: يا أصحاب السّمرة فقال: فوالله لكأنّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها...»** (14)

والقيم التعبيرية للصوت شديدة الظهور في كلّ المقامات الحاسمة، من تاريخ الصراع الحضاري للأمّة. فالمفاوض والخطيب، والقائد على حدّ سواء مطلوب منهم في سياق العسرة والشدة التّقَوّي بالمظهر، والسّمت المعبِّر، لأنّ التأدية الصوتية تكون وقتئذ أُولى رسائل التبليغ نحو عقول، ونفوس الخصوم. فقد روى الجاحظ أنّ عبد الملك بن صالح قد ترأّس الوفد العربي في إحدى الجولات التفاوضية مع الروم، وحدث أنْ عطس أحد الوافدين المسلمين في حلقة الاجتماع عطسة باهتة، ضعيفة فوبّخه عبد الملك بالقول:» ويلك هلاّ كنت ضيّق المنخر، كزّ الخيشوم أتبعتها بصيحة تخلع بها قلب العلج.»

2 - ملازمة الحقيقة ومطابقة الواقع:

جلّ الناس يحفظ قوله – صلى الله ليه وسلم-: « إنّ من البيان لسحرا» (15) ، وقلّة هم من يدري سياق الحديث، وملابساته الظرفية، وآثاره السلوكية في السامعين المعنيين به.

« سأل النبي – صلى الله عليه وسلم - عمرو بن الأهم عن الزبرقان بن بدر؟ قال: مانع لحوزته، مطاع في أَدْنِيه فقال الزبرقان: أما أنّه قد علم أكثر مما قال، ولكنّه حسدني شرفي. فقال عمرو: أما لئن قال ما قال. فوالله ما علمته إلاّ ضيّق الصدر، زَمِر المروءة، لئيم الخال حديث الغنى. فلمّا رأى أنّه خالف قولُه الآخِر قولَه الأول، ورأى الإنكار في عيني رسول الله - صلى الله ليه وسلم - قال: يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما علمت. وغضبت فقلت أقبح ما علمت. وما كذبت في الأولى. ولقد صدقت في الآخرة. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: « إنّ من البيان لسحرا.»

فالحاصل أنّ هذه المساءلة تحيل إلى جملة من الدلائل والإشارات نذكرها كالآتي:

أ.إنّ النبي – صلى الله ليه وسلم - حديث اللقاء بهذا الوافد، وكان من خصاله – صلى الله عليه وسلم - تهيّئة سياق المعاملة لكلّ ضيف يقصده،كي ينزل الناس منازلهم . ويتعّرف على ذوي المروءة من الأشخاص بوصفهم أعيان أقوامهم.

ب .كان- صلى الله ليه وسلم - يستعين مع نبّوته وعصمته بأصحابه، وجلسائه حتّى في الشأن العادي، غير أنّه ما كان يأخذ الأقوال، ويقبل الشهادات، والآراء على علاّتها من دون نظر وتدبر..

جـ .إنّ عمرو بن الأهتم رجل لسِن فطن، بارع في الأنساب. وإنّ قوله الأول في الزبرقان كان قد فهمه- صلى الله عليه وسلم - ، وما انطوى عليه من البيان، فقد التبس المدح الظاهر بالهجاء الباطن، وهو ما يعرف عند البلاغيين بفن **التعريض**.

د. إنّ انفعال الزبرقان، وطبيعة ردّه الصريح يكشف عن خيبة ظنّه في صاحبه، وإنّ إحساسه بانتقاص القيمة بحضرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم -أمر محرج قد يضّر بسمعته في مجتمع القبلية.

هـ. إن قول عمرو الثاني في الزبرقان ينمّ عن طويّة، جعلت ابن الأهتم يتمادى حدود اللياقة في ذلك المقام المهيب (مقام النبّوة)، فطاوعه لسانه من حيث إنه تعمّد – بمقتضى السياق- الطّعن والسِّباب بطائل من الأوصاف راعى فيها : **حسن التقسيم، ورصف النعوت وإغلاظ القول**... ومن الطبيعي المنتظر عقِب هذا الموقف المثير أن يمتعض النبي -صلى الله عليه وسلم - لتناقض الجوابين، فتعِّن عليه ملامح السخط لما شاهد وسمع – وحاشاه - صلى الله عليه وسلم - أن يشهد زورا أو يقّر منكرا.

فاستعجل عمرو الموقف - مستدركا - بعبارات كلّها وضوح، وصدق وبيان. مخافة أن يطاله غضب النبي - صلى الله ليه وسلم - وحينها فقط قال - صلى الله عليه وسلم - : (إنّ من البيان لسحرا).

فالتزام الحقيقة، ومراعاة الواقع من مقتضيات البيان الحجاجي حتىّ في المقامات الحرجة.

3 -الإقلال و الإدلال:

يروي ابن الأعرابي * (188هـ- 264هـ)أنّ معاوية قال لصحّار بن عيّاش العبدي:

«ما هذه الفصاحة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا. فقال رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين هم بالبُسُر و الرُّطَب أبصر منهم بالخطب، فقال صحّار: أجل. والله لنعلم

أنّ الريح لتنفخه،وأنّ البرد ليعقده، وأنّ القمر ليصبغه، وأنّ الحرّ لينضجه فقال معاوية: ما تعدّون البلاغة فيكم ؟ فقال: الإيجاز.قال: وما الإيجاز؟ قال: أن تسرع فلا تبطئ، وأن تقول فلا تخطئ.›› [16]

فسياق المحاورة تحيل إلى الأحداث العلمية في المجالس الرسمية التي يشرف على إدارتها الساسة والقادة من أمراء الكلام أمثال معاوية – وهو ما هو في البيان وفن المفاوضات –.

فطابع اللقاء علمي مفتوح على الخاصة والعامة، من عرض القوم لغايات محسوبة منها: التعبئة العلمية، والرعاية الاجتماعية الكافلة أقْدار النخب العارفة، فضلا عن مقاصد يراد منها التعليم وحسن التأديب. إلاّ أن اللاّفت في السياق التحاوري هو الإقناع البياني، والطريقة الحاصل بها. وهي طريقة استجوابية، قائمة على المواجهة والمباشرة، والارتجال الذي يفهم منه سرعة الخاطر المجسّد في الالتفات الخاطف، والتنقّل بين المقامات الخطابية وفق حال كلّ سائل وسامع، وبقدر من الكلام الدال الموجز، الذي لا يحصل بعده تعقيب، أو تقصّ علامة على قوّة الحجة، ووضوح الفكرة التي تقضي بالأقل الأدل.

وهذا القليل الدال كثير في موروثنا التخاطبي، والأكثر فيه ما نلاحظه في فن التوقيعات التي تعتمد صفة «**الإقلال و الإدلال**» رعاية لخلفية المتكلم البياني، والمتلقي المماثل الذي يفهم إشارة الموقِّع على ومضّيتها، ولطافة معانيها، فقد وقَّع خليفة إلى أميره نصّا جاء فيه : « **كَثُر شاكوك وقلّ شاكروك. فإمّا اعتدلت، وإمّا اعتزلت**».

«فهذا إيعاز خاطف ينطوي على أسرار بيانية توزّعت في مستويات البناء التركيبي والدلالي، مشيرة إلى طائل من الملامح البلاغية على مستوى بناء التوقيع .

فالموقِّع بنى نصه بتحديد أطراف الخطاب وهم:

1. الأمير المخاطِّب وما يحمله من صفات النفوذ والسلطان.

2. الوالي المخاطَب وما يترتّب عليه إزاء هذا الإشعار المستعجل.

فهذان الطرفان ظاهران بالقرائن اللفظية، والسياقية، والموضعية، ممّا يجعلهما في مقام المعلوم المشخَّص، وهو أسلوب إضماري يدنو من الكشف والتصريح، في حين أخفى السيّاق الخطابي بقيّة الأطراف كلّيا، واكتفى بالإشارة التوصيفية لهم بلفظ «**الشّاكون و الشّاكرون**».

وهما توصيفان مشحونان بالمعاني الرّامزة، والتي يفيد معها التركيب اللّفظي عدد الشاكين والشاكرين من جموع المسكوت عنهم من الرجال والنساء، حتىّ وإن قضى العرف التخاطبي التصريح بقرينة الواو و النون للدلالة على جمع السلامة انسجاما مع قاعدة «**التغليب**».

أما على مستوى ترتيب المعاني المتضمّنة في نص التوقيع، فالمتكلّم حين كان على حال من الكفاءة البيانية، وفي مقام إثبات الحجّة - بالدليل الفصيح - على مخاطَبِه فقد عمد إلى ترتيب الأفكار في سياق منطقي، يشمل مقدّمة واقعية أساسها: «**كثرة شاكيّة، وقلّة شاكرة**».

استلزمت نتيجة مفادها: «**الاعتدال أو الالتزام**». فهذا التوازي البياني في رّص الألفاظ، ودقّة التقسيم، وخفّة العبارة، وصرامة الموقف، وتخيّير المعنى المناسب للموقف المناسب، كلّها إجراءات بلاغية أملتها ضرورة التشكيل البياني، في مثل هذه اللاّفتات الكلامية العاجلة.

ثمّ من اللطائف البيانية المؤثّرة في نص التوقيع أنّ الأمير ذو دراية بدبلوماسية الخطاب. فهو يدري سلفا حجم الهزّة النفسية على عقل،

وحسّ متلقّيه، فبالقدر الذي آلمه وأرعبه وأشقاه، بقوله: «**كثر شاكوك، إمّا اعتزلت**» فقد فتح أمامه فسحة الأمل بإمكانية الاستمرار في المنصب شريطة تحقّق الإنابة والالتزام، من خلال قوله: « **قلّ شاكروك. إماّ اعتدلت.**»

فهذه الصنائع البلاغية اقتضتها **الحقائق المرّة** ، ولأجلها قالوا قديما:«**الحقائق مرّة فالتمسوا لها خفّة البيان.**»

فخفّة البيان، واقتصاد اللغة، واستحضار المكوّنات الخطابية، جميعها مستلزمات تصبّ في حقل الاحتجاج البياني، الذي يُراهَن على حضوره في التخاطبات الأدبية الحاسمة.

4 -حضور البديهة وسرعة الخاطر:

نستدل لهذه الآلية التخاطبية في مقام الإقناع البياني بقضية الشاعر أبي تمام (180هـ- 228هـ) حين أنشد سينيته المشهورة لحضرة فيلسوف الإسلام يعقوب بن إسحاق الكندي في الأمير أحمد بن المعتصم فلما بلغ قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم * في حلم أحنف في ذكاء إيّاس**

قال له الكندي: ما صنعت شيئا، ما زدت أن شبّهت أمير المؤمنين بصعاليك العرب، فأطرق أبو تمام، ثمّ أنشأ يقول:

لا تنكروا ضربي لمن دونه مثلا * شرودا في الندى و البأس**

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس**

ولم يكن هذا في القصيدة. فتزايد العجب منه، ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال الكندي: « ولّوه لأنّه قصير العمر، لأنّ ذهنه ينحت من قلبه. فكان كما قال.»[17]

فمن غريب المصادفات أن يجمع المقام برهانيا جدليا، إلى جنب شاعر بياني لهما من اختلاف القناعات، والرؤى ما يتعسّر معهما تحقق الوفاق. فاعتراض الكندي وطعنه في شعرية أبي تمام له وقعه في الشاعر بخاصّة. في تلك المناسبة المهيبة، ولو قُدِر لأبي تمام أن أرُتِج عليه ، أو انحبس عليه نفس الشعر خلال الإلقاء لكان هو العجز والعيّ ، ولصار الموقف أدعى إلى الشماتة و التشفّي. لكنّ الخلاص من حرج الموقف جاء بفعل عفوية الشاعر، واقتداره على الاسترسال بما ليس في الخاطر من قول أبلغ وأسرع، سدّ عليه منافذ الانتقاد، وحوّل الرأي المشاكس إلى حال من الرضا والاقتناع بمهارة الشاعر، الذي لم يكن إلاّ بيانيا يستمدّ الحجّة من سند البديهة، وحضور الخاطر. وليس ذلك مُتاحا لعامّة المتكلمين.

5 - الاستمالة والتأثير:

إنّ أبرز مهمّات الخطاب الفني هو التأثير في الذّات السامعة ، وإمتاعها حسّيا، ووجدانيا بما تقتضيه آليات الوظيفة الشعرية. ومن هذا التوجيه كان الإلذاذ مقصودا في وعي الشاعر، والخطيب والبياني، فكلّ يستخدم غالبا معجما عاطفيا المراد منه كسب الآخر، واستمالته بغرض إقناعه بوجهة نظره، التي يسوِّقها جماليا بعبارات أوضح ما تكون عليه من وحي الدلالة، وصدق الفكرة[18] وحجيّة الصياغة، لأنّ البياني المتكلم هنا تدفعه إلى تغيير حال سامعه، والتصديق بمحمولات الرسالة الخطابية الموجهة بشأنه عاملان انفعاليان هما:

الخوف و الطمع. والكلام في جلّه إذا ما انطبع بطابع الانفعال الذاتي كتُِب له صدق الادّعاء لأنّه وليد التأمل الذاتي. فهو إلى الاستبطان والتأمّل الداخلي أقرب منه إلى استقراء الأسباب بالعقل الظاهر.

فكعب بن زهير قد أهدر النبي [19] – صلى الله عليه وسلم – دمه، وشاع خبره بين الناس مسلمين ومشركين فقاده الخوف والطمع في أن يقصد رسول الله – صلى الله عليه وسلم- منيبا مستغفرا.

يقول كعب بن زهير: «**فعرفته** - صلى الله عليه وسلم - **بالصّفة فتخطّيت الناس إليه فأسلمت، وقلت: الأمان يا رسول الله، هذا مقام العائذ بك**... فأنشده قصيدته التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيّم عندها لم يُفْد مكبول**

وكانت القصيدة طويلة. ابتدأها على سنة الجاهليين بالتشبيب، حتىّ إذا تخلّص من الحديث عن سعاد، انبرى يخاطب النبي – صلى الله عليه وسلم - مستعطفا، معتذرا، ملقيا اللائمة على الوشاة الذين بغّضوه إلى النبي- صلى الله عليه وسلم - وصحبه، بمعان وألفاظ إيمانية تشهد لصحّة إسلامه، حتىّ إذا وصل إلى قوله:

نبئت أنّ رسول الله أوعدني ***والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاهداك الذي أعطاك نافلة ال*قرآن فيها مواعيظ وتفصيل**

لاتخذني بأقوال الوشاة ولم * أذنب و إنْ كثر فَّي الأقاويل**

إنّ الرسول لسيف يُستضاء به* مُهنّد من سيوف الله مسلول**

انفتحت بعد هذا التوصيف الرائع أسارير النبي- صلى الله عليه وسلم- وخلع عليه بردته الشريفة، قابلا عذره، راضيا عنه بفعل قوته البيانية، التي حقّقت العطف والاستمالة، وقلبت المقام إلى نقيضه. وهكذا يكون كعب قد استعبد قلب النبي- صلى الله عليه وسلم - بإحسان القول فيه. فعاد وقلبه مطمئن بالإيمان.

6 - جمال الهيئة و حسن الشارة:

هاته ليست صفة كلامية ولكنّها حالة متعلّقة بالمتكلّم لحظة التأدية الخطابية، من باب تعلّق الصفة بالموصوف. فللمظهر دلالة على المخبر، وحسن السّمت غالبا ما ينطوي على همّة، وعقل وكمال. ولأجل هذا اشترط أهل الحديث في المحدِّث: أن يكون حائزا على شروط تأنّقيّة، تبعث على الإكبار، والإعجاب منها :

أن يكون **مُحكِّما عمامته، ممُشِّطا لحيته**. بل جاء في الأثر: « **أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم. فو الله إنّ أحدهم ليعثر ويده بيد الرحمان.**» ولم يعتن الإسلام بالحث على إبداء الزينة، وتحسين السمت في مقامات الاحتفال بالناس إلاّ من باب اعتبار ذلك دليلا صريحا، وعنوانا شاهدا لحقائق كامنة تحيل إليها الظواهر، مادام الإنسان مأخوذا بها. فإذا انعدمت هاته الصفة في البليغ أو المُحاجِج أو المحدِّث، أو البياني ضاع كثير من شأنه الاعتباري، وسقط في أعين الناس و هانت همّته لهوانه عليها. وقديما قالوا:«**تسمع بالمُعَيْدي خير من أن تراه**». ومورد المثل يحيل إلاّ أنّ المُعيدي رجل له شأن في المعنى، والأثر والسلوك، ولكن حين لزمه قبح المنظر، وعَدم جمال الشارة لم يشفع له المضمون النفسي ولا الوزن العقلي، ولم يعد يقنع الرائي بحال.

فالإقناع بالهيئة الحسنة قيمة مضافة لشخص المخاطِب، تتعزّز بجمالية البيان، والتأديّة، والإسماع لأنّ « **المرء مخبوء تحت لسانه**»، «**وإنما جُعِل اللسان على الفؤاد دليلا.**»

الخلاصة:

بناء على ما تقدّم من الشروح والاستدلال بالنصوص المحقّقة، فإننّا ننتهي إلى الملاحظات الآتية:

1 - إنّ التواصل اللغوي يظلّ قائما بين المتخاطَبين، سواء حصل ذلك بخلفية البيان، أم البرهان.

2 - إنّ التمايز الحاصل بين الخطابين - البرهاني، والبياني- مردّه إلى ثقافة المتكلم، ومدى الطاقة الكلامية التي يمارس بها فعل الإقناع.

3 - قد يجتمع لدى المتكلّم البليغ الفن البرهاني، والصناعة البيانية في مقام واحد، حيث يتماهى الموضوعي بالذّاتي. ومثل هذا التوجّه كثيرفي خطابات أهل الحكمة، واللغة المتعقلة من أمثال زهيروأبي تمام، والمتنبي، والجاحظ، والعقاد، والمعري، وأبي حيان التوحيدي، والبوصيري ...

4 - إنّ المتنبي ولخصوصّية حجاجيّة استطاع إقناعنا بأفضلية المرأة على الرجل في سيّاق مخصوص، رغم استحالة القبول بهذا الحكم، وفي هذا المجتمع المرهون إلى فكرة أفضلية الذكرعلى الأنثى أبدا.

5 - إنّ عماد المتنبي في تقريرأفضلية المرأة على الرجل -أحيانا - كامن في الاحتجاج العقلي في سياق بياني جمع خلاله بين ثنائية العقل والقلب - أي الموضوعي والذاتي- **بنصاعة الفكرة وقوّة الحجّة. ورونق العبارة. وحسن المقايسة والتمثيل.**

وهذه عناصر عزّ اجتماعها إلاّ لمتكلِّم مخصوص، وفي مقام أدقّ خصوصية، كما هو الحال في مرثيته لأخت سيف الدولة، التي افتتحها بالقول:

نُعِدّ المِشرفية والعوالي * * * وتقتلنا المَنونُ بلا قتال (20)

فاسترسل في الإنشاد، حتىّ إذا بلغ مقام الإشادة بالأميرة الفاضلة، تجرّد من الضابط العقلي وأذعن إلى خياله بحسّ غير مسئول، فقال حينها:

ولو كان النساء كمن فقدن * * * لفُضِّلت النساء على الرجال (21)

و لكنّه أدرك أنّ المتابع العربي عضو في مجتمع ذكوري. وهيهات أن يتقبّل منه هذا التقرير الجريء. .فاستدرك على الفور باستدعاء الواقع المنظور، ليكون حجّة برهانية على كلّ ذي بصر وبصيرة.

فقال:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال** (22)

فيكون بهذه المقايسة السليمة، وبهذا التمثيل البليغ قد شكّل الحجّة الدامغة في إقرار الفكرة صورة وحكما، لأنهّ يمتنع على أيّ عربي، وفي أيّ حال ومقام من الزمان، أن يقرّ بأفضلية القمر على الشمس.

الإحالات

1 -الروم: آية 29.

2 - الجواهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت ج5 /2082 .

3 - ابن منظور، لسان العرب،

4 - مختصر تفسير ابن كثير، تح محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ج3 /45.

5 - جار الله محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ج4 /49.

6 - أحمد الصاوي المالكي، حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، دار الفكر، بيروت ج2 /153.

7 - الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، ط3، د ت.

8 - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، 2007.

9 - ينظر: حسن المودن، بلاغة الخطاب ألإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، داركنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2014، ص 314.

10 -ابن رشد نقلا عن محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول أنموذجا، أفريقيا الشرق لبنان ط2، ص 36.

11 -عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط3، 1983 ص 60.

12 - محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال «البيان والتبيين»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983. ص 111.

13 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ج2 /179.

14 - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ط7، 8،ص 386.

15 - ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، ص 174.

16 - الجاحظ: البيان والتبيين، ج1 /109.

17 - ينظر أحداث القصة في كتاب: شهاب الدين محمد بن أبي الفتح الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج1، ص 104.

18 - أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ص 156.

19 - تراجع القصة بتمامها بالكامل لابن الأثير، ج2، ص 186 وما بعدها.

20 - المتنبي، الديوان، بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص 265.

21 - ديوان المتنبي، ص 267.

22 - ديوان المتنبي، ص 267.

مكتبة البحث:

القرآن الكريم.

1 - ، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب.

2 - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، د ت.

3 - جار الله محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ج4.

4 - الجواهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ج5.

5 - حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، داركنوز المعرفة العلمية للنشروالتوزيع، الأردن، ط1، 2014.

6 - شهاب الدين محمد بن أبي الفتح الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ج1.

7 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ط3، 1983.

8 - المتنبي، الديوان، بيروت للطباعة والنشر، 1980.

9 - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، ط7، 8.

10 -محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

11 - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول أنموذجا، أفريقيا الشرق لبنان ط2.مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القلم، بيروت، ج3.

12 - ابن منظور، لسان العرب.

واقع استخدام اللّغة العربية في الإدارة الجزائرية

أ. د. عبد الناصر بوعلي (ج. تلمسان)

تقديم

أودُّ في بداية مقالتي أن أقدر الجهود التي بذلتها الجزائر في مجال تعريب الإدارة العمومية في الجزائر، والتي انطلقت حقيقة في نهاية السبعينيات من القرن الماضي وامتدت لسنوات عدة، محققة نتائج لا يمكن لأي أن يزايد فيها أو يقفز على أرقامها، خصوصًا إن نحن وقفنا على حالة الإدارة الجزائرية غداة الاستقلال والسنوات التي تلت ذلك، حيث كانت العربية مغيبة حتى في الحالة المدنية التي تعد منطلق الهوية الشخصية لكل مواطن.

لقد كانت الإرادة صادقة في الدعوة إلى تعريب الإدارة، وتجسيدا لذلك سنت قوانين وصدرت العديد من القرارات والتعليمات من مستويات عليا لأجل تطبيق اللّغة العربية، وتكوين الموظفين والأعوان الذين يسهرون على هذا التطبيق، على أن الفجوة بقيت قائمة بين هذه القرارات والجهات المخولة للتطبيق لأسباب يطول الحديث فيها، ولا بد أيضا أن نقر- وهذا اعتمادًا على الواقع- أن هناك تهاونا يلاحظ أولا في المحافظة على المكتسبات المحققة، ولا أقول رجعة أو تراجعا كما يحلو للذين يريدون تسويد الوضع وتشويه الجهود المبذولة، وإنما نلاحظ تثاقل العجلة، وحتى لا تتوقف؛ نرى من الواجب تحريك الهمم والدعوة إلى تبني

إستراتيجية ممنهجة للنصوص مجددا في سبيل تطوير استخدام اللّغة العربية في إدارتنا العمومية، هذه الإدارة التي تعد واسطة بين المجتمع الجزائري الممثل في جانبه المدني، والجهات السياسية العليا القابضة لدواليب الحكم، والتي يقع على عاتقها التدبيروالتخطيط والتسيير.

وسأحاول إذًا معالجة القضية في محورين، المحور الأول يتناول إشكالية استخدام اللّغة العربية في الإدارة، والمحور الثاني أخصصه لتقديم نظرة تحمل توجهات تأهيل الإدارة الجزائرية؛ حتى تستعمل اللّغة العربية فعلا.

إشكالية استخدام اللّغة العربية في الإدارة:

أ-الاستخدام اللغوي: يوحي مصطلح الاستخدام بالجانب الوظيفي الذي تؤديه اللّغة في المجتمع الإنساني، فقديما عرف ابن جني اللّغة «بأنها أصوات يعبربها كل قوم عن أغراضهم»[1]، ونجد آخر تعريف يتداوله اللّسانيون الغربيون ينص أن اللغة «قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما»[2]، وبذلك نجد العلماء دأبوا على اعتبار وظيفية اللّغة الركن الأساس في تعريفها، وهذا يدل على الأهمية القصوى في ربط أواصر التعامل والتواصل بين أفراد المجتمع، ولولا هذه الوظيفية التي تختص بها اللّغة لأمست ضوضاء منتشرة في الفضاء، لا يلقى لها بال ولا تحظى بالعناية.

ومن هذه الوظيفية بنيت نظرية التواصل والاتصال التي أصبحت تقوم على تحليل العوامل المكونة لكل اتصال بين شخصين يتم بواسطة اللّغة، وقد عدد اللسانيون الوظائف الأساسية للغة فحصروها في

الوظيفة التبليغية، والوظيفة التعبيرية، والوظيفة الإيعازية، والوظيفة التواصلية، والوظيفة البلاغية، والوظيفة القواعدية، والوظيفة المعلوماتية، والوظيفة الفكرية، والوظيفة الاجتماعية، كما تطرقوا إلى الحواجز التي تعرقل الاتصال وتحول دون تحقيق هذه الوظائف.

وقد تعمدت الحديث عن طبيعة اللغة وإبراز أهميتها من منطلق قيمتها النفسية والاجتماعية والثقافية في التعامل بين المرؤوسين ومسيريهم، وبين الإداريين وعامة المواطنين الذين يقصدون الإدارة صباح ومساء لقضاء شؤونهم الإدارية.

ب-لغة الإدارة: عندما يخاطب أحد الإداريين مواطنا عاديا يراجعه في أمر من الأمور مستخدما اللّغة المشتركة بينهما: فإن تلك اللّغة لا تسهل فقط فهم المواطن للموضوع، ولا تحقق اقتصادا في الوقت وترشيدا للجهد المبذول فحسب، وإنما تحدث نوعا من الألفة بين هذا المسئول والمواطن، وتوجد كذلك تعاطفا بينهما، وتشيع نوعا من الرضا في نفس هذا المواطن العادي الذي لا يحسن إلاّ لغته.

أمَّا وإن تحدث هذا الإداري بلغة أجنبية لا يحسنها المواطن وقد يجهلها تماما، فزيادة على الحواجز التي تحدث في الاتصال وتعرقل الفهم وهي هنا حالات تخص الرسالة بسبب عدم فهم المقصود، فإن المواطن يشعر بأن هذا الإداري يمارس عليه نوعا من الاستعلاء ويحتقره ضمنا، أو أنه يتبجح أمامه بمعرفته للغة أجنبية.

وقد واجه أحد المواطنين قدم من عمق الجزائر إلى العاصمة لقضاء شأن إداري عندما خاطبه الموظف بلغة أجنبية لا يفهمها؛يابني أنت عربي

أم فرنسي؟ ولما علا بينهما الكلام صاح المواطن: لقد نلنا استقلالنا فحدثنا بما نفهم.

وشرح أحد إطارات شركة سونطراك لمواطني عين صالح قضية الغاز الصخري التي أثيرت مؤخرا باللّغة الأجنبية، ولم يفهمه أحد، فازداد تعنتهم؛ بل وثارت ثائرتهم أكثر.

إن هذا الأمر يؤدي إلى نفور المواطن من الإدارة، ويتنافي كليا مع مبدإ ضرورة انفتاح الإدارة على محيطها الاجتماعي، والتفاعل معه لتحقيق الغايات المرسومة لها. ثم إن مثل هذا السلوك يعرقل التواصل ويعسره.

إن التواصل إن أريد له الدوام والاستمرار لا بد أن يتم بأداة التواصل المشتركة بين المرسل والمرسل إليه، وتمثله اللّغة الوطنية السائدة. وفي هذا المطلب تدخل عملية ترسيم اللّغة الأمازيغية التي كان البعض إلى وقت قريب يعتقد أن في استعمالها ضررا للوحدة الوطنية، وهي في الحقيقة تدعم الشعور بالانتماء لهذا الوطن، لأن التواصل بها عند مستعمليها يشيع الاطمئنان في نفوسهم، و يعزز الانتماء للبعد الثقافي لمنطقة في الوطن.

ج- الإطار القانوني للغة العربية في الجزائر: لقد استعادت الجزائر أرضها واستقلالها من المستعمر الفرنسي منذ سنة 1962، بفضل التضحيات الجسام التي بذلها الشعب الجزائري برمته، وضمن اختياراته الكبرى المسطرة في المواثيق الوطنية والدساتير جاء في باب المبادئ والأهداف الأساسية لدستور سنة 1963 المادة 5 ما يلي :

اللّغة العربية هي اللغة القومية و الرسمية للدولة[3]

وتم تأكيد هذا الأمر في دستور 1976 ضمن المبادئ الأساسية لتنظيم المجتمع الجزائري ضمن المادة الثالثة (3) التي نصت: على أن اللّغة العربية هي اللّغة الوطنية والرسمية[4]، وتأكد الأمر نفسه في دستور 1989في المادة الثالثة(3) نفسها[5] ،وفي دستور 1996 [6] ،وفي دستور2002 [7]، ودستور 2008 [8].

ثم جاء قانون تعميم استعمال اللّغة العربية في الجزائر رقم 05-91 المؤرخ في 30 جمادى الثانية عام 1411هـ الموافق 16 يناير سنة 1991، ليجعل من استعمال اللّغة العربية أمرا ملزما ،إذ يقول في المادة (2) : اللّغة العربية من مقومات الشخصية الوطنية الراسخة، و ثابت من ثوابت الأمة يجسد العمل بها مظهرا من مظاهر السيادة واستعمالها في النظام العام.

وتقول المادة: 3 يجب على كل المؤسسات أن تعمل على ترقية اللّغة العربية وحمايتها والسهر على سلامتها وحسن استعمالها.

المادة 4 : " تُلزم جميع الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات على اختلاف أنواعها باستعمال اللّغة العربية وحدها في كل أعمالها ،من اتصال وتسيير إداري و مالي و تقني و فنّي ".

المادة 5: "تحرر الوثائق الرسمية والتقارير ومحاضر الهيئات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات باللغة العربية [9]."

يتجلى من هذه الإطلالة القانونية أن جميع الدساتير الجزائرية أضفت طابع الرسمية على اللّغة العربية ،ويعني هذا ما يعنيه عظمة المكانة التي

تحظى بها هذه اللّغة في نفوس الجزائريين، ويتجلى كونها لغة وطنية، لتعدد الوظائف التي تقوم بها على النحو الآتي:

1 - **الوظيفة التعبدية:** التي تعني أن كل الجزائريين دون استثناء مضطرون إلى استعمال اللّغة العربية في أوقات متقاربة يوميا، وما أضافته هذه الوظيفة من تثقيف اجتماعي يخص معرفة الثقافة الإسلامية، وما يحيط بها من علوم ومعارف.

2 - **وظيفة التثقيف الوطني:** التي تعني بث ما يحتاج إليه من احتياج ضرورة لشدّة ارتباطه بالأعمال التعبدية، ضمنه نجد علوم القرآن الكريم،وفقه العبادات والتعاملات، والسيرة، والحديث وعلومه، والعقيدة و أصولها.

3 - **وظيفة الانسجام الاجتماعي:** وتتمثل في حاجة الجزائريين إلى اللّغة العربية باعتباروظيفتيها السابقتين، وهي من هذا الجانب تجمعهم ثقافيا من حيث السلوك والفكروالعقيدة.

4 - **وظيفة الاندماج الإقليمي والتواصل الدولي:** كون اللّغة العربية مستعملة إقليميا في جميع البلدان العربية التي تنتمي إليها الجزائرإقليميا، والبالغ عددها اثنين وعشرين بلدًا، وأنها تحتل المرتبة الخامسة دوليا، بإعتبار الناطقين بها على المستوى العالمي، وهي من اللّغات الرسمية في الأمم المتحدة والوكالات التابعة لها، زد على ذلك أنها لغة إحدى الديانات السماوية الثلاث، ولغة حضارة يشهد لها التاريخ بالعظمة والتفوق في جميع العلوم ومناحي الحياة العامة.

وتنفرد اللغة العربية في الجزائر وغيرها من البلدان العربية بالقيام بكل هذه الوظائف دون أن تنافسها في ذلك أي من اللّغات المحلية أو الأجنبية على الإطلاق، وذلك ما يفسر تعلق الجزائريين بها، باعتبارها لغة وطنية ورسمية، وثابت من ثوابت الدولة الجزائرية.

4 - من واقع الاستعمال الإداري للغة العربية في الجزائر:

رزق أحد المواطنين بنتا في أحد المستشفيات وقد سمتها أمها ليلى، وفوجئ أبوها أن الاسم سجل في دفتر الحالة المدنية بالتاء المربوطة (ليلة)، فقصد إدارة البلدية بغية تصحيحه فتعجب منه الموظف قائلا: ما الفرق أن تكتب بالتاء المربوطة أو بالألف المكسورة، وأمام إصرار الوالد تم إرشاده إلى العدالة، وبقي يتردد بين مكاتب المحكمة والبلدية شهورا ومازال اسم ابنته بالتاء المربوطة، وهو يحكي ذلك بمرارة، خصوصا و أنه يشتغل معلما.

وتوصل أحدا لمواطنين بمقر سكناه بإحدى بلديات الجزائر بمراسلة إدارية من البنك، تصف تعامله المالي معها ،وعلى الرغم من أن هذا المواطن يحمل شهادة جامعية تقدر تكوينه العلمي في اللّغتين العربية والفرنسية؛ فإنه لم يتمكن من فهم مضمون المراسلة، حتى لجأ إلى إدارة البنك، وهذا لعدم وضوح الرسالة لغويا.

وتلقى مواطن ردا من شركة سونلغاز بشأن شكوى وضعها لدى مكتبها تخص طلب تعويض لملكية عقارية بنت الشركة فيها مولدا كهربائيا، وقد جاء الرد مكتوبا باللّغة الفرنسية ،فاضطر هذا المواطن إلى حمل الرسالة لأكثر من واحد آملا فهم مضمونها ،علما أن هذا المواطن كتب طلبه باللّغة العربية.

ويواجه الجزائريون مواقف عديدة، يضطرون فيها إلى التوقيع على عقود تأمين سياراتهم وممتلكاتهم لدى الكثير من شركات التأمين، وقد كتبت باللّغة الأجنبية.

والمؤسف حقا أن الأمر لا يتوقف على الخطاب الإداري المكتوب بل يتعداه إلى الخطاب الشفهي، فكثيرا ما يخاطب المواطن الجزائري العادي في الكثير من الإدارات العمومية والخاصة والعيادات الطبية على السواء باللّغة الفرنسية، ويبقى هذا المواطن يحملق بنظره، لا يدري كيف يرد وما يقول في هذا الموقف الذي وجد نفسه فيه، وقد صار الاعتقاد عند البعض أن الخطاب بلغة الأجنبي دليل على التعلم ،والتحضر ،خصوصا إن كان المسئولون في القطاعات الحساسة يشجعون ذلك.

وهناك ظاهرة أخرى استفحل أمرها كثيرا منذ سنين، فغالبا ما يجد الجزائريون أنفسهم في اجتماعات الإدارة الرسمية يحدث بعضهم بعضا بلغة فرنسية، يتلكأ كثيرون في التعبير بها عن أفكارهم ومواقفهم ويشرحون بها التعليمات والأوامر، وقد تعسر على بعض الحاضرين منهم فهم ما يدور في هذه الاجتماعات.

ومن قضايا القهر اللّغوي التي يتعرض لها المواطنون الجزائريون؛هو تراجع تعريب المحيط الذي باشرته الدولة في الثمانينات من القرن الماضي، والذي كان محط اعتزاز وفخر للجزائريين، فحيثما التفت تملأ عيناك الإعلانات والملصقات وعناوين المصالح المكتوبة باللغة الفرنسية، وحتى وإن كتبت باللّغة العربية فالبعض منها غارق في الأخطاء ،من ذلك أن إعلانا في أحد المستشفيات يشير إلى سن الأطفال الذين يسمح لهم

بالدخول لعيادة المرضى، صيغ كما يأتي: "يمنع دخول الأطفال التي يقل عمرهم على 12 سنين"

وكتب أحد الحرفيين لافتة تحدد مهنته فكتب "خباط" عوض خياط.

وتثير هذه النماذج من الحالات، وما أكثرها في ربوع الوطن تساؤلات تؤرق ضمير المواطنة، منها:

- لماذا هذا الخرق القانوني للدستور الذي أجمعت عليه الأمة، والذي ينص صراحة على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للجزائر.
- لماذا هذا السكوت والتهاون وانعدام أدنى جوانب الردع الممثل في التنبيه على أقل مستوى.
- لماذا تعمد الإدارة الجزائرية إلى مخاطبة الجزائريين بلغة غير لغتهم الوطنية الرسمية.
- لماذا تمارس بعض مرافق الإدارة الجزائرية القهر اللّغوي على المواطنين الجزائريين في الجزائر العربية الإسلامية، والتي أكد الميثاق الوطني لسنة 1976 على أنها إسلامية الروح عربية اللسان جمهورية الطابع[10]، والسؤال الأغرب الذي يطرح نفسه: ماذا يجني هؤلاء الذين يدفعون الإدارة الجزائرية إلى هذه الممارسة؟ ومن يقف وراء هذا السلوك ولماذا؟ ولصالح من؟.

إن هذا التساؤل وجيه إذا علمنا أن المواطن الجزائري يحرم في العديد من الحالات من التواصل مع إدارته الجزائرية ،والوصول إلى المعلومات التي يرغب فيها، و التي تهم صحته ورزقه و ممتلكاته، بلغته الوطنية.

وإن هؤلاء الذين يأمرون بتحرير المراسلات والوثائق الإدارية والمستندات باللّغة الفرنسية يعلمون كل العلم إنهم إنما يراسلون مواطنين جزائريين معظمهم لا يعرف اللّغة الفرنسية، ولا يتقن التواصل بها ،وهوليس مطلوب منهم أن يعرفوها ولا أن يتقنوها ولا أن يتواصلوا بها، وهم يعلمون أيضا هؤلاء يعانون الأمر في فهم محتواها، وأنهم يتلمسون المساعدة لفهمها أو ترجمة مضامينها.

إن الوظيفة الأساسية للغة هي تحقيق التواصل التلقائي والطبيعي، ومن المعلوم جدا أن استعمال اللّغة الأجنبية في المجتمع الجزائري العادي يعيق هذا التواصل بل لا يحققه، و قد يحرف دلالاته، لذلك جاءت النصوص القانونية التي فكر فيها مسئولو الأمة لهذا الهدف.

ومن العجب العجاب أن نجد البعض يتنكر لهذه النصوص من جهة، ولا يطبقها ويمارس القهر اللّغوي على الجزائريين من جانب آخر، وينسلخ من ثقافته العربية الإسلامية التي توارثتها الأجيال وضحى من أجلها الجزائريون.

5 - تأهيل الإدارة الجزائرية لاستعمال اللغة العربية:

قد يبدو هذا العنوان محيرا لكثير من القراء؛ إذ كيف نهيئ الإدارة الجزائرية لتقبل اللّغة العربية، وقد يطرحه البعض على النقيض من ذلك فيقول: تأهيل اللّغة العربية للاستعمال في الإدارة، والتعليق الذي

نقدِّمه هو أن اللّغة العربية مؤهلة وقادرة جدا على القيام بوظيفة الإدارة في مختلف المؤسسات العمومية، والفضل كل الفضل يرجع إلى ما بذلته العديد من المؤسسات الوطنية والإقليمية والعربية في مجال التعريب، والعناية بالمصطلح الإداري، وترجمة العديد من القضايا التي تخص التسيير الإداري.

وإن الدارس لجهود لجان التعريب التي نصبت على مستوى الحكومات المتعاقبة في الجزائر، والأبحاث العلمية المنجزة في الجامعات ومراكز البحث العلمي، وكذا أعمال المجلس الأعلى للغة العربية منذ تأسيسه إلى اليوم، وأعمال لجان الجامعة العربية ومكاتبها، بالإضافة إلى ما قدمته المجامع اللّغوية العربية منذ تأسيسها إلى اليوم، فإن هذه الإنجازات كفيلة بصورة عالية لجعل اللّغة العربية قادرة وبكل جدارة على القيام به و هو تطويع وتأهيل الإدارة، وليس للغة للاستخدام في الإدارة، ولا يخفى ما للإدارة من عادات وغرائز المحافظة على الموروث الذي يقف في وجه كل إصلاح ، الأمر الأول هو توافر إرادة سياسية حازمة وواضحة لدى أصحاب القرار، والمبادرة لدى الفاعلين في هرم المسؤولية، والانتقال من تهميش اللّغة الوطنية الرسمية إلى لغة احتضان حاملة لرسالة التواصل، وتجسيد العلاقات ،وتقريب الإدارة من الجمهور، ذلك أن اللّغة العربية في الجزائر= الفرد+المجتمع الانسجام الجمعي، بينما اللّغة الفرنسية في الجزائر= الفرد+النخبة الطبقية[11]، وإن الأمر في الحقيقة لا يحتاج إلى إضافة نصوص قانونية أو تنظيمية، فللجزائر كما أسلفنا رصيد تراكمي كبير، وترسانة من النصوص تكمن فيما قدمته سياسة التعريب التي انتهجت في الجزائر طيلة عقود عديدة من الزمن، ساهمت فيها الجهات

النافذة على مستوى مصالح الدولة السياسية والإدارية، ويوم أن توفرت الإرادة، فقد عربت العديد من الإدارات، ونجحت نجاحا باهرا ،من ذلك قطاع العدالة في الجزائر، الذي يمكن أن يكون مضرب المثل من حيث التعميم والمستوى النوعي.

ومن الاقتراحات التي يمكن تقديمها أيضا من أجل تفعيل الإدارة لتقبل التعامل اليومي بالعربية نرى من الواجب:

1/ إلزام معدي الملفات الإدارية ذات الطبيعة التقنية الخاصة بتخصيص حيزللغة العربية ،حتى عندما تكون الملفات موضوعة بلغات أجنبية.

2/ إنشاء لجان المتابعة والتقويم على المستوى المحلي، للنظر في الصعوبات التي تواجه الموظفين في تعميم استعمال اللّغة العربية؛، فيما يخص المصطلح والصيغ ،على أن ترفع هذه اللجان تقاريرها إلى المستوى الأعلى، ليتم بذلك تدارك هذا النقص، عن طريق الدراسة والمراجعة التي يتكفل بها المجلس الأعلى للغة العربية، أو الهيئات الأخرى المعنية.

3/ إشراك مختلف أجهزة الإعلام في العملية، فالإعلام يعد السلاح الرابع، وهو القوة المنتقدة للحياة اليومية، وعليه يقع عاتق التجنيد العام، وتعبئة القوى الحية للإقبال على تطبيق اللّغة العربية في الإدارة، وبعث الغيرة في النفوس للاعتزاز بلغة الأمة والأجداد، وتبيان فضل تطبيق اللّغة الوطنية على المجالين الاجتماعي والاقتصادي، فأي تنمية بلغة الغير مصيرها الفشل، وقد تأكد ذلك في جميع بلدان العالم التي فضلت لغة الغيرعلى لغتها.

4/ ينبغي أن تتكفل الوزارات والجماعات المحلية بقضية تكوين الموظفين، كل في مستواه تكوينا عاليا ،من أجل الاستعمال الأسلم للغة العربية؛ إملاء، ونحوًا، وصرفًا. وتكوينًا يتيح لكل موظف فرصة التعامل مع الوسائل الحديثة والاستعمال الآلي للغة العربية في مجال التسيير الإداري.

الخلاصة:

إن قضية تطبيق اللغة العربية في الإدارة الجزائرية هي قضية قومية ووطنية ،وهو مطلب لكل الجزائريين، أكدته جميع الدساتير، واتفقت عليه جميع المواثيق، وهو أمر طبيعي يفرض توطين العربية في بلادها، وما ذُلّ قوم إلا بقدر التفريط في مكتسباتهم الثقافية والدينية، والأمم الحية هي التي تعطي أهمية قصوى وعالية للغتها، ويجب أن لا يكون هذا الأمر مثار جدل ونقاش، فهي اللغة الأم، وشعوب العالم لا تطرح في أوطانها بديلًا عن اللغة الأم، لأنها مظهر من مظاهر الانسجام في المجتمع.

وتحقيقًا لهذا المطلب؛ يجب توافر إرادة سياسية صارمة لا تهادن كل متهاون، كما يجب تكثيف الجهود وتوحيد الرؤى حول منهجية واضحة المعالم، تأخذ في الحسبان الواقع الحقيقي لإدارتنا العمومية.

الهوامش

1 - ابن جني الخصائص، دار الكتاب العربي 31 /1 / 1952.

2 -أحمد محمد معتوق، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، الكويت، 1995 ص34.

3 - الدستور الوطني 1963.

4 -الدستور الوطني 1976.

5 -الدستور الوطني 1989.

6 -الدستور الوطني 1996.

7 -الدستور الوطني 2002.

8 -الدستور الوطني 2008.

9 -الجريدة الرسمية العدد سنة 1991 .

10 -الميثاق الوطني 1986 ص 53.

11 -صالح بلعيد، قراءة معاصرة تنشد التغيير، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر 2014 ص 102.

الأمثال العربية في معجم لسان العرب
«إحصاء و دراسة»

د. أحمد بن عجمية (ج.حسيبة بن بوعلي –الشلف).

تمثل الأمثال العربية التي حفل بها «لسان العرب» لإبن منظور، معجما قائما بذاته، و هذا لغزارة المادة، و تجاوزها لصفة الاستشهاد، و ما صاحبها من شروح و تعاليق، أردفها المؤلف بمعظم الأمثال التي أوردها في معجمه «اللسان» إذ بلغ مجموع هذه الأمثال: ألفا و خمسمائة وعشرين مثلا،[1] و ذلك في أبوابه الثمانية و العشرين، وكان باب (العين) أكثرها اشتمالا على الأمثال بمجموع مائة وتسعين، و يليه باب (الحاء) بمائة وثمان وثمانين، ويأتي باب (النون) في المرتبة الثالثة بمجموع مائة وستة عشر مثلا، بينما نجد باب (الياء) أقل الأبواب اشتمالا على الأمثال بأربعة أمثال فقط.

مصادر الأمثال في لسان العرب: اعتمد ابن منظور في إيراد الأمثال وشرحها على ما نقله من الأصول الخمسة التي صرح بها في مقدمة اللسان بالإضافة إلى عدد من كتب الأمثال، و اللغة و الأدب التي دوّنها العرب على مرّ العصور موسعا بذلك دائرة استشهاده بالأمثال ضمن ما حصل عليه من روايات و أخبار، بما تتطلبه الرؤية العامة في بناء معجم «لسان

العرب» وحرصا على الأمانة العلمية، يصرح ابن منظور بمصادر معظم أمثاله و شروحها، وذلك بذكر الكاتب أو العالم الذي أخذ عنه في منهجية غير مطّردة.

وفيما يلي المصادر التي اعتمد عليها ابن منظور:

1 -تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (282هـ/379هـ):قام المعجم على نظام صوتي للحروف بدأه الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه «العين» وقد جاء معجم «التهذيب» في ثمان وعشرين بابا وأكثر شواهده من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف[2]وكثيرة مواضع استشهاد بن منظور بأمثال و شروح نقلها عن هذا المعجم من ضمنها «سمنكم هريق في أديمكم»[3] ،«بعُشِّك فادُرجي»[4]، «سواسية كأسنان الحمار»[5]،«شر ما أشاء إلى مخة عرقوب»6،«ضيعت البكار على طحال»[7]

2 - المخصص و المحكم لابن سيده الأندلسي (ت 458هـ): فأما المخصص فقد أفرد ابن سيده فيه أبوابا كثيرة للحديث عن أبنية الأفعال و المصادر و الأسماء، و توسع في ذلك حتى شغل ما يقرب من أربعمائة وخمسين صفحة متتالية، بالإضافة إلى ما جاء متفرقا في أماكن كثيرة8وأما « المحكم» فقد جاء على ترتيب «العين» ، وأضاف فيه بعض الاشتقاقات و اتسمت مواده بالإيجاز و الاختصار و تفادي التكرار و كان غنيا بشواهد الأمثال ومهمتها إلى حد ما بما شذ في اللغة[9]. ومن بين ما نقله ابن منظور من أمثال وردت في «المحكم» : «أغنى من التفة عن الرفة»[10]، «بين الحذيا و بين الخلسة»[11]، «كل مجد بالخلاء مسر»[12]،«ذهبت هيف لأديانها»[13]،«لا تعجل بالإنباض قبل التوتير».[14]

3 - الصحاح لأبي نصر الجوهري (332هـ/398هـ): و جمع فيه أربعين مادة من لغة العرب، سمع كثيرا منها مشافهة من الأعراب في بطن جزيرتهم، و كلماته مرتبة على حروف المعجم، لكن على حسب الحرف الأخيرمن الكلمة[15]، أما ما نقله ابن منظور من أمثال وشروح عنه فكثيرة، و منه: «إن الموصين بنو سهوان»[16].

«كَأَنّي فَوْقَ أَقبِّ سَهْوَقٍ جَأْبٍ إذا عَشَرَ صابَ الأَرْنانَ»[17]«متى كان حكم الله في كرب النخل»[18]، «لوكان عنده كنز النطق ما عدا»[19]، كمصبغ تمر إلى هجر»[20].

4 - «حاشية الصحاح» لأبي محمد بن بري (499هـ/582هـ) :
وصف ابن منظور عمل بن بري بقوله: «فتتبع ما فيه و أملى عليه أماليه مخرجا لسقطاته مؤرخا لغلطاته...» [21] واضعا إياه في مصف المحققين لمعجم الجوهري، و هذه نماذج من أمثال نقلها و شرحها من « الحاشية»: « فلان يرعى وسطا و يربض حجرة»[22]، «بالصرائم اعفر»[23]، «لا تعلم العوان الخمرة»[24]، «الفرار بقرب أكيس»[25]، «أراك محسنة فهيلي».[26]

5 - «النهاية» لأبي السعادات بن الأثير الجزري (544هـ/606هـ):
هو كتاب في علم الحديث و الآثار، جاء على حروف المعجم بالتزام الحرف الأول و الثاني من كل كلمة و اتباعها بالثالث، و مادته منها ما نسبه للنبي صلى الله عليه و سلم ومنها ما نسبه للرواة[27]، ومن بين ما أحاله ابن منظور إليه من أمثال:«قلبت لابن عمك ظهر المجن»[28]،«شر الرعاة الحطمة»[29]، «شوى أخوك حتى إذا أنضج أرمد»[30]، «لأضربنكم ضربة غرائب الإبل»[31].

6 - جمهرة اللغة لأبي بكر دريد (223 هـ/321هـ): عول على الكتاب « العين» للخليل، و رتب مواده ترتيبا أبجديا أسهل من الأول، مبتدئا بالثنائي من الألفاظ ثم ينتقل إلى الثلاثي ليصل إلى الخماسي و السداسي، وجمع النوادر في باب مفرد[32]، و من ضمن ما أخذه ابن منظور: «ما الخوافي كالقلبة و لا الخناز كالثعبة»[33].

7 - كتاب الأمثال لأبي عمرو بن العلاء (70هـ/154هـ):34 و هو كتاب وضع في العصر العباسي الأول على يد شيخ علماء العربية، أبي عمرو بن العلاء و يذكره الميداني في مجمعه[35]، تناول الأمثال من جميع نواحيها تأصيلا و تفسيرا[36]، و أرجع إليه ابن منظور عددا من الأمثال والتعاليق: «حسنتني الرقي عليها المأتاة»[37]، «أشأم من عطر منشم»[38]، «اهتزموا ذبيحتكم مادام بها طرق»[39].

8 - كتاب الأمثال للشرقي بن القطامي (ت 158هـ): 40و هو كذلك من كتب العصر العباسي الأول، جمع فيه أمثال الجاهلية و ما رافقها من أخبار و قصص و أنساب، ترجع إلى العصر الجاهلي[41] و هذا كتاب ذكره الميداني في مجمعه[42]، و قد أحال إليه ابن منظور تعليقات عدة، منها ما جاء في المثل الجاهلي: « على أهلها تجني براقش»[43].

9 - كتاب الأمثال للمفضل بن محمد الضبي (ت 168هـ):[44] و هو أول ما وصلنا إليه من كتب العرب في الأمثال، و الأصل الذي بنى عليه مصنفو الأمثال كتبهم و معاجمهم ضمّ مائة و ستين مثلا تقريبا، ملحقة بقصصها و أخبار أيام العرب[45]، ومن ضمن ما جاء عنه في « اللسان:«ما باع على بيعك»[46]، و«لا مخبأ لعطر بعد عروس»[47]، «لا حرّ بوادي عوف»[48]، و«أنزلني ولو بأحد المغروين»[49]، و«تمرد ما رد وعز الأبلق»[50].

10 -كتاب الأمثال ليونس بن حبيب الضبي (ت 183هـ): [51]وسلك به صاحبه اتجاها لغويا تمثل في تفسير الغريب و إيراد الشواهد الشعرية بالإضافة إلى ذكر موارد الأمثال و أصولها و مضاربها[52]، و من بين ما أخذه ابن منظور عنه: «الحسوم يورث الحشوم»[53].

11 - كتاب الأمثال لمؤرخ السدوسي (ت 195هـ):[54] ورد في حجم صغير، وكان صاحبه لغويا، اهتم فيه أولا بالتفسيرات اللغوية للأمثال، وكان كثيرا ما يخرج عن الموضوع، كما اعتنى بالشواهد الشعرية[55]، و من ضمن ما جاء في «اللسان» عنه: «است البائن أعلم»[56]، و«لا ماءك أبقيت و لا منك أنقيت»[57]،و «نزو الفرار استجهل الفرارا»[58].

12 - كتاب الأمثال للنضر بن شميل(ت 204هـ):[59] اتسم أكثر شيء بالجانب اللغوي و النحوي[60]، و إن لم يرق إلى باقي المصنفات المؤلفة في الأمثال[61]، فقد اعتمده ابن منظور في إيراده لشواهد الأمثال ومنها :«غمرا و درهما لك، فإن لم تغمر فبعد لك»[62]، «لا تقوم لفلان رابضة»[63]، «إياك وكل قرن أهلب العضرط»[64].

13 - كتاب الأمثال لأبي عبيدة معمر بن المثنى (207/ 313 هـ):[65]وكان من أعمدة كتب الأمثال العربية [66] ، أودع فيه صاحبه الأمثال وأصولها و تفاسير ما كان غريبا منها، حافلا بالأشعار، و علق على بعض الأمثال بالتوليد، وكان كتابه مبوبا على المعاني[67]، وكان مرجعا مهما لابن منظور، حيث أخذ منه عديد الأمثال و الشروح، نذكر منها: «رماه الله بثلاثة الأثافي»[68]، «وضرب أخماس لأسداس»[69]، و«قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضا عالمها»[70].

14 - كتاب الأمثال لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت 215هـ):[71]

و هو على شاكله كتاب أبي عبيدة[72]، و قد ذكره الميداني[73]، و لابن منظور مواضع في معجمه، استشهد فيها بأمثال منقولة عنه: «سدك بأمري جعله»[74]، «كل دلْي دونه دني»[75]، و«أهون مظلوم سقاء مروب»[76]، «أنا غريرك من هذا الأمر»[77].

15 - كتاب الأمثال لأبي سعيد بن عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 216هـ):[78]

وللأصمعي أقوال وآراء في تفسير الأمثال، نجد منها في كتب اللغة والأدب [79] وإليه ينسب كتاب في الأمثال، قال عنه حمزة الأصفهاني، إنه «لطيف الحجم، مقدام عشر ورقات»[80]، بينما رأى عبد المجيد قطامش أنه كتاب كبير إلى حد ما أوسع من كتابي أبي عبيدة و أبي زيد، وبنفس منهج الآخرين في إيراد الأمثال[81]، و نقل عنه ابن منظور كثيرا من الأمثال والشروح، ناسبا إياها إلى كتابه في الأمثال، كما يذكر كتابا آخر للأصمعي سماه «كتاب الفرق»[82]، و من ضمن ما نقله عنه، نذكر: «إنما يعاتب الأديم ذو البشرة»[83]، و«أكل ماله بأبدح و دبيدح»[84]، و «شر ما أجاءك إلى مخة العرقوب»[85]،و«هو على حبل ذراعك»[86]، «عسى الغوير أبؤسا»[87].

16 - كتاب الأمثال لأبي الحسن علي بن حازم اللحياني (ت 215هـ)88:

وهو كتاب يقرب من كتاب الأصمعي[89] ، ومما أخذه ابن منظور عنه «لا أفعله ما أبس عبد بناقته»[90]، و«أنت تئق و أنا مئق فكيف نتفق»91، و«مثقل استعان بذقنه و ذقنه»[92]، «تحقره وينتو»[93]، و«لا آتيك هبيرة بني سعد»[94].

17 - كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت 223هـ)[95]: وجمع أمثالا عالجها عدد من اللغويين وأهل الأدب والعلم، وقد أكثر من الشروح اللغوية للأمثال، مع بيان مضربها وموردها، كما اهتم أبو عبيد في هذا الكتاب بالحديث النبوي، وصنف الأمثال ما بين قديم، ومشهور، ومبتذل[96]، أما ما نقله عنه ابن منظور فكثير نذكر منه: «هذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه»[97]، و«أفلت وانحص الذنب»[98]، و«ماء ولا كصدآء»[99]، و «إنه لأخيب من شيخ مهو صفقة»[100].

18 - كتاب الأمثال لأبي عبد الله بن زياد بن الأعرابي (ت 230 هـ)[101]: و سماه «تفسير الأمثال»، جاء في حجم كبير، شمل الكثير من الأمثال وما رافقها من بيان أصول ومضارب وتفسير للغريب وأشعار وآثار أخرى، ما جعله من أمهات كتب الأمثال في العصر العباسي الأول[102]، ومن ضمن ما نقله ابن منظور عنه:

«فَلاَ يَحْسَبِ أَنَّ دِمَاءَنَا حَقِينٌ فِي غَيْرِ مَرْبُوبَةٍ وَقَرِ»[103].

«فلان حور في محارة»[104]، «أجر أمن فارس خصاف»[105]، «عر فقره بفيه لعله يلهيه»[106]، «أصابه منه ذباب لاذغ»[107].

19 - كتاب الأمثال لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (ت 243هـ)[108]: وهو مما ألف في العصر العباسي الثاني، نحا به ابن السكيت أكثر للدراسة اللغوية والنحوية[109]، ومن بين ما أخذه ابن منظور عنه: «الرأي مخلوجة وليس بسكلي»[110]، «وافق شن طبقة»[111]، و «سبق درته غراره»[112].

20 - كتاب الأمثال لأبي عمرو شمر بن حمدويه الهروي (ت 255هـ) [113]: و أوعز إليه ابن منظور عددا من الأمثال و الشروح، نذكر منها على سبيل المثال: «آخر البز على القلوص»[114]،و «أكذب الآخذ الصبحان»[115]،و«إلى أمه يلهف اللهفان»[116].

21 - كتاب الأمثال لأبي الهيثم الرازي (ت 276 هـ)[117]: ونجد ابن منظور يستشهد بكثير مما نقل عنه :«جانيك من يجني عليك[118] ،« منك عيصك و إن كان أشبأ»[119] ، و«أفصى علينا الشتاء»[120] .

22 - كتاب الأمثال لأبي العباس أحمد بن يحي ثعلب (ت 291 هـ)[121]: و كثيرة هي المواضع التى نجدها في – اللسان – تنقل عن أبي العباس أمثالا وشروحا، منها «حزق عير»[122]، و«عليك بالرائب في الأمور، و إياك والرائب منها»[123] ،و«لأفشن وطبك»[124] .

23 –كتاب الأمثال لأبي طالب المفضل أوسلمة (ت 291 هـ)[125].

و سماه الفاخر فيما يلحن فيه العامة ، موضوعه معاني ما يجري على ألسنة العامة في أمثالهم و محاوراتهم ، من كلام العرب ، و هم لا يدرون معناه [126]، و من ضمن ما نقله ابن منظور عنه : «القيد و الرتعة»[127]،و«نام نومة عبود»[128] ،و «أنا النذير العريان»[129] .

24 –كتاب الزاهر لأبي بكر محمد بن قاسم المعروف بابن الأنباري (ت 304 هـ)[130]: وهو (الزاهر في معاني كلمات الناس): احتوى ثمانمائة و ستة و تسعين مثلا، كما ضم أقوالا و حكما كثيرة، عكف فيه على شرح الأمثال و إيراد شواهد الشعر، وروايات عن الأخباريين[131]، و من بين ما جاء عنه في اللسان :«الصيف ضيعت اللبن»[132].

25 - كتاب الأمثال لأبي المفضل محمد بن أبي جعفر المنذور (ت329هـ)[133]: ومن بين ما جاء عنه في اللسان: «إنما طعام فلان القفعاء والتأويل»[134].

26 - كتاب التمثيل و المحاضرة لأبي منصور الثعالبي (350هـ-429هـ)[135]: و جعله في أربعة فصول كبرى جمع ماهو إسلامي جاهلي، عربي عجمي، وملوكي سوقي، و خاصي عاصي، و أتى بها يتمثل من القرآن الكريم، و التوراة و الإنجيل و الزبور و جوامع كلم النبي صلى الله عليه و سلم، و رسل آخرين، و نهل منه كثير من مصنفي الأمثال لاحقا136، كنقول ابن منظور، ومنها «درى و ختل الصيد»[137].

27 - كتاب المستقصى في أمثال العرب لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (467هـ538-هـ)[138]: و قام على ترتيب حروف المعجم، فصل كل باب فقدم في باب الهمزة إياه مع الألف عليه مع الباء و استمر على هذا النمط في أوساط الكلم وأواخرها و متى تساوت صدور الأمثال139، ومن ضمن ما أخذه ابن منظور عنه، «ضرب يعسوب الدين بذنبه»، و قد تخير ابن منظور في رواياته للأمثال في معجمه ، رجالا تتبع أسماءهم في شرحه، نوردهم فيما يلي مرفقين بأمثال ذكروا ضمن شروحها:

1 - أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري[140]: «أنت في ضحائك بين القفعاء و التأويل».[141]،«مثلي مثل الأرقم، إن يقتل ينقم و إن يترك يلقم»[142].

2 - أبو حنيفة الدينوري[143]: « إنما يعاتب الأديم ذو البشرة»[144] ، «في كل شجر نار و استمجد المرخ و العفار[145]».

3 - علي بن الحسن الأحمر (ت 194 هـ):[146] «ضل الدريص نفقه»[147]، «الملسى لاعهدة له»[148].

4 - ابو محمد عبد الله بن سعيد الأموي : [149] « المالك ملك أمره»[150]، «إنه لأعيا من باقل»[151].

5 - أبو زكريا يحي بن زياد بن عبد الله الفراء (ت 207 هـ)[152]. «نار الحباحب»[153]، «هنا وهنا عن جمال وعوعه»[154].

6 - هشام بن محمد بن السائب بن بشير الكلبي (ت 206 هـ)[155]**:** « طارت بهم العنقاء المغرب»[156]، «لا يكون ذلك حتى يؤوب القارضان»[157].

7 - أبو عمرو الشيباني (ت 206 هـ)[158] **:** «أشأم من عطر منشم»[159].

8 - سيبويه(ت 180 هـ)[160]. « إياي و أن يحذف أحدكم الأرنب»[161]، «كاتن هذا أيام الهدملة»[162].

9 - زيد بن كثوة : « قرب الحمار من الردهة ولا تقل له سأ»[163]، «إن من لا يعرف الوحي أحمق»[164].

10 - يزيد بن مرة : « أول الصيد فرع»[165] .

11 - أبو العباس المبرد (210هـ - 285 هـ)[166] **:** «تحسبها حمقاء وهي باخس»167 ، «تغافل كأنك واسطي»168 .

12 - الزبير بن بكار (ت 256 هـ)[169]**:** «أساء سمعا فأساء جابة»[170]،«هو أمطل من عقرب»[171] .

13 - أبو حاتم السجستاني (ت 250 هـ)[172] : «أكل ماله بأبدح ودبيدح»[173] .

وبالإضافة إلى هؤلاء ، فقد أتى ذكر أبي سليمان الخطابي ، والكسائي، والسيرافي و ابن السكيت ، ويزيد بن عبد الله الكلابي ، ومحمد بن خازم الباهلي .

وبإحصائنا لهذه المصادر ، نجد ابن منظور قد اعتمد سبعة معاجم لغوية ، وواحدا وعشرين كتابا في الأمثال ، وأكثر من تسعة عشر راويا من خلال كتبهم اللغوية والأدبية.

و من خلال هذه الدراسة التأصيلية لمصادر ابن منظور ، نجده قد سار في نهج مصنفي كتب الأمثال العربية وأخذ ممن سبقه، و إحاطته بمعظم كتب الأمثال العربية. و ذكر جماعة من الرواة نجدها متواترة في كثير من مصنفات الأمثال ، و الجدير بالذكر ، أمام هذه النمطية في التأليف اعتماد ابن منظور كتاب «التمثيل و المحاضرة» لأبي منصور الثعالبي ، أهم كتب الأمثال المولدة رغم السمة الاحتجاجية لمعجم اللسان ، مما يحيلنا إلى وجود أمثال مولدة في ثناياها .

II.منهجية إيراد الأمثال و شرحها:

اتبع ابن منظور في إيراد الأمثال و شرحها منهجية غير مطردة، و بتتبع مجمل الأمثال التي ذكرها في معجمه، تتجلى لنا هذه المنهجية المتباينة في مايلي:

أ – سياق إيراد الأمثال : ساق ابن منظور الأمثال ، كغيرها من شواهد الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، و الشعر و الخطب ، في معرض بيانه لمداخل معجم – لسان العرب - ، و في أول مثل يورده ، يأتي به في سياق حديثه عن المدخل – أبد - و نصه : «و قولهم لا أفعله أبد الآبدين ، كما تقول دهر الداهرين، و عوض العائضين ...»[174]، - حيث اتبع المثل : « لا أفعله أبد الآبدين» بمثلين آخرين لشرحه ، ثم يأتي بمثل آخر لشرحه ، ثم يأتي بمثل آخر، في قوله : « و قالوا في المثل : طال الأبد على لبد ، يضرب ذلك كل ما قدم و الأبد : الدائم و التأبيد : التخليد»[175]، قاصدا من هذا شرح المدخل – أبد- ، في جزئيه منه...فالأمثال في تصور ابن منظور تتعاضد مع باقي الشواهد ، و في بناء مواد – لسان العرب - ، ضمن مختلف المستويات اللغوية و الفنية .

و مجموع الأمثال الواردة في معجم ابن منظور وعددها، غير قائم على أي ترتيب ، مهما كان نوعه : سواء أكان ألفبائيا ، أم موضوعاتيا أو ما شابه ذلك ، فهي تابعة بالدرجة الأولى لورود المداخل و بيان معانيها.

و يصدر ابن منظور أمثاله بإشارات نصية ، تدل على ما سيأتي ذكره من تلك الإشارات: -وفي المثل -، -و العرب تقول – و في الأمثال ، و في الأقوال السائرة ، ...و أحيانا يؤجل ذكر هذه الإشارات إلى أخر ذكر المثل و قصته، فيقول –فصار مثلا - ، أو فضربوه مثلا ...- وما إلى ذلك من إشارات نصية *.176

ب -منهجية ذكر مصادر الأمثال : اعتمد ابن منظور عددا معتبرا من المصادر ، أخذ عنها الأمثال ، و إن كانت كذلك، فلا يقتصر نقله عنها على الأمثال فقط ، بل يشمل مختلف المواد الأخرى ،ولا تختلف منهجية

و ذكر مصادر هذه المواد بصفة عامة، عن منهجية ذكر مصادر الأمثال بصفة خاصة ، فتارة يصدر نص المثل بعنوان الكتاب الذي أخذ عنه ، وتارة أخرى بذكر اسم المؤلف ، أو الرّاوية الذي نقل عنه ، و هذه الأخيرة، قد تكون باسمه المعروف في كتب التراجم و السير ، و قد تكون بكنيته .

أما المعاجم و الكتب التي صرح بها في ثنايا ذكره للأمثال فهي :

التهذيب للأزهري ، والمحكم و المخصص لابن سيده ، و الصحاح للجوهري ،و الأمثال للأصمعي ، والفرق للأصمعي ، والأمثال لأبي زيد الأنصاري .

و التزام ابن منظور بهذه الأمانة العلمية ، جعله ، أحيانا يحدد مواضع نقله من تلك المصادر ، فيقول مثلا : «...و هذا المثل ذكره أبو عبيد في باب أخلاق الناس في اجتماعهم و افتراقهم ...»[177]،ويقول في موضع آخر : «..أبو زيد في باب الرجل الذليل المستضعف ...»[178]، و في موضع ثالث :» ... قال ابن دريد في كتاب الاشتقاق»[179] .

و يدلل في بعض المرات على مواضع الأمثال ، المصادر الأخرى فيقول مثلا لدى شرحه للمثل القائل : « أطرِّي فإنك ناعله»[180]:...و أحال الأزهري تفسير هذا المثل على موضعه في حرف الطاء -.

ج – **منهجية شرح الأمثال :** شرح ابن منظور معظم الأمثال التي ذكرها في معجمه ، و بين موردها ومضربها ، والقصة التي نشأت منها ، وعرف بأصحاب هذه الأمثال وطباعهم ، و ما يذكره الناس عنهم و ما جاءت به الروايات عن حياتهم ، و ما يخص بنية تلك الأمثال ومعانيها، وقد تراوحت هذه الشروح ما بين الإطناب و الإيجاز ، فبينما فصل في شرح الأمثال القائلة : «على أهلها تجنى براقش»[181] ، «ندمت ندامة

الكسعي»[182]، المؤمن يأكل في معي واحد والكافرفي سبعة أمعاء»[183]،و«حد أحد أوراء بندقة[184]» ، و«رجع بخفي حنين[185]» اكتفى بشرح بسيط موجز في أمثال أخرى ، منه «مأتي أنت أيها السواء»[186] و«مر الصعاليك بأرسان الخيل»[187]، و«بجدك لابكدك»[188]، و«هو أمسخ من لحك الحوار»[189]، وكما أنه أحجم عن الشرح في أمثال أخرى ، ربما لوضوح معناها ، من بينها : «لا يصلح لا فيقا ، من لم يبلغ ريقا»[190] ، « الهيبة خيبة[191] ، « لا تمش برجل من أبى»[192] .

و قد يذكره في موضع أول دون شرح ، ثم يذكره في ثان ، و يلحق به بعض الشروح و العكس صحيح ، من أمثلة ذلك ، «المعاذرمكاذب »[193]، ورد معه شرح موجز في مدخل «عذر» ، وورد من غير شرح في مدخل «كذب»، و«مع الخواطئ سهم صائب»[194]، ورد بشرحه في مدخل « خطأ، ومن غيرشرح في مدخل « كذب»، « و الصدق ينبئ عنك لا الوعيد »[195]، ورد من غيرشرح في مدخل « صدق»،وبشرحه في مدخل « نبا» ، « ومرعى لا كالسعدان»[196]، ورد غير شرح في مدخل « رعي»، وبشرحه في مدخل «سعد»، و « أسمع جعجعة و لا أرى طحنا»[197] ، ورد بشرحه في مدخل «جعع» و من غيرشرح في مدخل«طحن» .

ويتجلى من خلال هذه النماذج أن ابن منظور كان يتحاشى تكرار بعض الشروح ، ولكنه كان يلح ويؤكد على شروح بعض الأمثال ويكررها، فهو يذكر شطر البيت الشعري المتمثل من قول « خضرمي بن عامر الأسدي» متبعا بشطره الثاني في مدخل «بلل».

وَلَقَدْ طَوَيْتُكُم عَلَى بُلَلاتِكُم وَعَلِمْتُ مَا فِيكُمْ مِنَ الأَذْرَابِ[198]

ويكتفي بذكر الشطر المتمثل به فقط في مدخل « ذرب» و مرفقا بنفس الشرح في كلا المدخلين ، بدون أي إضافات و على أن هذا التكرار المنسوخ ، قليل الى حد ما في أمثال « اللسان» ، فالغالب ، هو إتيانه بشروح متعددة للمثل الواحد ، قد يجمعها في سياق واحد بما فيها من آراء وروايات ومسائل لغوية ، و قد يذكر بعضها في موضع ، و بعضها الآخر في موضع آخر مع نفس ذلك المثل المكرر .

و حين يورد المثل القائل : « عسى الغوير أبؤسا »[199] ، في مدخل « بأس « ينحو بالشرح الى الجانب الصرفي و النحوي ، مفصلا ذلك بإيراد آراء، لابن بري ، و ابن الكلبي ، وسيبويه في بيان أن « الأبؤس» جمع « بأس»، ودلالة « عسى» ، على الطمع و الإشفاق ، و بعد هذا ، يورد ، شرحين لمضرب المثل و مورده ، الأول لابن الأعرابي ، و الثاني للأصمعي عائدا في نهاية الشرح الى الحالة الإعرابية لـ « أبؤسا « قائلا بالنصب على أنه خبر عسى .

ويكتفي لدى عرضه لهذا المثل في مدخل «عسى ، بشرح موجز للغاية، نحوي الدلالة ، نصه : « أي كان الغوير أبؤسا» ، بينما يورد في ثالث موضع يذكر فيه هذا المثل في مدخل « غور» ثلاثة أقوال في بيان أصل هذا المثل وقصته ، و هي الأصمعي ، و لأبي عبيد ، ولابن الأثير .

و في نموذج آخر ، يورد ابن منظور المثل القائل : « أحشفا وسوء كيلة» [200]في موضعين مختلفين ، الأول في مدخل « حشف» ، و يقصر شرحه على كلمة « الحشف» ، و هو التمر الذي لم ينم ، فإذا يبس و فسد صار بلا طعم و لا لحاء و لا حلاوة « بينما يقوم ببيان معنى المثل في الموضع الثاني، في مدخل « كيل»، مردفا إياه بقول للحياني ضم روايتين أثنيتين لكلمة «كيلة» ، كجانب اشتقاقي لها : « و كيل و مكيلة» .

و في نموذج ثالث ، يورد ابن منظور المثل القائل : « الأبد على لبد»[201] متبوعا ببيان مضربه في مدخل « أبد» ، و يذكر قصته في مدخل «لبد».

و الظاهر في شروح ابن منظور أنه ينوعها وينوع مصاردها بغية توسيع أفق القارئ ، و إعطائه اكثر من شرح للمثل الواحد ، في موضعه أو مواضع تكراره فهو لدى شرحه للمثل القائل : « إنما يعاتب الأديم ذو البشرة»[202] يغير مصدر شرحه و إن لم يختلف الشرح ، في موضعين مختلفين يأتي بشرح نقله عن الأصمعي في مدخل « أدم» ، و يشرح مقارب له لبني حنيفة في مدخل « بشر» ، و في شرحه للمثل القائل : « لو كان عنده كنز النطق ما عدا»[203] ، و يأتي برأيين متكاملين للجوهري و ابن بري في نفس السياق ، غير أن هذا التوافق المبدئي في الآراء التي يوردها في شرح أمثاله يبقى ضئيلا ، أمام عدد لا بأس به من الآراء و الروايات المختلفة ، حول بنية المثل وصيغته وقصته و معناه ، و هذا لأسباب متعددة ، منها : كثرة التداول و اختلاف اللهجات و غيرها[204] ، و ابن منظور وقف على هذه الروايات المختلفة ، وذكرها ، ورجح في بضع مواضع رواية دون أخرى ، وفق حجج يذكرها برهانا على رأيه ، و الغالب إمساكه عن إطلاق الأحكام

و من هذه الاختلافات ما جاء في شرح المثل القائل : « على أهلها دلت براقش»[205] ، فيأتي برواية أخرى لنص المثل عن « ابن هانئ» ، في قوله : قال ابن هانئ : زعم يونس عن أبي عمرو أنه قال هذا المثل :«على أهلها تجني براقش» ، و بعد هذا يبدأ في شرح المثل ، بإيراد خمسة أقوال في هوية « براقش» و هي بإيجاز :

1 - قول أبي عبيد بأنها كلبة .

2 - و قول «حمزة بن بيض» بأنها كلبة ايضا .

3 - و قول « الشرقي بن القطامي» بأنها امرأة لقمان بن عاد .

4 - و قول « أبي عبيدة» بأنها ابنة ملك قديم .

5 - و قول « أبي حاتم عن الأصمعي» عن أبي عمرو بن العلاء بأنها مدينة .

و بهذا الترتيب أورد ابن منظور هذه الأقوال مفصلة ، دون أن يرجح قولا على آخر في هذا المثل ، و في موضع آخر ، يذكر المثل القائل : «الظمأ القامح خير من الري الفاضح»[206] ، عن « الليث» ، ليردفه برأي معاكس للأزهري ، نصه : « لكن الأزهري قال بأنه خلاف ما سمع عن العرب ، والمسموع منهم : الظمأ الفادح خير من الري الفاضح».

ولدى شرحه للمثل القائل : أشأم من عطر منشم [207] ، يورد اثنى عشر قولا في هوية «منشم» ، و هي باختصار :

1 - قول غير منسوب لأحد من العلماء –يرى بأنها امرأة عطارة من همذان .

2 - و قول عمرو بن العلاء بأنها تعني الشر بعينه ، فهي لديه ليست امرأة .

3 - وقول ابن الكلبي بأنها امرأة عطارة من حمير .

4 - و قول الجوهري بأنها امرأة عطارة من مكة .

5 - و قول بن بري بأنها الشربعينه ، على رأي أبي عمرو بن العلاء .

6 - وقول غير منسوب لأحد من العلماء – بأنها شئ من قرون السنبل، يقال له « البيش»

7 - و قول الأصمعي بأنها امرأة عطارة ، دون أن يسمي قومها .

8 - و قول أبي عمرو الشيباني بأنها امرأة عطارة من خزاعة .

9 - و قول هشام الكلبي بأن من قال منشم ، بكسر الشين ، فهي ابنة الوجيه من حمير .

10 - و قوله كذلك بأن من قال منشم ، بفتح الشين ، فهي امرأة عطارة من عوام الناس.

11 - و قول الكلبي ، بأنها امرأة من جرهم .

12 - و قول غير منسوب لأحد من العلماء – بأنها امرأة خانت زوجها ، ولها قصة .

و قد أورد ابن منظور هذه الأقوال مفصلة ، من غير إبدائه الرأي في المسألة .

و من المواضع النادرة ، التي أصدر فيها حكما لصالح رأي على آخر ، ما أورده في في شرح المثل القائل : « متى كان حكم الله في كرب النخل ؟» [208]، حيث أتى بالمثل نقلا عن الجوهري ، مردفا إياه برأي مخالف للجوهري، ينفي صفة المثل عن هذه العبارة و هو رأي ابن بري القائل : ليس هذا الشاهد الذي ذكره الجوهري مثلا وإنما هو عجز بيت لجرير ، وهو بكامله:

« أَقُولُ وَ لَمْ أَمْلِكْ سَوَابِقَ عَبْرَتِي   مَتَى كَانَ حُكْمُ اللهِ في كَرَبِ الّنَخْلِ ؟[2]

ويمضي في سرد مناسبة هذا الشعر،ثم يعقب ابن منظور لصالح الجوهري، بقوله: « قلت : هذه مشاحة من ابن بري للجوهري في قوله: ليس هذا الشاهد مثلا، و إنما هو عجز بيت لجرير، و الأمثال قد وردت شعرا وغيرشعر، و ما يكون شعرا لا يمتنع أن يكون مثلا»[209]، حيث عرض الرأيين على اختلافهما،ثم قضى بموضوعية رأي الجوهري وصلاحيته على رأي ابن بري .

وعرض ابن منظور لمختلف الروايات أحالنا لأمرين متناقضين، فهوفي مواضع يذكر الروايات دون نسبتها لأحد من العلماء ، من أمثلة ذلك،ما جاء في شرح المثل القائل : «إنه ليكسر عليك أرعاظ النبل غضبا»[210]، حيث أتى بشرحين مختلفين، من غير أن ينسب أحدهما ، الى عالم أو كتاب،أو مذهب ما، مبتدئا ذلك بقوله :«..و قد فسر على وجهين...». ويقوم في مواضع أخرى بذكر سند روايته بالتواتر، عالما عن عالم، و من أمثلة ذلك : شرحه للمثل القائل :«ليس في كل حين أحلب فأشرب »[211] فيذكر في شرحه: « قال الأزهري: هكذا رواه المنذري عن أبي الهيثم»، وفي مثل آخر: «جستموني و وراء الأكمة ما وراءها»[212] ، يقول: «... وروى ابن هانئ عن زيد بن كثوة ..» كما انتهج ابن منظور في شرحه للأمثال، نهجا آخر،فشرح المثل بمثل ثان دون إضافة تعليق ما ، ومن أمثلة ذلك، شرحه للمثل القائل: «إن الكذوب قد يصدق»[213] ،بمثل آخر فيقول « وهوكقولهم: مع الخواطئ سهم صائب»، وقد نعلل هذا بورود المثل الأخير بشرحه قبل هذا في مدخل « خطأ» [214] ما جعل فهمه ينتقل بالضرورة إلى المثل الجديد المشروح به، ولكنه قام في موضع آخربشرح مثل عربي، بمثلين آخرين و لم يشرحا من قبل في «اللسان» كما جاء في شرح المثل القائل: «عاط بغيرأنواط» [215]حيث فسر معناه ابتداء ثم قال: «.. و هذا نحو قولهم: كالحادي وليس له بعير، وتجشأ لقمان من غيرشبع».

وأحيانا يتم شرح المثل بمثل ثان يشرحه ويتم شرح المثل الثاني بمثل آخر يشرحه في نفس السياق، وهذا ما جاء في شرح المثل القائل: «ولقد طويتكم على بللاتكم»[216]، حيث أتم شرحه بمثل ثان:(اطو الثوب على غره)،فسر معناه وأردفه بمثل أخر: (اطو السقا على بلله) وفسره كذلك .

و يثير ابن منظور في شرح الأمثال مسائل عدة – و هذا سمت شراح الأمثال في مصنفاتهم- من تلك المسائل ما كان نحويا ، أو صرفيا ، أو صوتيا.

و من المسائل النحوية ، التي ناقشها ابن منظور،وفق ما أورده من روايات، ما جاء في شرح المثل القائل: «عسى الغوير أبؤسا» [217] موضحا الحالة الإعرابية لـ أبؤسا بلفظة: «...وانتصب على أنه خبر عسى»، وفي شرح مثل آخر: «وجه الحجر وجهة»[218]،يبين موقع كلمة « الحجر» من الإعراب ، بلفظة: «...فنصب بوقوع الفعل عليه...»[219] .

كما تطرق ابن منظور إلى قضايا صرفية،ومنها ما جاء في شرح المثل القائل: «ماز رأسك و السيف»[220]، فقال: «... و ماز: ترخيم مازن»، وفصل في موضوع الاشتقاق على لسان « أبي العباس ثعلب» في شرح المثل القائل: «استنوق الجمل»[221]، فقال: « ولا يقال استناق الجمل إنما ذلك لأن هذه الأفعال المزيدة....افتعل واستفعل، إنما تعتل باعتلال أفعالها الثلاثية البسيطة التي لا زيادة فيها، كاستقام،إنما اعتل لاعتلال قام....» .

و لم يغفل ابن منظور الجانب الصوتي في الأمثال إذ ضبط حركة أواخر الكلمات وفق ما أورده من روايات، و من أمثلة ذلك ،ما جاء في سياق شرح المثل القائل:«إنك كالبائع الكبة بالهبة» [222]حيث قال:... منهم من رواه: لكالبائع الكبة بالهبة بتخفيف البائين من الكلمتين...أبوزيد في هذا المثل شدد الباءين من الكبة و الهبة...» و في شرح للمثل القائل:

«الكلاب على البقر»[223] ، قال:«.. ترفعها وتنصبها»، أي أرسلها على حمار الوحش كذلك نجده لدى ذكره للمثل القائل: «ليس هذا بضربة لازب»[224] و في رواية مضافة يقول: «ليس هذا بضربة لازم»، يعلق عليه بالقول: يبدلون الباء ميما لتقارب المخارج...»

وعرج ابن منظور على لغة الأمثال، من ذلك ما جاء في شرح المثل القائل«أتى عليه ذو أتى على الناس»[225]، على لسان أبي منصور الأزهري:«وهي لغة طئ»، ونسب الأمثال الى منطقة بعينها كالمثال القائل:« عيربعيروزيادة عشرة»[226] حيث نسبه لأهل الشام.

وميز في مواضع أخرى بين ما يتمثل به لدى النساء ولدى الرجال ، كأمثل القائل:(إلا خطية فلا إليه)[227] حيث يمضي قائلا على لسان صاحب (التهذيب) « هذا المثل من أمثال النساء ...»[228] .

واعتبارًا لكل ما ذكرناه ندرك تعامل ابن منظور مع الأمثال العربية في معجمه، وفق منهجية وسعت مناهج مصنفي كتب الأمثال السابقين في شرحها ، ودراسة مختلف المسائل اللغوية المتعلقة بها، ويمكن تلخيص منهجية إيراد الأمثال وشرحها في «لسان العرب» عبر النقط التالية:

1 - المثل في معجم ابن منظور شاهد يعتد به في اللغة.

2 - أمثال «اللسان» غير خاضعة لأي ترتيب.

3 - تحري ابن منظور الأمانة العلمية، في ذكر مصادر أمثاله وشرحها في معظم استشهاداته وإعراضه عن هذا في الشائع منها والمتبذل.

4 - تباين شروح ابن منظور مابين الطول والقصر، وانعدامها في بعض الأمثال، وتوزيع الشروح في مواضع أخرى عند تكرار للأمثال، و نادرا ما كرر شروحه عبر المعجم.

5 - تعداد رواياته في شرح المثل الواحد ما أغنى مادته، ووسع الرؤية اللغوية للمثل.

6 - واهتمام ابن منظور ببيان مورد المثل ومضربه في أكثر إستشهاداته.

7 - وعرض لكل الروايات المختلفة في المثل الواحد من دون تعصب أو إصدار أحكام له في هذه الروايات إلا نادرا.

8 - واختصار ابن منظور لبعض شروحه، بإيراد المثل تفسيرا لمثل أخر، معولا على ثقافة القارئ وما سبق ذكره في أبواب «اللسان».

9 - وإثارة مختلف المسائل النحوية، والصرفية، والصوتية، واللغوية،في شروحه للأمثال.

10 - وتحديد المنطقة السكانية ، التي نشأ فيها المثل المستشهد به في بعض المواضع.

11 - وتعيين الفئة البشرية التي تتعاطى مثلا دون آخر في سياق بعض استشهاداته.

المصادروالمراجع

1)القرأن الكريم ، برواية: حفص عن عاصم.

2)أساس البلاغة ، الزمخشري ،تحقيق : محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ط3 ، 2003 م .

3)أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية ، تعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دارالكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط1، 2004.

4)الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد نمرالخطيب ، دارالمعرفة،بيروت لبنان، د/ط، 1981م.

5)أمثال العرب ، المفضل محمد الضبي،تحقيق: قصي الحسين،دار ومكتبة الهلال،بيروت لبنان، لبنان ط1 ،2003 .

6)الأمثال العربية القديمة ، ودولف زلهايم ، ترجمة : رمضان عبد التواب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ط3 ، 1984 م .

7)الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، عبد المجيد قطامش، دار الفكر، دمشق،سورية،ط2، 1988م.

8)الأمثال العربية ومصادرها في التراث، محمد ابو صوفة، مكتب الأقصى ، عمان، الأردن، ط1، 1982م.

9)الأمثال المولدة وأثرها في الحياة الأدبية في العصرالعباسي حتى نهاية القرن الرابع هجري ، فيصل مفتاح الحداد ، جامعة قاريونس ، بنغازي، ليبيا ، ط1 ، 1998 م.

10)البيان و التبيين ، الجاحظ،قدم له : د/علي بو ملحم ، دارو مكتبة الهلال، بيروت لبنان ، د/ط،2002 م .

11)تاج اللغة و صحاح العربية ، الجوهري ،تحقيق : احمد عبد الغفور العطار، القاهرة، مصر ، ط2 ، 1982م .

12)التعبير اللغوي في الأمثال القرأن الكريم، محمود السيد الحسن،المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية، مصر، د/ط،2001م.

13)التوليد الدلالي، حسام البهنساوي ، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط1، 2003 م .

14)الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ، حمزة بن الحسن الأصفهاني، تحقيق : د/قصي الحسين ، دارو مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 2003 م .

15)شرح ديوان الأعشى: محمد محمود ناصر الدين، ودار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 1993م .

16)الشعرو الشعراء ، ابن قتيبة ،تحقيق: مفيد قميحة و محمد أمين النضاوي ، دارالكتب العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2005 م .

17)علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ، مصر،ط5، 1998م .

18)علم الدلالة ، كلود الجرمان، ريمون لوبلون، ترجمة: نور الهدى لوشن، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، د/ط، د/ت.

19)الفاخر في الأمثال ، أبو سلمة الكوفي الضبي ، تحقيق : قصي الحسين ، دارو مكتبة الهلال ،بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2003 م .

20)فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، أبو عبيدة البكري ، تحقيق : قصي الحسين ، دارو مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ط1 ، 2003 م .

21)الفهرست ، ابن النديم ،تحقيق: يوسف علي الطويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان، ط2 ، 2002م.

22)كلام العرب من قضايا اللغة العربية ، حسن ظاظا، دار القلم، دمشق، سوريا،ط2 ، 1990 م .

23)لسان العرب، ابن منظور ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت، لبنان ،ط3، 1993م.

24)مجمع الأمثال ، الميداني ،دارمكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ،ط2، د/ت.

25)مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام ، إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية،بيروت ، لبنان، ط1 ،2002م.

26)المعاجم اللغوية العربية ، إميل بديع يعقوب ، بداءتها و تطورها، دار العلم للملايين،بيروت،لبنان ، ط1، 1981م .

27) الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد نمر الخطيب ، دار المعرفة،بيروت لبنان، د/ط، 1981م.

28) المعجم المفصل في اللغوين العرب، إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط1، 1997م .

29) موسوعة الأمثال القرآنية، محمد عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الأداب، القاهرة، مصر، ط1، 1994م.

30) وحي الرسالة ، - أحمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة، مصر،ط2، 1966م .

الهوامش:

1 - وذلك دون احتساب الأمثال المكررة في أبواب المعجم.

2 د/ ايميل يعقوب، المعاجم اللغوية العربية بداءاتها وتطورها، ص59-58.

3 لسان العرب، آدم، ج1، ص96.

4 - المصدر نفسه، درج، ج4، ص319.

5 المصدر نفسه، سوا، ج6، ص443.

6 المصدر نفسه، شأي، ج7، ص11.

7 المصدر نفسه، طحل، ج8، ص130.

8- أحمد مختار محمد، معاجم الأبنية في اللغة العربية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1995م، ص207.

9 بلعيد صالح، مصادر اللغة،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون، الجزائر،د/ط، 1994م، ص80.

10 - لسان العرب، تفق، ج2، ص38.

11 - المصدر نفسه، حذا، ج3، ص99.

12 - المصدر نفسه، سرر، ج6، ص238.

13 -المصدر نفسه، هيف، ج15، ص181.

14 -المصدر نفسه، وتر، ج15، ص208.

15 -د/ حسن ظاظا،كلام العرب من قضايا اللغة العربية، ص110.

16 - لسان العرب، سها ج6، ص414.

17 - لسان العرب، صوت، ج7، ص455.

18 - المصدرنفسه،كرب، ج12، ص58.

19 - المصدرنفسه، نطق، ج14، ص188.

20 - المصدرنفسه، هجر، ج15، ص36.

21 - المصدرنفسه، المقدمة، ج1، ص18.

22 المصدرنفسه، حجرن ج3، ص58.

23 - المصدرنفسه، صرم، ج7، ص333.

24 - المصدرنفسه، عون، ج9، ص485.

25 - المصدرنفسه، قرب، ج11، ص86.

26 - المصدرنفسه، هيل، ج 15، ص 182.

27 - أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث و الأأثر، تحقيق:طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت لبنان، د/ط 1979م، مقدمة المؤلف، ج1 ص2.

28 - لسان العرب، جنن، ج2 ص387.

29 - المصدرنفسه، حطم، ج3 ص227.

30 - المصدرنفسه، رمد، ج5 ص311.

31 - المصدرنفسه، غرب، ج10 ص39.

32 - د/ حسن ظاظا،كلام العرب نت قضايا اللغة العربية، ص108.

33 - لسان العرب، ثعب، ج2 ص98.

34 - د/ إيميل بديع يعقوب، المعجم المفضل في اللغويين العرب، ج1 ص242.

35 - الميداني، مجمع الأمثال، المقدمة، ج1 ص12.

36 - د/ عبد الحميد قطامش، الأمثال العربية، ص47.

37 - لسان العرب، رقا، ج5 ص264.

38 - المصدرنفسه، نشم، ج14 ص152.

39 -المصدرنفسه، هزم، ج15 ص92.

40 - ابن النديم أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق، الفهرست، تحقيق: يوسف علي الطويل،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان\ن ط2\ن 2002م\، ص144.

41 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص47 /48.

42 - الميداني، مجمع الأمثال العربية، ج1 ص12.

43 -لسان العرب، برقش، ج1 ص385.

44 - ابن النديم، الفهرست، ص108.

45 -المفضل محمد الضبي، أمثال العرب، تحقيق د/ قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص18-10.

46 - لسان العرب، بيع، ج1 ص557.

47 - المصدرنفسه، عرس، ج9 ص131.

48 - المصدرنفسه، عوف ج9 ص478.

49 - لسان العرب، غرا، ج10 ص63.

50 - المصدرنفسه، مرد، ج13 ص71.

51 - ابن النديم، الفهرست، ص66.

52 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص52.

53 - لسان العرب، حشم، ج3 ص192.

54 - ابن النديم، الفهرست، ص76.

55 - رودلف زلهايم، ترجمة رمضان عبد التواب، الأمثال العربية القديمة، ص81.

56 - لسان العرب، سته، ج6 ص172.

57 - المصدرنفسه، سته، ج6، ص172.

58 - المصدر نفسه، فرر، ج10 ص218.

59 - ابن النديم، الفهرست، ص/81، 82.

60 - - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص62.

61 - المرجع نفسه، ص61.

62 - لسان العرب، بعد، ج1 ص442.

63 - المصدر نفسه، ربض، ج5 ص111.

64 - المصدر نفسه، عضرط، ج9 ص256.

65 - ابن النديم، الفهرست، ص84، 85.

66 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص65.

67 - المرجع نفسه، ص64.

68 - لسان العرب، ثفا، ج2 ص110.

69 - المصدر نفسه، خمس، ج4 ص215.

70 - المصدر نفسه، قتل، ج11، ص35.

71 - ابن النديم، الفهرست، ص 85، 86.

72 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص66.

73 - الميداني، مجمع الأمثال، المقدمة، ج1 ص12.

74 - لسان العرب، جعل، ج2 ص302.

75 المصدر نفسه، دنا، ج4 ص420.

76 - المصدر نفسه، روب، ج4 ص354.

77 - المصدر نفسه، غرر، ج10 ص42.

78 - ابن النديم، الفهرست، ص87.

79 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص68.

80 - حمزة الأصفهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، المقدمة، ص25.

81 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص69، 70.

82 - لسان العرب، صأي ج7 ص267.

83 - المصدرنفسه، أدم، ج1 ص97.

84 - المصدرنفسه، بدح، ج1 ص337.

85 - المصدرنفسه، جيا، ج2 ص432.

86 - المصدرنفسه، حبل، ج3 ص29.

87 - المصدرنفسه، غور، ج10 ص144.

88 - ابن النديم ، الفهرست، ص76.

89 - حمزة الأصفاهي، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة

90 - لسان العرب، بسس، ج1 ص407.

91 - المصدرنفسه، تأق، ج2 ص8.

92 - المصدرنفسه، ذقن ج5 ص47.

93 - المصدرنفسه، نتا، ج14 ص37.

94 - المصدرنفسه، هبر، ج15 ص16.

95 - ابن النديم، الفهرست، ص113.

96 - أبوعبيدة البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق : د/قصي الحسين، دارومكتبة الهلال، بيروت لبنان، ط1، 2003م، ص7.

97 - لسان العرب، جني، ج2 ص393.

98 - المصدرنفسه، حصص، ج3 ص204.

99 - المصدرنفسه، صدأ، ج7، ص296

100 - المصدرنفسه، مها، ج3 ص215.

101 - ابن النديم، الفهرست، ص109 .

102 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص79-78.

103 - لسان العرب، بجر، ج1 ص317.

104 - لسان العرب، حور، ج3 ص384.

105 - المصدرنفسه، خصف، ج4 ص112.

106 - المصدرنفسه، عرر، ج9 ص126.

107 - المصدرنفسه، لدغ، ج12 ص265.

108 - ابن النديم، الفهرست، ص109.

109 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص81، 83.

110 - لسان العرب، خلج، ج4 ص170.

111 - المصدرنفسه، شنن، ج7 ص170.

112 - المصدرنفسه، غرر، ج10 ص45.

113 -د/ إيميل بديع يعقوب، المعجم المفضلفي اللغويين العرب ، ج1 ص291.

114 - لسان العرب، دهم، ج4 ص431.

115 - المصدرنفسه، صبح، ج7، ص272.

116 - المصدرنفسه، لهف، ج12، ص344.

117 - ابن النديم، الفهرست، ص125

118 - لسان العرب، جني، ج3 ص393.

119 - المصدرنفسه، عيص، ج9 ص499.

120 - المصدرنفسه، قصي، ج10 ص275.

121 - ابن النديم، الفهرست، ص118.

122 - لسان العرب، حرق، ج3 ص153.

123 - المصدرنفسه، روب، ج5 ص354.

124 - المصدرنفسه، فشش، ج10 ص266.

125 - ابن النديم، الفهرست، ص116.

126 - أبو سلمة الكوفي الضبي، الفاخر في الأمثال، تحقيق: د/قصي الحسين، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص07.

127 - لسان العرب، رتع، ج5 ص131.

128 - المصدر نفسه، عبد، ج9 ص15.

129 - المصدر نفسه، نذر، ج14 ص101.

130 - ابن النديم، الفهرست، ص119.

131 - محمد أبو صوفة، الأمثال العربية و مصادرها في التراث، ص67.

132 - لسان العرب، صيف، ج7، ص456.

133 -د/ إيميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغويين العرب ، ج2 ص 98.

134 - لسان العرب، أول، ج1 ص269.

135 -د/ إيميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغويين العرب ، ج1 ص 145.

136 - أبو منصور الثعالبي، التمثيل و المحاضرة، تحقيق: د/ قصي الحسين، دار و مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 2003 م، ص9.

137 - لسان العرب، ختل، ج4، ص24.

138 -د/ إيميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغويين العرب ، ج1 ص245.

139 - د/ مصطفى الطاوي الجويني، قراءة في تراث الزمخشري، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، د/ط 1997م، ص197ن198.

140 - ابن النديم، الفهرست، ص125.

141 - لسان العرب،أول، ج1 ص269.

142 - المصدر نفسه، نقم، ج14 ص272.

143 - ابن النديم، الفهرست، ص124.

144 - لسان العرب، بشر، ج1 ص413.

145 - المصدرنفسه، مرخ، ج 13 ص69.

146 - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ج4 ص 3.

147 - لسان العرب، درص،ج4 ص331.

148 - المصدرنفسه، ملس، ج13، ص175.

149 - ابن النديم، الفهرست، ص 76.

150 - لسان العرب، ملك، ج13 ص183.

151 - المصدرنفسه، بقل، ج1 ص645.

152 - ابن النديم، الفهرست، ص105.

153 - لسان العرب، حبحب، ج3، ص14.

154 - المصدرنفسه، هنا، ج15

155 - ابن النديم الفهرست، ص105.

156 - لسان العرب، عنق، ج9 ص434.

157 - المصدرنفسه، قرظ، ج11 ص177.

158 - ابن النديم، الفهرست، ص 107..

159 - لسان العرب، نشم، ج14 ص152.

160 - ابن النديم، الفهرست، ص81.

161 - لسان العرب، حذف، ج3 ص93.

162 - المصدرنفسه، هدمل، ج15 ص57.

163 - لسان العرب، سأسأ، ج5 ص57.

164 - المصدرنفسه، وحي، ج15 ص242.

165 - المصدرنفسه، فرع، ج10 ص240.

166 - ابن النديم، الفهرست، ص93.

167 - لسان العرب، بخس، ج1 ص330.

168 - المصدرنفسه، وسط، ج15 ص297.

169 - ابن النديم، الفهرست، ص177.

170 - لسان العرب، جوب، ج2 ص405.

171 - المصدرنفسه، عقرب، ج9 ص319.

172 - ابن النديم، الفهرست، ص92.

173 - لسان العرب، بدح، ج1 ص337.

174 - لسان العرب، أبد، ج1 ص40.

175 - المصدرنفسه، أبد، ج1 ص40.

176 - حكمة العرب، و أقوالها، و كلماتها السائرة، تدخل في مجموعة الأمثال العربية، عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص27-16.

177 - لسان العرب، حلب، ج3 ص275.

178 - المصدرنفسه، روب، ج5 ص354.

179 - المصدرنفسه، نطف، ج14 ص188.

180 - المصدرنفسه، نعل، ج14 ص188.

181 - المصدرنفسه، برقش، ج1 ص385.

182 - المصدرنفسه، كسع، ج12 ص94.

183 - لسان العرب، معي، ج13 ص148.

184 - المصدرنفسه، حدا ج3 ص72.

185 - المصدرنفسه، حنن، ج3 ص370.

186 - المصدرنفسه، أتي، ج1 ص66.

187 - المصدرنفسه، رسن، ج5 ص216.

188 - المصدرنفسه، كدد، ج12 ص43.

189 - المصدر نفسه، مسخ، ج13 ص102.

190 - المصدر نفسه، بلع، ج1 ص485.

191 - المصدر نفسه، خيب، ج4 ص256.

192 - المصدر نفسه، رجل، ج5 ص155.

193 - المصدر نفسه، عذر، ج9 ص108ن كذب، ج12 ص51.

194 - المصدر نفسه، خطأ، ج4 ص134، كذب، ج12 ص51.

195 - المصدر نفسه، صدق، ج7 ص307، نبأ، ج14 ص30.

196 - المصدر نفسه، رعي، ج5 ص252، سعد، ج6 ص 264.

197 - المصدر نفسه، جعع، ج2 ص299، طحن، ج8 ص131.

198 -- المصدر نفسه، بلل، ج1 ص491، ذرب، ج5 ص31.

199 - لسان العرب، بأس، ج ص304، عسا ، ج9 ص214، ج10 ص184.

200 - لسان العرب، حشف، ج3 ص190، كيل، ج12 ص203.

201 - المصدر نفسه، أبد، ج1 ص40، لبد، ج12 ص221.

202 - المصدر نفسه، أدم، ج1 ص97، بشر، ج1 ص413.

203 - المصدر نفسه، نطف، ج14، ص188.

204 - د/ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص226-216.

205 - لسان العرب، برقش، ج1 ص385.

206 - لسان العرب، قمح، ج11 ص289.

207 - المصدر نفسه، نشم، ج14 ص152.

208- لسان العرب، كرب، ج12 ص58.

209- لسان العرب، كرب، ج12 ص58.

210- المصدر نفسه،رعظ، ج5 ص245.

211 - المصدر نفسه، حلب، ج3 ص279.

212 - المصدر نفسه، أكم، ج1 ص173.

213 - لسان العرب، كذب، ج12 ص51.

214 - المصدر نفسه، خطأ، ج4 ص134.

215 - المصدر نفسه، نوط، ج14 ص328.

216 - المصدر نفسه، ذرب، ج5 ص31.

217 - المصدر نفسه، بأس ،ج1 ص304.

218 - المصدر نفسه، وجه، ج15 ص226.

219 - المصدر نفسه، وجه، ج15 ص226،

220 - المصدر نفسه، نكد، ج14 ص333.

221 - المصدر نفسه، نوق، ج14 ص333.

222 - المصدر نفسه، كبب، ج12 ص8.

223 - المصدر نفسه، كلب ، ج12 ص134.

224 - المصدر نفسه، لزب، ج12 ص271.

225 - المصدر نفسه، ذاوذوي، ج5 ص14.

226 - المصدر نفسه، عير، ج9 ص492.

227 - المصدر نفسه، حظا، ج3 ص232.

228 - المصدر نفسه، حظا، ج3 ص232.

العربية في ظل الإسلام؟

أ.د. عبد الجليل مرتاض (ج. تلمسان)

ما هي العربية؟

ليس من السهل إقامة تعريف بطرق قصيرة للعربية، غير أن التعريف الذي نريد أن نعرّف به العربية لا يعدو، وفي هذا المقام، أن يكون تعريفا عادياً وليس تعريفاً فقهياً أو لسانيا، فللعربية تاريخ له ماض طويل ومجيد، وحضارة وتراث وتشابك مع بعض اللغات واللهجات القديمة في كامل الشرق الأدنى، ولاسيما فيما بين النهرين منذ عهد الأكاديين، وفي موطنها الذي عرفت به منذ ما قبل الإسلام ببعيد، والذي عرفت فيه كلغة حضارة وآداب وفنون وعلوم.

إن العربية التي نتكلم بها اليوم امتداداً لتكلُّم وتخاطب أجدادنا بها منذ الفتح الإسلامي، هي إحدى اللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح عليهما السلام، وكان أحد العلماء الألمان (شلوزر) أول من أطلق على اللغات التي كانت منتشرة "من المتوسط إلى الفرات، ومن بلاد ما بين النهرين إلى شبه الجزيرة العربية"[(1)] لغة سامية مستقيا ذلك من التوراة (سنة 1781). وهذه اللغة كانت في بدايتها لغة مشتركة بين كل الشعوب السامية مثل العبريين والبابليين والآشوريين والفينيقيين والعرب... باعتبار هذه

الشعوب وغيرها من الشعوب السامية القديمة كانت تشكل أمة واحدة، في حين أن المصريين وشعوب شمال إفريقية كانت تتكلم اللغة الحامية التي هي أخت للسامية، بل ذهب بعض الألمان (نولدكة) سنة 1887 إلى أن افريقية في اعتقاده، هي الموطن الأصلي للساميين بسبب التشابه الكبير بين اللغتين الحامية والسامية، وفي القرن الماضي (العشرين) أخذ بعض الباحثين الغربيين (بارتون) باعتقاده[2]، بل لاحظنا في الآونة الأخيرة البعض يقيم مقارنة دلالية واشتقاقية بين بعض الألفاظ الحامية في الجزائر والعربية، مثلما فعل ذلك الدكتور عثمان سعدي.

وتحديد إفريقية كموطن أول للشعب السامي القديم تؤيده، العوامل الجيولوجية والطبيعية وقدم الحياة واستقرار القارة، ولاسيما في جنوبها، منذ عهد سحيق يتقدم وجود الساميين أنفسهم[3]، وتكون نتيجة هذا الاعتقاد أن افريقية كانت تتكلم اللغة السامية القديمة التي يرجِّح جل الباحثين اللغويين (الفقلغيين) أنها هذه العربية نفسها، باعتبار العربية هي اللغة الوحيدة التي لا تزال تضم كل خصائص اللغة السامية القديمة، وباعتبارها إحدى اللغات التي ظلت منعزلة – والانعزال هنا لا يعني الموت- عن العناصر اللغوية والاجتماعية الأجنبية (لا يدخل في هذا الاعتبار طبعا العرب المتاخمون للأمم الأجنبية المحيطة بجزيرتهم، ولذلك لم يقبل الرواة والنحاة الاستشهاد بلغاتهم) في صحرائها بشبه الجزيرة العربية، وباعتبارها اللغة السامية الوحيدة التي ظهرت كلغة أدبية راقية قبل الإسلام، ثم لما جاء الإسلام كانت لغة قرآنه وقضائه ودولته وعباداته ومعاملاته وحضارته جميعا، وبذلك زادها منعة وقوة، وأصبح الدرع التي تحميها من كل غزو وتجميد (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، وفعلا لقد برهن الإسلام في أحلك الظروف المتخاذلة، وفي أطول الفترات

التاريخية المتضاربة، وأمام أعتى وأقوى استعمار بشري وديني انحرافي حديث وقديم، وأمام أحدث لغات أجنبية وأكثرها سيطرة على العالم كله لأعدائه ومناصريه بأن لغته قوية ما دام الإسلام –وسيبقى- قوياً.

وحين بدأ يعتريها بعض الوهن والفتور من سقوط بغداد سنة 565هـ، وظهور الصليبيين منذ سنة 491 هـ في شن غاراته على المشرق العربي والإسلامي وكذا مغربه بعد فشلهم في المشرق، وبروز سياسة التتريك على أنقاض المماليك سنة 923هـ، إلى إقبال الاستعمار الغربي بقضه وقضيضه لينتقم للدولة الرومانية التي احتضرت على يد أبناء الجزائر في المغرب وعلى يد خالد بن الوليد في اليرموك، لتغريب ما استطاع جزءاً أو أجزاء من العالم العربي، ومحاولة احتلال أرواحنا بعد ما حاول أن يعبث، دون أن يفلح، بأجسادنا، تدخّل الإسلام بكل قواه الروحية السمحة ليقف مكشوف الظهر والصدر، وبكل تحدٍّ وثقة، حاجزاً مانعاً كالطود الشامخ أمام كل التيارات الغربية المغرية مادياً والممسوخة روحاً وأخلاقاً، وأمام كل الشطحات المحلية الرجعية.

أثر الإسلام في تطور العربية:

إذا أردت أن تعلم الأسباب التي بها انتشرت العربية، فإنك لن تجد علة أقوى سببا من انتشارها مع انتشار الإسلام، وإذا أحببت أن توجز أو تطنب عن سبب تطور العربية وما جد فيها من دلالات واشتقاقات ما عُرِّبَ فيها ونُقِلَ إليها من كلمات، وأقيم حولها من دراسات لا تزال حتى اليوم الند العنيد لأحدث دراسات لسانية،... فإنك لن تجد سببا أكثر دقة من تأثر هؤلاء وأولئك بالإسلام الذي خدمهم فأرادوا أن يخدموه، وأفهمهم بعد جهل فأحب الغيورون عليه أن يفهموه أمما إسلامية غير عربية، والذي

أنار للأولين منهم السبيل، فأراد التالون والتابعون أن يرسموا أبعاد هذا السبيل لخلفهم حتى لا يضلوا ولا يتخلفوا ولا يحاروا،... متى رغبوا أن يجتازوه طولا ويعبروه عرضا.

ورغم أن علماء العربية القدماء يجمعون على أن ما انتهى إلينا منها هو الأقل، كقول عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منهم أكثره"(4) أو كقول أبي عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"(5) أو كقول ابن سلام نفسه: "ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد والذي صح لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة..."(6)، مع قرار بعض الفقلغيين (فقهاء اللغة) العرب له كقول ابن فارس: "ذهب علماؤنا -أو أكثرهم- إلى أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل... وأحرى بهذا القول أن يكون صحيحاً، لأنا نرى علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب، فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه، بل يسلك طريق الاحتمال والإمكان..."(7).

ورغم أن هناك تراكيب وألفاظا بعينها قد كانت فزالت بزوال العصر الجاهلي ومجيء الإسلام، مثل: أنعم صباحا، وأنعم ظلاما، وأبيت اللعن، وقول المملوك لمالكه: ربي، وتركهم مناداة من لم يحج: صيرورة لنهي النبي

(صلى الله عليه وسلم) عن هذا: "لا صيرورة في الإسلام"،...[8] وغير هذا من أساليب وكلمات كثيرة، فإن ما جاء به الإسلام وعوضه العربية كان يشكل أضعاف أضعاف ما فقد أو هجر أو أهمل، ويكفي هنا أن نستدل بالفقلغي العربي ابن فارس "إذ يقول: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم، في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخربزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفّى الآخِرُ الأول،... فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والعلم والكافر والمنافق،..."[9] فكانت هذه الكلمات تدل على دلالات فأضحت تدل على دلالات جديدة (فعفى الآخِرُ الأوَّلُ)، وانظر إلى كل أو بعض الكلمات الفقهية، وإلى ما شرعته التشريعات الإسلامية، وانظر إلى كل المصطلحات اللغوية والنحوية والصرفية والصوتية، وتأمل في كل أو بعض ما جد في الحضارة الإسلامية من أسماء في الفنون والعلوم والفلسفة والنظم الإسلامية من مصطلحات عسكرية ومدنية وقضائية وبريدية وديوانية، وفي كل حقل من حقول البحث العلمي،... تَقِفْ حائراً مشدوداً إلى تفسيرات قد تحلّق بك في الماورائيات من أجل تصديقها وقبولها، إذا لم تعرف مصدرها الحقيقي والمباشر ألا وهو الإسلام.

إن أثر الإسلام في اللغة العربية كان أمراً طبيعياً بأن يثريها ويطورها ويطوعها، لأن أَيَّ مدلول أو مستحدث في المجال التكنولوجي مهما كان نوعه فهو ليس شيئا ليعجز العربية أمام قدرة هذه اللغة على سعة واستيعاب كلام الله لفظا لفظا وآية آية، أم هناك تكنولوجية أوسع مدلولاً من مداليل القرآن، وأقصى حاجة من حاجات القرآن الذي لم تعجِز هذه اللغة عن نظمه وتبليغه وتفهيمه، وإن كنا لا ننكر بأن سر النظم راجع إلى البناء القرآني الداخلي، علاوة على عجزنا من الإتيان ببعضه

في بنائه الخارجي أيضا، ورغم ذلك فإن قدرة العربية على احتوائها للقرآن الذي يعد أعظم وآخر مقياس من مقاييس قوة أو ضعف هذه اللغة أو تلك، تبدو حين يهم أبرع واحد حاذق للغة أجنبية إلى جانب حذقه للغة العربية في ترجمة القرآن الكريم إلى هذه اللغة.

وأثر الإسلام راجع إلى أمر طبيعي أيضا متعلق بروح الإسلام الذي هو قبل كل شيء دين وحضارة وعلم وتدبر ودعوة إلى البحث العلمي الجاد والأقصى، بل حتى تطبيق كل حركة من حركاته أو فرض من فروضه لا يكاد ينفصل عن العلم، فالإسلام والعلم كلاهما مرتبط بصاحبه، ولا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر، ولئن كنا نرى أن الإسلام لم يستغن ولن يستغني في يوم عن العلم، بينما العلم أمكن له مرحليا أن ينفصل عن الدين، فإن هذا الأخير سوف يخضع إن آجلاً أو عاجلاً إلى الدين الصحيح ليستمد منه قوته الروحية والأخلاقية والإهدائية حين يصل إلى درجة معينة لا يطيق معها إلا الخضوع لهذا الدين أو التحطيم على نفسه وعلى البشرية جمعاء، ولن يجد عندئذ دينا أحق بالخضوع إليه غير الإسلام لما يوجد بينهما من تآلف واتحاد في خدمة البشرية وإسعادها، فالإسلام ينير، ويهدي، والآخر يستنير فيهتدي.

وحين نقول: أثر الإسلام في العربية، فإنا لا نتصور انفصام أو انفطام اللغات العالمية عن هذا الأثر المتبادل بين أخذ حيناً وعطاء حيناً آخر، ولربما قد تكون استفادت هي من هذا الأثر أكثر من العربية نفسها، وهذا ما سنشير إليه ونمثل عليه قبل نهاية هذا الحديث، ومن هذا القبيل، باعتبار العربية قد احتوت على كل الحضارات الإنسانية القديمة والوسطى، وباعتبارها لم تقف مشدوهة أمام ماترجمت، بل بعد استيعابها إياه هضما وسعة طورته وزادت عليه زيادات شهدت به

الحضارة الحديثة، وباعتبارها تعتبر القنطرة الرابطة بين النهضة الغربية الحديثة والحضارات الإنسانية القديمة،... فإنه يباح لنا من هذه الوجهة القول بأن الإسلام كان ذا أثر، ولو بطريق غير مباشر في غير العربية أيضاً.

انتشار العربية:

لا أريد أن أتناول هذا الانتشار على نحو ما يتناوله لغوي من اللغويين فيدخل فيه عوامل متنوعة، لأن منهجي في هذه الكلمة القصيرة واضح، وإن كنت أومن بأن هناك عوامل مساعدة لهذا الانتشار علاوة على العامل الرئيس ألا وهو الإسلام.

إن هذه العربية كان يتكلم بها قوم قليلون، يجهل عددهم أثناء مجيء الإسلام، داخل شبه الجزيرة العربية، وكان ناطقوها ينطقونها سليقة وجبلة، فلم تكن لها مدارس ولا مدرسون، ففصحى العرب قبل الإسلام وبعده، بقليل أو كثير (متفاوت حسب المناطق أو القبائل التي كانت عرضة للفساد السليقي أو في منعة عنه إلى وقت ما) كان يتعلمها الناس كما نتعلم نحن اليوم العامية سليقة من غير مدرسة ولا مدرسين، وليس من شأني الحديث هنا عن الاختلافات بين الباحثين في هذه المسألة.

ولما أهل الإسلام، وجعل ينتشر، أخذت العربية تنتشر معه بسرعة مدهشة، وأقبل على تعلّمها حتى بعض من لم يعتنق الإسلام دينا، لأن الدولة أصبحت عربية، والمصلحة الدنيوية كانت تقتضي من غير المسلمين أن يتقنوها حتى ينالوا مناصب راقية في الدولة العربية الإسلامية الفقهية، وما علمنا أحدا: عالما ولا متعلما، فقيها فيها ولا مرتزقا بها،... شكا من تعلمها صعوبة، ولا حتى فكر في تفضيل بقايا لهجاته المحلية عليها أو مساواته بها، بعد تعلمه إياها.

كانت العربية تصطدم بلغات ولهجات محلية مفتوحة، فلم تكن تمضي إلا مهلة حتى تبتلعها الواحدة بعد الأخرى ابتلاع اقتناع ورضا وطيبة نفس من اللهجات أو اللغات المفتوحة، فإن لم تستشفَّ منها هذا الاقتناع المطلق فإنها كانت لا تجبرها بل ولا تكرهها، وحتى المقتنعة منها فإنه ربما لم يكن يصدر ذلك الاقتناع عنها عفويا أو حتى من إعجابها بهذه اللغة الدخيلة عليها دخول أمن وسلام كلغة، لأنه من الصعب أن يستكين الند للند من أية ظاهرة اجتماعية واحدة، بقدر ما كان ينبعث من نفس معجبة بظاهرة لسانية كيف استطاعت أن تسع كل آيات ومعجزات هذا الكتاب الذي هو القرآن.

ولم تكن العربية تفرض أبداً على بلد مفتوح بأي مظهر من مظاهر العنف أو الجبروت أو الإرهاب أو التعصب للعرقية البغيضة، وإلا فكيف نفسر أن عدد المسلمين الذين ينطقون العربية أقل ممن يتكلمون غيرها؟ كما أننا كيف نفسر مظاهر البقايا اللهجية حتى في بلدان العالم العربية المتعربة؟ إن السكان المفتوحين إثر كل فتح عربي إسلامي مبارك كانوا يتهافتون شوقاً وطواعية على اعتناق لغة دينهم كما أقبلوا في الآن ذاته على اعتناق الإسلام نفسه، وفي هذا الشأن يقول أحد المستشرقين الروس (بارتولد: 1927): "ولم تكن غلبة اللغة العربية بعد ذلك بسلطان الحكومة بل بالاختيار، وكان انتشار اللغة العربية في الأقوام غير الإسلامية أمراً لا ترغب فيه الحكومة كثيراً، فمنع تكلُّم النصارى اللغة العربية وتعلُّمُ أولادهم في مدارس المسلمين، ورغم هذه الحال صار الإسلام دينا رغب فيه أكثر الشعب واتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها. ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم أنشأوا منذ القرن السابع الميلادي لغة أدبية متقدمة في ساحة الفكر تقدماً واضحاً"[(10)].

فكان العرب يتجهون بعد كل فتح إلى تعريف البلاد، فقد حدث تعريب الدواوين منذ زمن عبد الملك بن مروان، فبدأ بتعريب دواوين الشام والعراق، وكان للحجاج فضل كبير على العربية في هذه العملية الرائدة، ثم عربت أنحاء الدولة الإسلامية كلها حوالي 124هـ، وكان للتعريب أثره الفعال في انتشار العربية بين المفتوحين[11]، وكان الإسلام دائما يسبق انتشار العربية، ولربما انتشر دون أن تنتشر لكون الإسلام دائماً يسبق انتشار العربية، ولربما انتشر دون أن تنتشر لكون الإسلام لم يشترط في معتنقه أن يكون متعرباً، ثم لأن الفاتحين العرب أو المتعربين منهم كانوا لا يشكّلون إلا أقلية ضئيلة بالنسبة لأهالي البلاد، وهي السُّنة التي سنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي هذه السُّنة من الذكاء ما لا يغرب عن بال أحد، ولكن لما كان القرار الذي أصدره المعتصم (218 هـ) بإسقاط أعطيات العرب من الديوان، جعل العربية والدين ينتشران أكثر، لأنه اضطر العرب إلى الاختلاط والتصاهر والتعامل أزيد وبطريق مفتوح أمام غير العرب.

ومما ساعد على انتشار العربية بالمغرب العربي أن مصر كانت قد أخذت سبيلها إلى التعريب التام بحيث أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدواوين بمصر منذ سنة 87 هـ[12]، كما أن الفاتحين لهذا البلد لم يكونوا كلهم عربا بل كانوا من أجناس شتى وحد بينهم الدين وصهرهم في بوتقة واحدة لغة واجتماعاً وحقوقا وواجبات، فشجعهم المعربون (بتشديد الراء وفتحها) إذاً من غير العرب على تعلم العربية، علاوة على شعورهم بالنقص والصعوبات في المعاملات الاجتماعية والحربية والسياسية والإدارية بينهم وبين الحكومة العربية الإسلامية الجديدة، إن هذه العوامل وسواها جعلت هؤلاء السكان يقبلون على العربية تعلماً وإِتقاناً في ظرف قصير يدهش الجميع، ولكن هذه الدهشة لا تلبث أن

تزول حين نعلم السرعة المذهلة التي انتشرت بها هذه اللغة في المشرق وجزء كبيرمن آسيا ثم في جزء من أوروبا شرقا وغرباً، بل إن هذه الدهشة تكون أكثر زوالاً حين نؤمن بأن العربية كانت تتلو دائماً الفاتحين -بشكل جزئي أو أعم- ولكنها لم تكن لترحل برحيلهم بل كانت تضرب بجرانها في أي بلد يحل به الدين الإسلامي، وسبب ذلك أن هذا الدين لم يكن يرحل مع الراحلين أو يضعف بضعفهم، ولأنه مرتبط باللغة ارتباطاً جوهرياً –رغم أنه لم يشترط في معتنقه العربية- وهذا ما يجب أن يرغب فيه كل مسلم إذا أراد أن يعرف دينه بغيرواسطة، وما أكثرما تكون هذه الواسطة أحياناً سببا من أسباب ضعف العقيدة عند المسلم لجهله بلغة دينه، أو من أسباب فهم دينه فهما كيفما اتفق، وهذا الجهل بالعربية من جهة، والإهمال غير المحسوب العواقب على المدى المتوسط من السلطات والحكومات العربية والإسلامية المركزية، هما اللذان تحصد الشعوب العربية والإسلامية نتائجه الوخيمة منذ نهاية القرن الماضي إلى يومنا هذا، نتيجة لفتاوى ضالّة ومضلِّلة أعمت عقول وبصائر فئات شبابية مسلمة عالمياً بفضل استغلال وسائل الاتصال الحديثة، وإذ كنا لا ننكر أن هناك أسباباً أخرى لهذا التهوّر، فإن العامل الرئيس والجوهري إنما يكمن كموناً خفياً وقوياً في جهل هؤلاء المغرَّر بهم باللغة العربية، ورحم الله القائل القديم: "أكثَرُ مَنْ تَزَنْدَق من أهل العراق جَهْلُهُم بالعربية". وما هذا المسمَّى "ربيعاً عربياً" عفواً "خريفاً أعجمياً" إلا زندقة جديدة.

أياً كان الأمر، فإنّ الاختلاط العربي بأهل المغرب له ما يوطده ويفعله، ذلك أنه حتى عندما سقطت القيروان في يد كسيلة بعد مغادرة عقبة لها نحو المغرب الأوسط فالأقصى، بقي المسلمون ومن كانوا قد اسلموا تحت يد كسيلة البربري، وهذه الكاهنة تأسر ثمانين عربياً أو متعرباً في حربها الأولى مع حسان بن النعمان، ثم ترسلهم وتحسن إليهم، ولكنها

تبقي على يزيد بن خالد القيسي الذي هو عربي صليبة إعجابا بجماله ثم تتبناه ليصبح أخا لولديها[13] ثم إن البربر بعد هزيمة الكاهنة يستأمنون إلى حسان "فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفا[14] يكونون مع العرب مجاهدين[15] فأجابوه وأسلموا على يديه، فعقد لواءين لولدي الكاهنة، لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس، وأخرجهم مع العرب يجولون في إفريقية يقاتلون الروم وممن كفر من البربر، وحسن إسلام البربر وطاعتهم وانصرف حسان إلى مدينة القيروان، وذلك في رمضان سنة أربع وسبعين... وقد استقامت له إفريقية فلا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد"[16].

ثم هذا موسى بن نصير يعود من طنجة بعدما يترك وراءه طارقا في نفسه العدد الذي عقده حسان لولدي الكاهنة مع سبعة وعشرين من العرب، ولكنه لم ينصرف إلا بعد ما أوصى العرب السبعة والعشرين بتعليم إخوانهم القرآن وتفقيههم في الدين[17].

ومهما ذكرنا من أسباب وحشدنا من دلائل مادية فإن السبب الوحيد الذي أدى إلى انتشار العربية سواء بالمغرب العربي أم بمشرقه أم في جهات أخرى قصوى أو دنيا من آسية وأوروبية الإسلاميتين، هو الإسلام ليس غير، ولذا فإني لا أعد كل سبب مادي سوى الإسلام إلا عاملاً مساعداً كان تابعاً دائماً للانتشار الديني، فخذ لك مثالا من مصر حيث "كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي واللغة التركية في العهد العثماني لغة البلاد الرسمية، ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصري، فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافي لم يذهب للريف إلا قليلا، فلم تنتشر اللغة اليونانية إلا في بيئات خاصة، وعاش اليونانيون في مصر كأنهم جزر يونانية في وسط المحيط المصري الواسع،

وكذلك عاش الأتراك في بيئات خاصة في مصرولم يستطيعوا جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية بالرغم من أن الحكم التركي دام عدة قرون، ولكن حدث في عهد العرب تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصري القديم لغته رغم تمسكه بالقديم والحرص عليه"[18]، وإن كنا لا نتفق مع من يقول بأن التفاعل المصري العربي هو الذي يفسر لنا في النهاية الحائرة سبب إقبال المصريين على اللغة العربية، لأنها تعترف بنفس التفاعل والذي كان أسمى حضارة مع اليونانيين ومع ذلك لم يترك الفلاح المصري لغته القبطية ليقبل على اللغة اليونانية، والصواب عندنا أن الذي جعل المغربي والآسيوي والأوروبي والإفريقي يقبل على العربية هو نفس الحافز الذي جعل الفلاح المصري يقبل عن طواعية على العربية، لأن الإسلام لا يمنع أي امرئ حين يهجر لغته أن يظل متمسكا بعاداته ومثله التي لا تتنافى مع الدين.

وتستطيع أن تأخذ مثالا حيا آخر من بلد المليون ونصف مليون شهيد، فالرومان استعمروا هذا الوطن بعد الإغريق خمسة قرون، ثم جاء بعدهم الوندال، ثم البيزنطيون مرة أخرى، ثم الفرنسيون في العصر الحديث، ومع ذلك فإن الشعب المغربي قاطبة لم يقبل على إحدى لغات هذه الشعوب، في حين أقبل على العربية في لمح البصر، فما السبب؟ ...

ولهذا فإن حفاظ العرب المسلمين اليوم على لغة دينهم يجب أن تكون فوق كل اعتبار مهما كان الثمن، لأنه حفاظ على إرادة أجدادنا الأوائل الخالدة ووفاء لا جدال فيه لأرواحهم ولشهدائنا البررة، وأن كل تفريط في هذا يعد خيانة لا مقياس لها في الإدانة.

وإذا أردت أن تأخذ طابعاً عاما عن الفتوحات الإسلامية وما صحبها من انتشار العربية أو قرآنها وحديثها على الأقل، فيكفيك أن تعلم أن عدد المسلمين في العالم قد بلغ في نهاية 1964 (وهو إحصاء قديم طبعا) حوالي: 634.300.000[19] مع العلم بأن ما بعد العصر الوسيط حتى ما قبل النهضة الحديثة كان عصرا مظلما بالنسبة لخدمة الإسلام والتبشير به،وفوق هذا وذاك كان الاستعمار الغربي المسيحي يعمل على تشويهه ومحاربته لأنه دين الحرية والمساواة ودين الألفة والرحمة والتآلف والتراحم بين الشعوب بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأديان والطبقات الاجتماعية. وهو منهج في الحياة يتعارض مع مصالح ومناهج الاستعماروجشعه المادي وغرامه الاستعبادي للشعوب.

ولعلنا نكون قد استيقنا أن عوامل انتشار العربية مهما تعددت وتفاوتت قوة وضعفاً، فإنه لا يمكن فصلها عن عوامل انتشار الإسلام نفسه، وأبرز تلك العوامل، علاوة على ما ذكر تصريحاً أو تلميحاً، أن الدين الإسلامي بطبيعة قواعده الميسرة يدعو إلى التوحيد الجنسي تحت راية واحدة، فمن أجل المساجد وصلوات الجمع ومشاركة المفتوحين من الأجناس غير العربية مع الفاتحين العرب منذ الوهلة الأولى، ومن أجل التفاعل الجنسي والتصاهر، وسرعة انتشار الفتوحات سرعة أدهشت ولا تزال تدهش إلى وقتنا هذا المؤرخين،... فمن أجل هذه العوامل كذلك انتشرت العربية انتشارا واسعا وسريعاً، هذا فضلا عن عوامل أخرى اجتماعية ولغوية بحتة، كالتجانس اللغوي السابق وجوداً بين بعض اللهجات المفتوحة والعربية، وفضلا، كما ألمحنا سابقاً، عن حوافز نفسية إرادية صرف كإقبال المسلمين وحتى غير المسلمين الجدد دينا أو تعاشراً وتعاملا على العربية إقبال راغب لا إقبال راهب.

تأثير العربية في غيرها من اللغات:

لم تقف العربية أمام الحضارات الإنسانية الكبرى مثل الحضارة المصرية والرومانية والفارسية واليونانية حائرة ولا عاجزة بأن تولي الأدبار، بل اقتحمت هذه الحضارات كلها، بعد أن صَفَّتْ حسابها مع اللهجات المحلية، من أبوابها الواسعة بكل ثقة وقوة فاستوعبتها ترجمة وتعبيراً وتطويراً ثم تبليغاً للحاضر والغائب، فأصبحت العربية بذلك اللغة القديمة الوحيدة التي عول عليها الأوروبيون إثر نهضتهم الحديثة، التي كانت السبب المباشر في تطويرهم فكريا وتكنولوجيا بل وحتى فنيا وأدبيا وفلسفياً[20] بواسطة أعلامها الأفذاذ من أطباء وفلاسفة وأدباء وغيرهم من الاختصاصيين.

والألفاظ العربية التي دخلت لغات أوروبية عديدة، وكان لها الفضل العظيم لأن يدل بها الأوروبيون وهم ينهضون من رقادهم العميق على مداليل علمية وفنية واجتماعية، وإن كان الغربيون لا ينفكون حتى اليوم يصمون آذانهم، ويغمضون عيونهم أمام كل لفظ عربي غزا لغاتهم غزواً لم يجدوا منه أو من قبوله بداً. فالعرب كانوا أكثر نزاهة من لغويهم ولسانهم، فمنذ الوهلة الأولى تساءلوا حول وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم نفسه أم لا، وذهبوا في ذلك فريقين، لأن ألفاظا أعجمية كانت دخلت العربية قبل نزول القرآن، فلما جاء جاءت فيه كما كانت في العربية لأنها لم تعد أجنبية ولا غريبة عنهم وهم عبَّروا بها وقد استعملوها في أشعارهم وآدابهم وأحاديثهم، كما خصوا الألفاظ الدخيلة كلها بأبحاث علمية رائدة فيما يسمى اليوم بعلم اللغة المقارن، ولربما خصوها بأبحاث مستقلة كـ"المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم" لأبي منصور الجواليقي (540 هـ)، وهذه النزاهة في البحث العلمي والبعيدة عن العرقية والمثالية هي التي كانت سببا أكبر في تقدم الدراسات العلمية وخلودها عند العرب[21].

تقول زيغريد هونكه الألمانية: "أجل، إن في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإنا لندين -والتاريخ شاهد على ذلك- في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب، وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوما من الأيام قاتما كالحا باهتا، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، طيبته بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة..."[22].

ومن الكلمات التي انتشرت في مختلف اللغات الأوروبية:

العربية	الفرنسية	الانجليزية	الروسية	اليونانية
الانبيق	Alambic	Alembic		
البرقوق	Abricot	Apricet	Aprices	
الجبر	Algébre	Algebra		
الخوارزمي	Algorithme	Algerithm		
الزجاج	Zagaie	Assegai		
القلي	Alcali	Alceli	Alcati	
الكحل	Alcool	Alcehel	Alcagel	
الكيمياء	Chimie	Alchemuy	Alhimia	
تعريف	Zarif	Zariff	Zarifa	Zarifa
أمير البحر	Animal	Adminal	Adminal	Adminal
دار الصناعة	Arsenal	Arsenal	Arsenal	

سكر	فـــي كـــل اللغـــات الأوروبيـــة			
شراب	Sirop	Sirop	Sirep	Sirep
	وهـو في الأرمنيــة		Charab	
شرق	Sirere	Sirece	Sirece	Sirece
صفر	Chiffre	Chiffre	Chiffre	
صفر	Zére	Zéro		
مخزن	Magasin	Magasin	Magasin	Magasin
مطرح	Matelas	Matelas	Metals	
يربوع	Gerboise	Gerbose		

....

..................................إلخ.

ومع انتشار العربية وتوسع الفتوحات الإسلامية في القارات انتشر كذلك الخط العربي الذي يعد أكثر قدرة على كتابة الأصوات التي هي من جنسه، وأيسر وأسرع تعلما على إجادة وممارسة أية قاعدة إملائية، فبصوائته الثلاثة الطويلة يستطيع استيعاب أية لغة أجنبية مع تطعيمه بما لا يوجد فيه من رموز دالة على بعض أصوات تلك اللغة الأجنبية، حتى إن دولا إسلامية كثيفة بقيت محتفظة بلغاتها وبعض لهجاتها بعد ما أضافت إليها غير قليل من الألفاظ العربية، ولكنها اتخذت الخط العربي خطا رسميا للغاتها ولهجاتها، وصار يكتب بالخط العربي حوالي سبع وثلاثين لغة ولهجة.

ومما يجب الإشارة إليه أن انتشار العربية وبتوسع الفتوحات الإسلامية كان له أثران: أحدهما سلبي ولكنه طبيعي في سلبيته، وآخرهما إيجابي، ولكنه عظيم في إيجابيته.

فالأثر السلبي يتجلى في فساد الملكة اللغوية العربية بعد الاختلاط العربي الأعجمي واستفحال العلاقات اللغوية الاجتماعية، فتسرب بذلك اللحن والفساد إلى اللغة العربية حتى كاد يصبح خطراً عليها وعلى العرب أنفسهم لولا إخماده في مهده ومقاومته في حينه، زيادة على انقسام الفصحى إلى هذه اللهجات العامية في الوطن العربي بعدما حرفت على ألسن العوام في محاصيلها النحوية والصرفية والصوتية ولكنها لم تبعد عنها –وهذا من حسن حظ العربية والعرب- في محاصيلها الدلالية ما عدا ما قد اعتراها من ألفاظ أجنبية دخيلة لم تعرب بعد، لأن في فصحانا ما يوجد بديلا لها.

وأما الأثر الايجابي العظيم فهو تشمير العلماء العرب والمسلمين الغيورين على لغة دينهم، على سواعدهم، وسعيهم سعيا مشكوراً في إقامة قواعد نحوية وصرفية ثم بلاغية لها، وتوسيع الدراسات فيها وتنويعها وتطويرها، فكان لهذا الجهد مظهر علمي أصيل سيظل العرب والمسلمون يذكرونه لهم أبد الدهر، فوضعت المؤلفات، وصيغت القواعد إحصاء وإحكاما، ونشطت الدراسات العلمية فيها إلى جانب الدراسات الفقهية والتفسيرية والتاريخية والعلمية البحتة.

ولعلنا حين نجد الإسلام يتقدَّم كل هذه العوامل مجتمعة، فذلك لأنه كان المحرك الأول، والمنشط الدءوب لكل ما جد أو تطور في كل الحقول

العلمية والإنسانية على ساحة الإمبراطورية العربية الإسلامية من المحيط إلى آسيا القصوى، ثم ما لبث كل هذا أن نعمت به أمم وشعوب حديثة في الشرق والغرب باعتبار الإسلام قبل كل شيء شمسا ما طلعت إلا لتشرق على الجميع، وإلى أن يحدث الله أمراً كان مفعولاً.

إحالات ومراجع

1 - من الساميين إلى العرب، ص: 9، الشيخ نسيب وهيبة الخازن، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط: 1962.

2 - نفسه، ص: 11.

3 - هذا لا يعني أنني أميل أغْلَبَ الميْلِ إلى الرأي القائل بأن إفريقية هي الموطن الأول للساميين، والأرجح عندنا، بناء على بحث مخطوط لدينا منذ أواسط السبعينيات من القرن الماضي، أن الشعب السامي كان ما بين إفريقية وآسية جميعاً.

4 - طبقات فحول الشعراء، ق1/ ص: 24 – 25، محمد بن سلام الجمحيّ، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

5 - نفسه، ص : 25.

6 - نفسه، ص: 26.

7 - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص: 68-67. أحمد بن فارس، تح: د. مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، ط: 1963.

8 - ينظر المرجع السابق، ص: 89 – 93.

9 - نفسه، ص: 78 – 81.

10 - تاريخ الحضارة الإسلامية، ص: 63 بارتولد، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، مصر، ط: 4/1966.

11 - ينظر: مصر في عصر الولاة، ص" 119 – 120، دة: سيدة إسماعيل ، مطابع دار القلم، القاهرة.

12 - نفسه، ص: 141.

13 - تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 58. الرقيق القيرواني، تح: المنجي الكعبي، الناشر: رفيق السقطي، شارع فرنسا، تونس، ط: 1968.

14 - والغريب أنّ طارقاً البربري الأصل فتح الأندلس بالعدد نفسه قبل أن يلتحق به موسى بن نصير بمدد آخر.

15 - عدد الفاتحين كان كله مسلماً.

16 - تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 64.

17 - يراجع المصدر السابق، ص: 69 – 70.

18 - مصر في عصر الولاة، ص: 141.

19 - المسلمون، المجلد التاسع، العدد الرابع، ص:45 – 49.

20 - راجع: شمس العرب تسطع على الغرب (الكتاب السابع: الفصلان الخامس والسادس) زيغريد هونكه، دار المعارف، مصر، ط: 4 /1966.

21 - يوجد دارسون غربيون موضوعيون يشيرون إلى ألفاظ عربية غير قليلة ولجت لغاتهم بطرق احتكاكية مباشرة، وبطرق غير مباشرة.

22 - شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 20.

العلّة في النّحو العربي
"المفهوم والمصطلح" - نماذج من كتاب سيبويه-

أ. رقيق كمال (ج.بشار)

الملخص:

تعدّ العلّة النّحوية من أهم أركان القياس ، ذلك لأنها تمثل الصّلة بين المقيس و المقيس عليه، وهي الوساطة التي ينتقل من خلالها الحكم من المقيس عليه إلى المقيس ، لذا نجد النّحويين عموماً يتّسمون بعقلية تعليلية لا تقتنع بظاهر الأمور بل تبحث عمّا وراءها،ففي هذا البحث سوف أتطرق للعلّة في النّحو العربي ماهيتها ،و مفهومها، وأنواعها، مركزا على أحد أهم أسفار العربية ألا وهو الكتاب لسيبويه.

العلّةُ في اللّغة تدُل على عدد من المعاني [1] ، وأحدها : السبب ، وهو ما يهمنا هنا ، فالعلّة هي السبب وعلة الشيء سببه يقال : "هذا علة لهذا أي سبب" [2] ، وقد اعتلّ وهذه علّته أي سببه [3] . ومن هذا المدلول اللّغوي أخذ النحاة هذه اللفظة فأصبحت تعني في اصطلاحهم : " تغيير المعلول عما كان عليه" [4] ،أو "هي الأمر الذي يزعم النحويون أن العرب لاحظته حين اختارت في كلامها وجهاً معيناً من التعبير والصياغة" [5]، أو "هي تفسير الظاهرة اللغوية و النفوذ إلى ما وراءها وشرح الأسباب التي جعلتها

على ما هي عليه" [6] . فالعلّة النّحوية إذا هي السبب الذي أدى إلى الحكم وأوجبه.

والمعروف أنّ النّحو العربي منذ نشأته بني على أصول سار عليها النّحاة، واتبعوها ، وكان القياس أحد هذه الأصول، وإذا ما بحثنا عن معنى القياس وجدنا انه "في وضع الناس بمعنى التقدير وهو مصدر، قايست الشيء بالشيء مقايسةً وقياساً "[7]، أمّا في عرف النّحاة فهو يعني " تقدير الفرع بحكم الأصل، وقيل هو حمل فرع على أصل بعلّة" [8] .

ولابدّ لكل قياس من أربعة أركان يقوم عليها ، قال أبو البركات الأنباري (ت 577 هـ) : "لابد لكل قياس من أربعة أشياء : أصل، وفرع ، وعلّة ، وحكم"[9].فالأصل هو المقيس عليه ، والفرع هو المقيس ،والحكم هو ما ينتقل من المقيس عليه إلى المقيس،والعلّة هي السبب الذي من أجله استحق المقيس حكم المقيس عليه[10].فالنائب عن الفاعل مثلاً استحق الرفع قياساً على الفاعل، فالأصل هو الفاعل والفرع هو النائب عن الفاعل ، والحكم هو الرفع ، والعلّة الجامعة هي الإسناد[11] .

وبذلك يتّضح لنا أن العلّة النّحوية فرع من أصل وهو القياس ، وليس أصلاً قائماً بذاته ولكن النّحاة اهتموا بها اهتماماً بالغاً و أعقبوا بها الأحكام النّحوية تفسيراً أو تعزيزاً وأفردوا لها المصنفات والمؤلفات النظرية فعوملت معاملة الأصل ، فأصبحت كأنها أصل من أصول النّحو العربي .

والتعليل نشأ مرافقاً لنشأة الإنسان على الأرض ، فالإنسان يراقب الظواهر فتلفت انتباهه فيقف إزاءها ويسأل عنها باحثاً عن أسبابها

فيكتشف أسرارها فالدين الإسلامي قد أكد التفكر والنظر والتدبر فقد "وجد المفكرون الإسلاميون أن من الطبيعي – وقد حث القرآن على النظر والعلم والمعرفة والتدبير – أن يبحثوا عن أسباب الظواهر وأن لا يكتفوا بملاحظة أشكالها وصورها فحسب"(12) .

فليس غريباً أن يُنسب التعليل إلى علماء العربية الأوائل(13) ، فالعرب قبل شيوع اللّحن كانوا يتكلمون بلغتهم سليقة وطبعاً لا تعليماً وتلقيناً، ولكنهم احتاجوا حينما كثر اللّحن وانتشر إلى استقراء هذه اللّغة وضبط قواعدها (14) . ولمّا وقع اللّحن في القرآن الكريم كان أثره عليهم شديداً فبادروا إلى إعرابه وضبط نقاطه بنقط عند أواخر الكلمات وكان ذلك عمل أبي الأسود الدؤلي(ت 69 هـ) والنّحاة من بعده ، وقد أطالوا مراقبة أواخر الكلمات ، وربما اختلفوا فيها وتجادلوا عندها ، وطول هذه المراقبة هداهم إلى الكشف عن سر من أسرار العربية وهو أن هذه الحركات ترجع إلى علل ، فسموا ما كشفوا (علل الإعراب)(15) .

وهذا يمكننا من القول : "كانت نشأة التعليل إذا استجابةً لظروف وبواعث عربية و إسلامية معاً دون تأثير خارجي غير عربي"(16) . وكذلك فإن نشأة التعليل النّحوي كانت مرافقةً لنشأة النحو متزامنةً معه يقول الدكتور صاحب أبو جناح : "إن عملية بناء النحو ونشأته رافقتها نشأة العلل التي يفسر بها النّحاة الظواهر اللّغوية والنّحوية ويردون بها على تساؤلات الدّارسين للغة ونصوصها والمعنيين بأمرها" (17) .

لكن علل النّحو لم تكن واضحةً في بادئ الأمر كما اتضحت فيما بعد، بيّنةً كما عرفها المتأخرون من النّحاة ، ولكنها كانت تفهم من سياق الكلام وتلتمس من نمط الحديث(18) . وفي تراثنا اللغوي ما يشير إلى وجود مظاهر

هذه العلل النّحوية عند نحاتنا الأوائل الذين كانوا يوجهون بها الكلام، ليستقيم معناه ، دون أن يقصدوا تلك العلل ودون أن يبحثوا عنها، فكتب التراجم والطبقات تنسب إلى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ) أولوية من علّل النّحو[19] ونهج علله [20] وشرحها[21] .

ويطالعنا بعد الحضرمي عيسى بن عمر الثقفي (ت 149 هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء(ت 154هـ) وتروي لنا كتب التراجم اهتمامهما بالتعليل أيضاً ومما يُروى عنهما أنهما كانا يقرآن قوله تعالى : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ: من الآية10) ، بنصب الطير ويختلفان في التعليل ، فقال عيسى : هو على النداء ، كما تقول : يا زيد والحارث لما لم يمكنه : ويا الحارث. وقال أبو عمرو : لو كان على النداء لكان رفعاً ، ولكنه على إضمار (وسخرنا الطير) كقوله على اثر هذا: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾[22](الأنبياء: من الآية81).

والتعليل بعد ذلك عند هؤلاء النّحاة قد اتسم بسمات حدّدت إطارهُ ووضحت معالمهُ يمكن أن نجملها بعدّة نقاط:

1 - التعليل عندهم يتناول قضايا جزئية ومسائل فرعية فهم في تعليلاتهم لا يرتبطون بغير القضية التي يعللونها ولا ينظرون إلى غير الجزئية التي يسوغونها[23].

2 -إن عللهم كانت يسيرةً تساعد على فهم كلام العرب يدور معظمها حول العامل وبعضها يدور حول المعنى الذي توخاه الشاعر[24].

3 -كانت عللهم متوافقة مع القواعد فليس ثمة تناقض بين التعليل وبين ما توصلوا إليه من قواعد بل أكثر من ذلك فإن التعليل ليس إلا تبرير

القواعد وإساغتها ثم شرحها لبواعثها من ناحية،ولأهدافها من ناحية أخرى[25].

4 - قلة عللهم " ويبدو أن السر في ذلك هو أنهم وجهوا جل عنايتهم ومعظم جهودهم ناحية التقعيد للظواهر اللغوية ،أمّا التعليل فلم يقصدوا إليه ومن ثم لم يتوسعوا فيه [26].

فما نكاد نلم بعصر الخليل وتلميذه سيبويه حتى نجد قواعد النّحو قد وضعت وتأصلت وبُنيت عللها فرسخت في الأذهان وقبلها العلماء ،يقول الدكتور عبد الرحمن السيد " فإذا ما وصلنا إلى الخليل وجدنا أن العلّة قد استكملت أسبابها ،وأنّ النّحاة قد اشرفوا على الغاية بها ،وإنها قد وصلت في مراحل النمو إلى درجة النضج ،فقد اتضحت معالمها و أصبحت أداة فعالة للتفرقة بين حالات الكلمة المختلفة، وضروب الأساليب المتباينة "[27] . و خير شاهد على ذلك "كتاب سيبويه" الذي لا تخلو مسألة من مسائله من تعليل وتوجيه .فنراه يكثر التعليلات في كتابه منطلقاً من تأصيله القوي:"وليس شيء يضطرون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجها"[28] .

حتى قال عنه الدكتور شوقي ضيف: "لا يعلل فقط لما كثر في ألسنتهم واستُنبطت على أساسه القواعد ،بل يعلل أيضاً لما يخرج عن تلك القواعد ،وكأنما لا يوجد أسلوب ولا توجد قاعدة بدون علّة "[29] .وقد اتسمت علل الخليل وسيبويه بعدّة سمات نحاول في هذه العجالة أن نورد بعضها على ما يأتي :

1 - إنها علل تعليمية ،إذ التقى الخليل مع من سبقه من النحاة في الغاية من التعليل وهي فهم كلام العرب [30] .

2 -اتسمت عللهما بالشمول فأصبحت تتناول كل جزئيات البحث النحوي فلا نكاد نجد جزئية من جزئياته دون تعليل[31].

3 -إنّ عللهما كانت متينة محكمة مدعومة بالقياس وموضّحة بالأمثلة[32].

وقد أثار توسيع الخليل لنطاق العلّة الاهتمام بها،فازدادت العناية بها من ذلك الحين ،وأخذت تشغل من عقول النّحاة حيزاً كبيراً فجاء بعد الخليل وسيبويه نحاة كوفيون وبصريون اعتمدوا التعليل كثيرا،منهم الفـرّاء (ت 207هـ) الذي عُني بالتعليل ولم تكن علله تخلو من الطابع الفلسفي وإن لجأ في بعضها إلى السهولة والوضوح [33]." وكان المبرّد(ت 285 هـ) ومن عاصره من نحاة القرن الثالث الهجري يعتبرون العلّة رديف الحكم النّحوي لا تفارقه ولا ينبغي لها في اعتقادهم أن تفارقه" [34]. فكان المبرّد شديد الاهتمام بالتعليل حتى كانت المطالبة بالتعليل هي السلاح الذي شهر في مناقشاته مع الزجّاج(ت 311 هـ) ومن معه في حلقة أستاذه ثعلب ،وهو في خلافه مع سيبويه في كثير من المسائل لم يكن خلافه فيها كلها حول الحكم النّحوي إنما كان في كثير منها حول علّة ذلك الحكم ،ووافقه في بعضها في الحكم وخالف في علته [35]. غير أن الفرّاء والمبرّد وان تكلما في العلّة فإنهما لم يفرداها بالبحث إنما جاء حديثهما عنها في مؤلفاتهما العامة .أمّا الذين افردوا العلة بالتأليف والبحث فقد كان أولهم قطرب(ت 206 هـ) فقد ورد في ترجمته أنه ألف كتاباً اسمه "العلل في النحو" [36]. وجاء المازني(ت249هـ) فألف كتاب "علل النحو " [37].واستمر التأليف في العلّة فكثرت فيها المؤلفات والمصنفات منها ما وصل إلينا ومنها ما لم يصل[38] .

واتسعت بعد ذلك البحوث النظرية في العلّة النّحوية فبحث النّحاة أنواعها فقسمها ابن السراج(ت 316 هـ) على ضربين :أحدهما علّة تطرد على كلام العرب وتنساق إلى قانون لغتهم .والآخر :علّة العلّة، وهذا ليس يكسبنا أن نتكلم كما تكلمت العرب وإنما يستخرج به حكمتها[39]. وقسمها الزجاجي(ت 337 هـ) على ثلاثة أضرب هي : العلّة التعليمية ،والعلّة القياسية ،والعلّة الجدلية النظرية [40]. وجعلها ابن مضاء(ت 592 هـ) على ثلاثة أضرب أيضاً : علل أُول ،وعلل ثوان ،وعلل ثوالث[41]. وكما تناول النّحاة أنواعها، بيّنوا شروطها وصفاتها وما تثبت به وتصحّ[42]. وذكروا مسالكها وهي طرق أخذها [43] . وفصلوا القول في قوادحها أي كيفية الطعن بها ونقضها[44] .

وكانت هذه البحوث المفصلة المتشابكة التي أدخلها النّحاة وأداروها في العلّة أدت إلى تشعب البحث النّحوي وتعقد دراسته تعقداً لا فائدة منه لمن يتعلم اللّغة العربية أولمن يتكلم بها حتى انتهى الأمرإلى أن ذهب بعض النّحاة إلى مذاهب غربية في افتعال العلل لكل ظاهرة واشتطوا في بحوثهم حتى غدت هذه البحوث وكأنها بحوث في المنطق اتخذت من العبارات النّحوية شواهد لها [45] .

وبسبب من هذا جميعه تعرضت العلل النحوية إلى الطعن فيها، وكانت اشد الحملات عليها على يد أحد النحاة وهوابن مضاء الذي دعا إلى نفي جميع العلل ما عدا اليسيرة التي تعين على فهم كلام العرب وأن يقال بدلاًمن التماس العلل البعيدة :هكذا نطقت العرب [46]. وجاء أبو حيان النحوي (ت 745 هـ) فوقف موقف ابن مضاء في إلغاء العلل ونفرمن التعليلات وأطرحها ونادى بترك ما لا فائدة فيه منها وما لا يكسبنا علماً باللغة أو النحو لأن هذين العلمين ليسا بحاجة إلى التعليل ،والتعليل عنده لا يكون إلا بعد تقررالسماع[47] .

ووقف قسم من النّحاة على العكس من ذلك فدافعوا عن العلل وردوا على من طعن فيها،منهم ابن جني (ت 392هـ) الذي سما بهذه العلل في قوتها وصدقها وبراءتها من العيوب وقربها من الإفهام وأبعدها عن الغموض والإبهام .فعقد باباً " في الرد على من اعتقد فساد علل النّحويين لضعفهِ هو في نفسه عن أحكام العلّة" فقد نقل حجة هؤلاء ورد عليهم مبيناً أن طعنهم في العلّة وقولهم بفسادها هوس،ولغو،وجهل [48] . وجاء ابن خروف (ت 609هـ) فوقف مع العلّة وردّ ابن مضاء في وقوفهِ ضد العلل ، إذ قال أبو حيان بعد كلامه على ابن مضاء : " وقد امتعض من طعنهِ على النّحاة وازدرائه عليهم الإمام أبو الحسن بن خروف ، وردّ على ابن مضاء في كتاب سماه : كتاب الزهو في الرد على من نسب السهو إلى أئمة النحو ، وهو كتاب لطيف " [49].

وسار على هذا الركب السيوطي (ت 911 هـ) فكان يميل إلى العلّة إذ نقل من الآراء ما يؤيد وقوفه مع العلّة، فهو يقول:" قال صاحب المستوفى إذا استقريت أصول هذه الصناعة ، علمت أنها في غاية الوثاقة ، وإذا تأملت عللها عرفت أنها غير مدخولة ولا متسمح فيها. وأمّا ما ذهب إليه غَفَلَة العوام من أن علل النحو تكون واهية متمحلة، واستدلالهم على ذلك بأنها أبداً تكون هي تابعة للوجود لا الوجود تابعاً لها بمعزل عن الحق." [50].

وكما انقسم القدماء تجاه العلل على قسمين : معارض ، ومؤيد انقسم المحدثون كذلك فكان بعضهم معارضاً مناديًا إلى طرحها من النحو ، وكان بعضهم الآخر مقتنعاً بها غير معارض لها ، لأنها من أصول العربية. فالدكتور شوقي ضيف يرى أن أكثر العلل تخرج عن الغاية من النحو، وهي صحة النطق عند المتكلم ، إلى ما يمكن أن نسميه فلسفة العلل

النحوية وهي فلسفة في جمهورها غير عملية . وليس وراءها طائل نحوي. والنحو ينبغي أن ييسر على الناشئة وأن تخرج هذه العلل المعقدة[51]. أمّا الأستاذ عباس حسن ، فإنه يتابع "ابن سنان الخفاجي" ، في قوله بوجوب إطراح العلل لأنها لا تثبت إذا سلط عليها النظر إلاّ الفذ الفرد ، بل لا يثبت منه شيء البتة[52].

ويرى الدكتور مازن المبارك أن العلّة ليست أمراً لازماً لنا دوماً ، بل علينا أن نكتفي منها بما يحقق غاية النحو من تعليم وضبط للغة وأن نترك الإلحاح في السؤال عنها[53] . أمّا الدكتور عبد الرحمن السيد فهو يرى:" إن طريق هذه العلل كان– من غير شك– طريق الظن والحدس ، ولم يكن طريق العلم واليقين، وان النفس– وإن كانت تطمئن إلى بعض هذه العلل وتجد فيها غناء– لا تستريح إلى بعضها الآخر وتجد فيها عناء وان بعض هذه العلل وإن ساغت وقبلت،فبعضها الآخر لا يساغ ولا يقبل، فقد تكلف النحاة في بعضها وفلسفوها وظهر فيها النهج المنطقي والافتراض العقلي ، فأصبحت مرذولة مستكرهة "[54].

ووقف القسم الآخر من المحدثين مع العلّة ، فالدكتور احمد عبد الستار الجواري يرى أن البحث عن العلل لا ينكر،إذا وعى الدّارس ما يدرس ،بل ليس من مصلحة البحث العلمي أن يُهمل ويُترك وإنما تقتضي أصول البحث بتشجيعه ليكون سببًا إلى ربط مادة البحث[55] ورفض الدكتور عبد الرحمن أيوب العلل المنطقية،لكنه لا ينكر إمكان ارتباط ظاهرة لغوية بظاهرة لغوية أخرى في الوجود والعدم،ولا بأس عنده من تسمية مثل ذلك تعليلا [56].

و لقد اهتم النحاة بالعلة اهتماماً بالغاً فتناولوا طريقة بحث العلّة وتعريفها وتقسيماتها ، فقسموها إلى أنواع مختلفة غير أن تصنيفها

في جدول خاص أمر يصعب حصوله فلم ينعقد إجماع النّحاة على أن هذه العلل نهائية العدد وإنما قال النّحاة ما قالوه على سبيل التقريب.

ويمكن أن نعدّ كتاب التصريف لأبي "عثمان المازني" أول كتاب تعرض لأنواع العلل فقد ذكر فيه أنواعا من العلل منها : "علة الاستثقال، وعلة الاستخفاف ،وعلة الالتباس ، والقرب ، والبعد من الطرف ،والبقاء على الأصل في الواحد والجمع ، والقلة والكثرة في المسموع والمستعمل ، واجتماع المثلين والمتقاربين، والحركة والسكون والاستغناء بالشيء عن الشيء، والأخذ بالنظير ، والكل أشد تأثيرا من الجزء ،وعكس التقدير ، وحمل الأصل على الفرع ...."[57].

أمّا التعليل عند "سيبويه" فقام على أنواع مختلفة من العلل النحوية وهي كثيرة جدا منها: "إيثار الخفة ، وكثرة الاستعمال ، و المعنى، والعوض، وطول الكلام ، والالتباس ، والاستغناء وغيرها" [58].

والملاحظ أن جميع هذه العلل التي وردت في الكتاب تكاد تكون من النوع الأول المؤدي إلى تعلم كلام العرب الذي وجده "الدينوري الجليس" أكثر استعمالا وأشد تداولا وهو عنده على أربعة وعشرين ضرباً إلاّ أننا وجدناه على أكثر من ذلك ووجدنا فيه عللاً لم يذكرها "الدينوري" ولا غيره .

وقد قام بعض الباحثين بالإشارة لبعض الوسائل التعليلية في الكتاب كما نلحظ ذلك عند الأستاذ عبد السلام محمد هارون [59]. وكذلك أشارت الدكتورة "خديجة الحديثي" إلى أنواع العلل التي وردت في الكتاب وخاصة العلل التي كثر دورانها فيه ومثلت لها وهي : " كثرة الاستعمال، والاستخفاف ، والاستثقال ، والقبح وخوف الالتباس، والتمكن ،

والأصل والاستغناء والإعلام بالأصل ، والمشابهة، و المخالفة، والفرق والإجحاف والعوض ، والتوكيد" ، واكتفت بالإشارة إلى مواضع العلل الأخرى في الكتاب وهي كثيرة جداً وأغلبها يخص موضوعات الصّرف(60).

وقام باحث معاصر(61) أيضا بدراسة الوسائل التعليلية لمسائل النحو في الكتاب وجعلها تحت خمسة أصناف هي العلل الاستعمالية، ويقصد بها التي تعلل الاستعمال من مثل : "الثقل والخفة ، وكثرة الاستعمال ، والاستغناء . والعلل التحويلية وهي التي تنطلق من فكرة الأصل فيتم التعليل بها بافتراض خطوات لغوية تحويلية . منها : التمكن و الأصل، والعوض، والقوة "،والعلل التي تتأرجح بين الاستعمالية والتحويلية وهي : الحذف، وطول الكلام ،والعلل القياسية : ويقصد بها التي كان يعلل بها سيبويه بملاحظة المشابهة وهي : الشبه ، والحمل ، والتوهم، والمجاورة ، والاستئناس .

و العلل الدلالية : ويقصد بها التي كان يعلل بها سيبويه بالرجوع إلى المعنى وهي: أمن اللبس ، وخوف اللبس والمعنى ،والفرق وعلم المخاطب ، والإبهام ، والتوكيد .

وبعد قيامنا باستخراج العلل النحوية من كتاب سيبويه واستقرائها وجدنا أن أكثرها تداولا وأشهرها استعمالا ما يأتي:

1 - **علّة الاستغناء:** وهي علة كثيرة الاستعمال عند العرب تنسب إليهم أنهم قد استغنوا بشيء عن شيء قال السيوطي عن الاستغناء : " هو باب واسع فكثيرا ما استغنت العرب عن لفظ بلفظ ومن ذلك استغنائهم عن تثنية سواء بتثنية سيّ فقالوا سيّان ولم يقولوا : سواءان. وتثنية ضبع الذي هو اسم المؤنث عن تثنية ضبعان الذي هو اسم لمذكر فقالوا:

ضبعان ولم يقولوا : ضبعانان "[62]، وعقد ابن جني في الخصائص باباً في الاستغناء بالشيء عن الشيء[63] ، وقال أبو حيان : " العرب تستغني ببعض الألفاظ عن بعض، ألا ترى استغناءهم بـ(ترك) و(تارك) عن(وذر) و(واذر) ، وبقولهم : رجل آلي عن أعجز ، وامرأة عجزاء عن ألياء في أشهر اللغات "[64].

والاستغناء من العلل التي وردت كثيرا في كتاب سيبويه[65]. ويستخدمها لتعليل استعمال ما من استعمالات العرب دون غيره فهي عنده لا تقوم على الافتراض والتخيل وإنما تتجه مباشرة إلى الاستعمال ولذلك فإنها علة لغوية أصيلة ، إذ قال سيبويه : "ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا ... فإنهم يقولون : يدع ولا يقولون : ودع ، استغنوا عنها بترك"[66].

ومن أمثلتها عند سيبويه تعليله بعدم العدول عن الضمير المتصل إلى المنفصل إذا أمكن الإتيان بالمتصل إذ يقول :" فأنا وأنت ونحن وأنتما وأنتم وأنتن ، وهو وهي وهما وهن ، لا يقع شيء منهن في موضع شيء من العلامات مما ذكرنا ، ولا في موضع المضمر الذي لا علامة له ، لأنهم استغنوا بهذا فاسقطوا ذلك".[67]، وقوله :" واعلم أنهم لم يستعملوا عسى فعلك استغنوا بأن تفعل عن ذلك كما استغنى أكثر العرب بعسى عن أن يقولوا : عسيا وعسوا ، وبلو أنه ذاهب عن لو ذهابه ، ومع هذا أنهم لم يستعملوا المصدر في هذا الباب كما لم يستعملوا الاسم الذي في موضعه يفعل في عسى وكاد ، فترك هذا لأن من كلامهم الاستغناء بالشيء عن الشيء"[68] ، وقد تأتي عند سيبويه في بعض الأحيان بلفظ(الاكتفاء) كقوله:" وإنما قالت العرب : قال قومك ، وقال أبواك ، لأنهم اكتفوا بما أظهروا عن أن يقولوا : قالا أبواك ، وقالوا قومك ، فحذفوا ذلك اكتفاء بما أظهروا".[69]

2 - **علّة إعلام أو تبين :** وهي علّة توضح أو تبين لحاق بعض المفردات أو الحروف في الكلام وما لحاق هذه الأشياء إلاّ إعلام وإيضاح لأمر من الأمور، فمن ذلك أن ضمائر الرفع المنفصلة قد يقعن فصلا وعلة وقوعهن فصلا عند الخليل وسيبويه هي إعلاما للمخاطب المحدث بأن الاسم قد تم ولم يبق منه نعت ولا بدل ولا شيء من تمامه وأن الذي بقى من الكلام هو الخبر إذ قال سيبويه :" اعلم إنهن لا يكنّ فصلا إلاّ في الفعل ، ولا يكنّ كذلك إلا في كل فعل الاسم بعده بمنزلته في حال الابتداء ، واحتياجه إلى ما بعده كاحتياجه إليه في الابتداء ، فجاز هذا في هذه الأفعال التي الأسماء بعدها بمنزلتها في الابتداء ، إعلاما بأنه قد فصل الاسم ، وأنه فيما ينتظر المحدث ويتوقعه منه ، مما لابد له أن يذكره للمحدث".(70)

3 - **علّة الالتباس:** وهي علة كثيرا ما تأتي عند سيبويه تفسيرا لالتزام العرب استعمالا ما من استعمالات اللغة مختلفا عمّا ينبغي أن يكون عليه هذا الاستعمال تجنبا للالتباس الذي قد يحصل بين الاستعمالين، فالتزام العرب هذا الاستعمال المختلف هو لإزالة ذلك اللبس قال السيوطي : " اللبس محذور ، ومن ثم وضع له ما يزيله إذا خيف واستغني عنه لحاق نحوه إذ امن "(71) ، وقد استعمل سيبويه مصطلح اللّبس للدلالة على الغموض الناشئ عن وجود لفظ يحتمل أكثر من معنى أو تركيب يؤدي إلى تعدد المعنى وغموضه وبهذه الدلالة شاع هذا المصطلح عند باقي النحاة(72) .ومن أمثلتها قول سيبويه :" وسألته لم لم يجز والله تفعل يريدون بها معنى ستفعل ؟ فقال من قبل إنهم وضعوا تفعل هاهنا محذوفة منها لا، وإنما تجئ في معنى لا أفعل ، فكرهوا أن تلتبس إحداهما بالأخرى . قلت فلم ألزمت النون آخر الكلمة ؟ فقال : لكي لا يشبه قوله :

أنه ليفعل ، لأن الرجل إذا قال هذا فإنما يخبر بفعل واقع فيه الفاعل ، كما ألزموا اللام: إن كان ليقول ، مخافة أن يلتبس بما كان يقول ذاك، لأن (أن) تكون بمنزلة (ما)"[73]، فنجد في هذا النص تتابع التعليل بعلة الالتباس، فالعرب تجتنب استعمال (والله تفعل) للمستقبل مخافة أن تلتبس باستعمالهم هذا التركيب للنفي لأنه قد يأتي محذوفا منه (لا) مقصودا به النفي ، وكذلك ألزموا فعل القسم النون مخافة أن يلتبس هذا الفعل بالفعل الواقع في أسلوب الخبر نحو : إنه ليفعل ، وهذه العلة تشبه علة دخول الكلام الفارقة على خبر إن المخففة من الثقيلة المكسورة كي لا تلتبس (إن) المؤكدة بـ(إن) النافية التي بمعنى (ما) إذ قال سيبويه : " واعلم أنهم يقولون : إن زيد لذاهب، وإن عمرو لخير منك ، لما خففتها جعلتها بمنزلة لكن حين خففتها ، وألزمها اللام لئلا تلتبس بـ(إن) التي هي بمنزلة (ما) التي تنفي بها" [74].

4 - علّة التخفيف : وهي علة تتصل بطبائع العرب في القول إذ كانوا يميلون إلى اختيار الأخف إذا لم يكن ذلك مخلا بكلامهم [75].فهم يفضلون ما خفّ من الكلام ويستحبونه ويستثقلون الثقيل ويتجنبونه اقتصاداً بالجهد المبذول فلذلك" من الممكن أن نربط بين هذه العلة وما يسميه علم اللغة الحديث بقانون الاقتصاد اللغوي ويعني به أن المتكلم يحاول أن يوصل ما في ذهنه من أفكار ، أو ما في نفسه من إحساسات مع أقل جهد عضلي مبذول وقد عبّر عنه القدماء بالاستخفاف، لأن المصطلحات العلمية تختلف باختلاف الأزمنة" [76]، وعلة التخفيف من العلل التي كان يعلل بها سيبويه ، فهو يعلل بعض ظواهر اللغة فيصف تصرف العرب حيالها بالخفة أو طلب الخفة [77].

وقد وردت هذه العلة عند سيبويه في مواضع كثيرة وأكثر ما تكون للحذف كما في قوله :" وسألته عن قوله : على كم جذع بيتك مبني ؟ فقال : القياس النصب وهو قول عامّة الناس . فأمّا الذين جرّوا فإنهم أرادوا معنى (من) ولكنهم حذفوها هاهنا تخفيفا على اللسان وصارت على عوضا منها ".[78]

وقال أيضاً :" وزعم الخليل أن قولهم : لاه أبوك ولقيته أمس ؛ إنما هو على : لله أبوك ، ولقيته بالأمس ولكنهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفا على اللسان . وليس كل جار يضمر ، لأن المجرور داخل في الجار فصار عندهم بمنزلة حرفاً واحد فمن ثم قبح ، ولكنهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم لأنهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج " [79].

5 - **علّة التمكّن أو التصرّف :** وهي علة لغوية لأنها تتم من داخل اللغة وفق نظامها ولا تخرج عن ذلك، ومفادها عند سيبويه هو أن هناك بعض الأشياء تفوق غيرها في التصرف أو تمتاز عليها بميزة والسبب هو تمكنها أو تصرفها ، وهي علة من أوائل العلل التي تلقانا في كتاب سيبويه، إذ يقول في " باب مجاري أواخر الكلم من العربية" : " وليس في الأسماء جزم لتمكنها وللحاق التنوين فإذا ذهب التنوين لم يجمعوا على الاسم ذهابه وذهاب الحركة " [80]. وقوله أيضاً : " واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض ، فالأفعال أثقل من الأسماء لأن الأسماء هي الأولى ، وهي أشد تمكنا فمن ثم لم يلحقها الجزم والسكون ، وإنما هي من الأسماء. ألا ترى أن الفعل لابد له من الاسم وإلا لم يكن كلاما ، والاسم قد يستغنى عن الفعل ، تقول: الله إلهنا، وعبد الله أخونا".[81]

ويقابل هذه العلّة علة لغوية أخرى كثيراً ما يعلل بها سيبويه وهي: عدم التمكن أو عدم التصرف. وتقوم عنده على اعتباريين أحدهما العمل والآخر: الأصل والفرع، فما كان غير متصرف أو غير متمكن ما هو إلاّ فرع انحط عن درجة الأصل في قوة العمل.

ومن أمثلتها قول سيبويه : " إلا أنه ليس لك أن تقول: كأن أخوك عبد الله، تريد : كأن عبد الله ، لأنها لا تصّرف تصرف الأفعال ، ولا يضمر فيها المرفوع كما يضمر في كان، فمن ثم فرقوا بينهما كما فرقوا بين ليس وما فلم يجروها مجراها، ولكن قيل هي بمنزلة الأفعال فيما بعدها وليست بأفعال " .[82]، وقد نراه لا يشير إلى عدم التمكن صراحة وإنما يذكره ضمنا كقوله : " وليس في الأفعال المضارعة جر كما أنه ليست الأسماء جزم؛ لان المجرور داخل في المضاف إليه معاقب للتنوين ، وليس ذلك في هذه الأفعال[83].

6 - **علّة التوكيد:** وهي من العلل التي يعتمد التعليل بها على ملاحظة المعنى في إطار السياقات المختلفة عند تقعيد القاعدة [84]، و تأتي عند سيبويه تفسيراً لزيادة بعض الألفاظ أو الحروف في الكلام ، فمن ذلك أن (كأين) تجري مجرى(كم) في الاستفهام " إلاّ أنّ أكثر العرب إنما يتكلمون بها مع (من) قال عز وجل : ﴿وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ﴾ [85] .وإنما ألزمت (من) توكيداً قال سيبويه: " فإنما ألزموها (من) لأنها توكيد ، فجعلت كأنها شيء يتم به الكلام، وصار كالمثل، ومثل ذلك : ولاسيما زيد ، فرب توكيد لازم حتى يصير كأنه من الكلمة ". [86]

7 - **علّة الثقل :** وهي من العلل الكثيرة في كتاب سيبويه ومؤداها أن العرب يستثقلون عبارة، أو حرفاً ،أو حركة وأكثر ما يكون ذلك فيما كثر

دورانه في كلامهم فيفرون منه إلى ما هو أخف عليهم، فالقصد من هذه العلة كالقصد من علة التخفيف لأن مؤداهما واحد وهو طلب الخفة في الكلام إذ ترى الدكتورة خديجة الحديثي أن "هذه العلة هي من حيث النتيجة عين علة التخفيف أو الاستخفاف"[87]، فالعرب يجعلون الممنوع من الصّرف في موضع الجر مفتوحاً لأنهم يستثقلون الكسرة فيه لأنه ضارع الفعل بثقله ، إذ قال سيبويه :" واعلم أن ما ضارع الفعل المضارع من الأسماء في الكلام ووافقه في البناء أجري لفظه مجرى ما يستثقلون ومنعوه ما يكون لما يستخفون وذلك قولك : أبيض وأسود وأحمر وأصفر ، فهذا بناء اذهب وأعلم ، فيكون في موضع الجر مفتوحاً، استثقلوه حين قارب في الكلام ووافق في البناء"[88].

8 - علّة الحمل على المعنى : ويعتمد التعليل بها على المفهوم العام للكلام أي على معناه الذي يفهم منه فلذلك توجب هذه العلة التزام ترتيب ما في تراكيب الكلام كالتقديم أو التأخير حفاظاً على صحة المعنى واستقامته، ومن أمثلتها عند سيبويه قوله: " وكأنهم إنما منعهم أن يستعملوا في كدت و عسيت الأسماء لأن معناها ومعنى غيرها معنى ما تدخله (أن) نحو قولهم : خليق أن يقول ذاك ، وقارب أن لا يفعل ، ألا ترى أنهم يقولون : عسى أن يفعل ، ويضطر الشاعر فيقول : كدت أن ، فلما كان المعنى فيهن ذلك تركوا الأسماء لئلا يكون ما هذا معناه كغيره،وأجروا اللفظ كما أجروه في كنت ، لأنه فعل مثله".[89] ومن أمثلتها أيضا تعليل سيبويه لعدم جواز الاقتصار على أحد مفعولي ظن وأخواتها، إذ يقول : ((وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين هاهنا أنك إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول يقينا كان أو شكاً، و ذكرت الأول لتعلم الذي تضيف إليه ما استقر عندك، من هو ،فإنما

ذكرت ظننت و نحوه لتجعل خبر المفعول الأول يقيناً أو شكاً و لم ترد أن تجعل الأول فيه الشك أو تقيم عليه في اليقين ".[90] .

9 -علّة طول الكلام : وهي علة تؤدي إلى اختيار العرب ما هو أخف في الكلام ليتناسب مع ذلك الطول قال أحد الباحثين [91] : "والتعليل بطول الكلام يعني ان الناطق يخفف الجهد فيستخدم أسلوباً ما من الأساليب أو يفضل حركة تكون أخف من سائر حركات الإعراب كحركة النّصب"، فالمنادي المضاف طال بالمضاف إليه ، والشبيه بالمضاف طال بما بعده، والنكرة غير المقصودة طالت بالتنوين فاختارت العرب لهذه الأقسام من المنادى أخف الحركات وهي الفتحة تناسباً مع طول الكلام . إذ قال سيبويه :" وزعم الخليل – رحمه الله – أنهم نصبوا المضاف نحو :يا عبدا لله ، ويا أخانا ، والنكرة حين قالوا : يا رجلاً صالحاً، حين طال الكلام ، كما نصبوا هو قبلك وهو بعدك " [92].وقال أيضاً:" وقال الخليل – رحمه الله- : إذا أردت النكرة فوصفت أو لم تصف فهذه منصوبة ، لأن التنوين لحقها فطالت ، فجعلت بمنزلة المضاف لما طال نصب ورد إلى الأصل ، كما فعل ذلك بقبل وبعد" [93].

10 - علّة علم المخاطب: وتأتي عند سيبويه لتفسر لنا الاستغناء عن بعض الأشياء في الكلام لأنها معلومة لدى المخاطب فهي إذن " تعتمد على السياق العام في الاستعمال اللغوي وعلى التواصل بين المتكلم والمخاطب" .[94] ، ومن أمثلتها :" واعلم أن (أن) لا تظهر بعد (حتى وكي) كما لا يظهر بعد أمّا الفعل في قولك : أمّا أنت منطلقاً انطلقت ... واكتفوا عن إظهار (أن) بعدهما بعلم المخاطب أن هذين الحرفين لا يضافان إلى فعل وأنهما ليسا مما يعمل في الفعل ، وأن الفعل لا يحسن بعدهما إلا أن يحمل على (أن) فإن هاهنا بمنزلة الفعل في أما وما كان بمنزلة أما لا يظهر

بعده الفعل ، فصار عندهم بدلاً من اللفظ بـ (أن)". [95]،وقد يضيف إليها علة أخرى كالتخفيف مثلا في نحو قوله :" هذا باب يحذف فيه المستثنى تخفيفاً ، وذلك في قولك : (ليس غير) و(ليس إلاّ) كأنه قال: ليس إلاّ ذاك وليس غير ذاك ، ولكنهم حذفوه تخفيفاً واكتفاء بعلم المخاطب".[96]

11 - علّة العوض: وهي علة من العلل التي ذكرها "الدينوري الجليس" والتي تطرد على كلام العرب وشرحها التاج بن مكتوم بقوله:" وعلة تعويض مثل تعويضهم الميم في (اللهم) من حرف النداء" [97]، وتأتي عند سيبويه لتفسير لحاق بعض الحروف أو الكلمات للتراكيب أو العبارات التي يفترض أنها قد حذف منها بعض أجزائها فعوض عنها فهذه العلة " تقوم على افتراض أصل مقدر حذف وعوض عنه" [98].ومن أمثلتها عند سيبويه تعليله للحاق النون بالاسم المثنى نحو : رجلان، ورجلين ، إذ يقول : "وتكون الزيادة الثانية نوناً ، كأنها عوض لما منع من الحركة والتنوين ، وهي النون وحركتها الكسر وذلك في قولك : هما الرجلان، ورأيت الرجلين ، ومررت بالرجلين " [99]، ومن أمثلتها تعليله للحاق (ما) بعد (أن) المصدرية عند حذف (كان) وبقاء اسمها وخبرها في نحو: أمّا أنت منطلقاً انطلقت معك والأصل : إن كنت منطلقا انطلقت معك ، إذ قال سيبويه:" فإنما هي (أن) ضمت إليها (ما) وهي(ما) للتوكيد ولزمت كراهية أن يجحفوا بها لتكون عوضاً من ذهاب الفعل كما كانت الهاء والألف عوضاً في الزنادقة واليماني من الياء ". [100]

12 - علّة الفرق : وردت في مواضع عديدة في كتاب سيبويه ، والتعليل بها ينسب إلى العرب اللجوء إلى استعمال ما بغية التفرقة بين أمرين لو لم يفرقوا بينهما لأدى ذلك إلى التباس ، "وهي علة تتصل بقصد الإبانة إذ يعطى للحكمين المتشابهين مظهران مختلفان توخياً لدقة الدلالة ". [101]

ومثال ذلك ما علله سيبويه في فتح نون جمع المذكر السالم وكسر نون المثنى في نحو : مسلمون ومسلمان ، إذ فتحوا نون جمع المذكر السالم ليفرقوا بينه وبين المثنى قال سيبويه :" وإذا جمعت على حد التثنية ، لحقتها زائدتان قال : الأولى منهما حرف المد واللين ، والثانية نون ، وحال الأولى في السكون وترك التنوين وأنها حرف الإعراب حال الأولى في التثنية، إلا أنها واو مضموم ما قبلها في الرفع ، وفي الجر .والنّصب ياء مكسور ماقبلها ونونها مفتوحة ، فرقوا بينها وبين نون الاثنين كما أن حرف اللين الذي هو حرف الإعراب مختلف فيهما". [102] وقد ترد عند سيبويه في بعض الأحيان بمصطلح (الفصل) كقوله: " واعلم انك إذا ثنيت الواحد لحقته زيادتان : الأولى منهما حرف المد واللين وهو حرف الإعراب غير متحرك ولا منون ، يكون في الرفع ألفاً ، ولم يكن واوا ليفصل بين التثنية والجمع الذي على حد التثنية ، ويكون في الجرياءً مفتوحاً ما قبلها ، ولم يكسر ليفصل بين التثنية والجمع على حد التثنية". [103]، فالمثنى لا يرفع بالواو، ولا يكسر ما قبل يائه في النّصب والجر فصلاً بينه وبين جمع المذكر السالم .

13 - علّة القبح: وردت في مواضع كثيرة في كتاب سيبويه وتقوم على قبح أمر من الأمور في العبارة أو الكلمة فيفرون منها إلى ما يحسن ويستحب [104]، وهي علة تأتي عند صاحب الكتاب لتفسر التزام العرب استعمالاً ما وتركهم الاستعمال الآخر الذي قد يجوز ولكنه قبيح لأنه قد يكون خلاف الأصل ، و مثال ذلك علة نصب تمييز (كم الخبرية) إذا فصل إذ يقول سيبويه : "وإذا فصلت بين كم وبين الاسم بشيء استغنى عليه السكون أو لم يستغن فاحمله على لغة الذين يجعلونها بمنزلة اسم منون ، لأنه قبيح أن يفصل بين الجار والمجرور ؛ لأن المجرور داخل في الجار فصارا كأنهما

كلمة واحدة "(105)، وقد تأتي عنده بلفظ (الكراهية) كقوله :"وسألته – رحمه الله – عن الضاربي فقال هذا اسم ويدخله الجر، وإنما قالوا في الفعل : ضربني ، ويضربني ، كراهية أن يدخلوا الكسرة في هذه الباء كما تدخل الأسماء فمنعوا هذا أن يدخله كما منع الجر". (106)

14 - علّة القرب أو المجاورة: القرب أو المجاورة عند سيبويه والبصريين علة تجعل الشيء يجري على شيء آخر لمجاورته إيّاه حتى وإن كان ذلك خارجاً على القياس " ومما يدل على رعايتهم جانب القرب والمجاورة أنهم قالوا : جحر ضب خرب ، وماء شن بارد فاتبعوا الأوصاف إعراب ما قبلها وإن لم يكن المعنى عليه ألا ترى أن الضب لا يوصف بالخراب والشن لا يوصف بالبرودة وإنما هي من صفات الجحر والماء ". (107)، وقد ترجح هذه العلة عمل عامل دون غيره لقرب جواره للمعمول، مثال ذلك أن سيبويه والبصريين يعملون الفعل الثاني من الفعلين المتنازعين لقرب جواره للاسم يقول سيبويه :" هذا باب الفاعلين والمفعولين اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك وهو قولك : ضربت وضربني زيد وضربني وضربت زيداً ، تحمل الاسم على الفعل الذي يليه ... وإنما كان الذي يليه أولى لقرب جواره وأنه لا ينقض معنى وأن المخاطب قد عرف أن الأول قد وقع بزيد ، كما كان خشنت بصدره وصدر زيد ، وجه الكلام ، حيث كان الجر في الأول ، وكانت الباء أقرب إلى الاسم من الفعل ، ولا تنقص معنى ، سووّا بينهما في الجر كما يستويان في النصب ". (108)

15 - علّة كثرة الاستعمال: وهي علة لغوية تؤدي إلى التغيير ، قال ابن يعيش :" لكثرة الاستعمال أثر في التغيير ، إلا تراهم قالوا : إيش والمراد : أي شيء، وقالوا : لا أدري فغيروا هذه الأشياء عن مقتضاها لضرب من

التخفيف عند كثرة الاستعمال ".[109] ، ويرى الأخفش (ت 215 هـ) أن ما غيرلكثرة استعماله إنما تصورته العرب قبل وضعه وعلمت أنه لابد من استعماله ، فابتدءوا بتغييره ، علماً بأن لابد من كثرة استعماله الداعية إلى تغييره كما قالوا :

رأى الأمريُفضي إلى آخرٍ فيُصيِّرُ آخرهُ أولا[110]

فكثرة الاستعمال علة توجب في اللفظ ما لا توجب في غيره فاللفظ إذا كثر استعماله قد يحذف كله أو بعضه أو يلحق به أو تجوز فيه أشياء مالا تجوز في غيره، قال السخاوي :" هم يغيرون الأكثرويحذفون منه كما فعلوا في : لم ابل ، وربما الحقوا فيه كقولهم : أمهات وكقولهم : اللهم ، ويا أبت ويا أمت . "[111].

وعلة كثرة الاستعمال وردت في كتاب سيبويه في عدة مواضع : ولا تكاد تخلو منها مسألة جزئية من الجزيئات التي تتناول الواقع اللغوي[112] . وتأتي في كثيرمن الأحيان – لتفسرلنا حذف بعض الحروف من الكلمة أو حذف بعض الألفاظ من الكلام وقد أشار الأستاذ عبد السلام محمد هارون إلى كثيرمن المواضع التي حذف فيها لكثرة الاستعمال[113].

ومن أمثلتها عند سيبويه تعليله لحذف الخبر بعد (لولا) إذ قال :" هذا باب من الابتداء يضمر فيه ما يبنى على الابتداء . وذلك في قولك : لولا عبد الله لكان كذا وكذا ... وكان المبني عليه الذي في الإضمار كان في مكان كذا وكذا ، فكأنه قال: لولا عبد الله كان بذلك المكان ولولا القتال كان في زمان كذا وكذا ، ولكن هذا حذف لكثرة استعمالهم إيّاه في الكلام كما حذف الكلام من (أما لا) و زعم الخليل – رحمه الله – أنهم أرادوا أن كنت لا تفعل غيره فافعل كذا وكذا أما لا ، ولكنهم حذفوه لكثرته

في الكلام..."[114]، وقد تأتي كثرة الاستعمال عند سيبويه علة لحذف بعض العوامل كحذف الفعل في التحذير يقول سيبويه :" وحذفوا الفعل من إياك لكثرة استعمالهم إياه في الكلام فصار بدلاً من الفعل ..."[115]، وحذف العامل في المفعول به وجوبا ، وحذف العامل في الحال وجوباً ، وحذف العامل في المنادى[116]، وأكثر علل النداء في الكتاب ترجع إلى كثرة الاستعمال كقول سيبويه :" واعلم أن الترخيم لا يكون إلا في النداء إلا إن يضطر شاعر، وإنما كان ذلك في النداء لكثرته في كلامهم ، فحذفوا ذلك كما حذفوا التنوين وكما حذفوا الياء من قومي ونحوه في النداء ". [117]

16 - **علّة المشابهة :** التعليل بالمشابهة تزخر به كتب النّحاة ، متقدمين ومتأخرين ، فهي ملجأ النّحاة حين يجدون ما يخرق أصولهم في كثير من الأحيان ، إذ أنهم قسموا الكلام إلى ثلاثة أقسام وأعطوا كل قسم حده وأصوله ، وحين يخرج الاستعمال اللغوي إلى غير ما بنوا تكون المشابهة هي المتكأ للخروج من هذه الأشكال اللغوية[118] .وهي علة لغوية كثيرة الورود ، فسيبويه وهو يعالج مختلف موضوعات اللغة يسعى إلى أن يجمع شتات هذه الموضوعات لينظمها في خيط واحد حتى تكون بمثابة القانون العام الذي ينظم تعليم اللغة إذ أن اللغة ليست نظاماً محكماً مطرداً ولذلك وضع سيبويه العلل اللغوية ليقرب بين هذه الأشياء المتباعدة حتى تبدو اللغة أقرب ما تكون إلى التجانس والاطراد ، ومن هذه العلل التي تحقق لسيبويه ما أراده وابتغاه علة الشبه ، فقد علل بها لكل ظاهرة لغوية خالفت ما قرره وأصله فشبهها بما ثبت واستقر من القواعد المقررة[119].

والمشابهة علة عند سيبويه تلحق الشيء بشبهه في الحكم وتخرجه عن أصله وليس شرطاً أن يكون الشبه في كل شيء فيكفي أدنى وجه

للمشابهة ليجعل منه سيبويه علة مشابهة ينسبها إلى العرب وهذه حقيقة أكدها سيبويه قائلا :" ومن كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله في جميع الأشياء " .[120]

ومن أمثلتها عند سيبويه قوله :" ولا تفصل بين شيء مما ينصب الفعل وبين الفعل سوى إذن ، لأن إذن اشبهت أرى ، فهي في الأفعال بمنزلة أرى في الأسماء وهي تلغى وتقدم وتؤخر فلما تصرفت هذا التصرف اجترؤوا على أن يفصلوا بينهما وبين الفعل باليمين" .[121]، وقد يسميها في بعض المواضع (المضارعة)[122] ، كعلة إعراب المضارع لمضارعته الاسم، وعلة بناء الفعل الماضي على الفتح لا السكون لمضارعته المضارع[123] .

17 - علّة المشاكلة أو المناسبة : وهي علة قد تعتمد في أكثر الأحيان على اللفظ إذ تؤدي إلى اختيار أمر من الأمور دون غيره لأنه يؤدي إلى المشاكلة أو المطابقة في الكلام وتطابق الألفاظ و تشاكلها أفضل من تخالفها . فمن ذلك أن الاسم المشغول عنه إذا عطف على جملة فعلية نحو : رأيت زيداً وعمراً كلمته ، فالمرجح نصب هذا الاسم طلباً للمناسبة بين الجملتين لأن من نصب فقد عطف جملة فعلية على فعلية ، ومن رفع فقد عطف اسمية على فعلية . وتناسب المتعاطفين أفضل من تخالفهما ،إذ قال سيبويه :" وإنما اختير النصب هاهنا لأن الاسم الأول مبني على الفعل، فكان بناء الآخر على الفعل أحسن عندهم ... ليجري الآخر على ما جرى عليه الذي يليه قبله . إذ كان لا ينقض المعنى لو بنيته على الفعل ... فكان أن يكون الكلام على وجه واحد – إذا كان لا يمتنع الآخر من أن يكون مبنيا على ما بني عليه الأول – أقرب في المأخذ ".[124]

18 - علّة النظير: وهي علة تجعل الشيء يجري على شيء آخر في الإعراب لمناظرته له في أمر من الأمور وقد ذكرها الجليس النحوي[125] ، ضمن ما صنفه من علل تطرد على كلام العرب وشرحها التاج بن مكتوم قائلا :" وعلة نظير مثل كسرهم احد الساكنين إذا التقيا في الجزم حملا على الجر إذ هو نظيره ".[126]

وقد علل بها سيبويه ووردت مرات عديدة في كتابه فتاء جمع المؤنث السالم تكسر في النصب وعلة ذلك لأن هذه التاء في التأنيث نظيرة واو وياء جمع المذكر السالم في التذكير فأجروها مجراهما في النصب ، إذ قال سيبويه : "ومن ثم جعلوا تاء الجمع في الجر والنصب مكسورة ، لأنهم جعلوا التاء التي هي حرف الإعراب كالواو والياء، والتنوين بمنزلة النون، لأنها في التأنيث نظيرة الواو والياء في التذكير فأجروها مجراها "[127].

فهذه أشهر العلل في كتاب سيبويه لمسائل النحو لأنها الأكثر شيوعاً واطراداً في الكلام ، على أن هناك عللا أخرى غير ما ذكرنا قد علل بها سيبويه ولكنها لم يكثر ورودها في الكتاب ككثرة هذه العلل وقد أشارت إليها الدكتورة خديجة الحديثي في كتابيها : دراسات في كتاب سيبويه [128]، والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه.

ولذلك فإن هذه العلل التي ذكرناها ليست كل العلل في الكتاب وإنما المشهور منها وهي كافية لإعطاء صورة واضحة عن أنواع العلل في الكتاب ، وكلها تدلنا على اهتمام سيبويه وشيخه الخليل بالعلة النحوية واستفادتهما منها في تثبيت الأحكام أو شرحها وتفسيرها لتثبت في ذهن الدّارس والمتعلم ، ويستطيع بها مقارنة حكم بآخر ، والتفريق بينها ، والموازنة بين الأحكام المختلفة على اختلاف المواضع التي يحتاجون فيها إلى التعليل.

الهوامش :

1 - ينظر :لسان العرب: 11 / 6 ، مادة (علل).

2 - المصدر السابق :11 /471 ،مادة(علل).

3 - ينظر :القاموس المحيط:4 /21.

4 - الحدود في النحو للرماني ص:38.

5 - النحو العربي ،العلة النحوية ص:90.

6 -أصول النحو العربي ص: 108.

7 - لمع الأدلة ص:93.

8 - المصدر السابق ص: 93.

9 - المصدر نفسه ص : 93.

10 - ينظر : مدرسة البصرة ص: 248.

11 - ينظر :لمع الأدلة ص: 93.

12 - أصول التفكير النحوي ص: 166.

13 - ينظر : دراسات في كتاب سيبويه ص: 155.

14 - ينظر : مكانة الخليل بن أحمد في النحو الغربي ص:85.

15 - ينظر : إحياء النحو ص:10 - 11.

16 - أُصول التفكير النحوي ص: 62، و ينظر :العلّة النحوية بين النظرية والتطبيق ص: 167.

17 - من أعلام البصرة ، سيبويه ص :100.

18 - ينظر : مدرسة البصرة ص:263.

19 - ينظر :طبقات فحول الشعراء ص:6.

20 - ينظر : طبقات النحويين و اللغويين ص: 25.

21 - ينظر : إنباه الرواة : 2/ص105.

22 - ينظر : طبقات النحويين و اللغويين ص: 36.

23 - ينظر : أصول التفكير النحوي ص: 167.

24 - ينظر : مكانة الخليل بن أحمد ص: 87.

25 - أصول التفكير النحوي ص:168.

26 - المرجع السابق ص: 168.

27 - مدرسة البصرة ص: 269.

28 - الكتاب : 1/ص32.

29 - المدارس النحوية ،د. شوقي ضيف ص :82.

30 - ينظر : مكانة الخليل ص: 103.

31 - ينظر : أصول التفكير النّحوي :173، مكانة الخليل ص: 103.

32 - ينظر : مكانة الخليل ص: 103.

33 - ينظر : الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه ص:319.

34 - دراسات في كتاب سيبويه ص:158،وينظر : الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه ص:319.

35 - ينظر :النحو العربي،العلة النحوية ص:68-67، والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه ص:319.

36 - ينظر : الفهرست ص:84.

37 - ينظر : معجم الأدباء :7 /218 - 222.

38 - ينظر : الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه ص :322 .

39 - ينظر : الأصول في النحو ص: 1 /38.

40 - ينظر : الإيضاح في علل النحو ص: 64.

41 - ينظر : الرد على النحاة ص: 151 - 152.

42 - ينظر : الاقتراح ص: 82-75.

43 - ينظر : المصدر السابق ص: 82 - 88.

44 - ينظر : المصدر نفسه ص: 88 - 97.

45 - ينظر : الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه ص: 347.

46 - ينظر : الرد على النحاة ص: 151 - 152.

47 - ينظر : منهج السالك لأبي حيان ص:229 - 230.

48 - ينظر :الخصائص : 1 /184 - 186.

49 - ينظر : منهج السالك لأبي حيان ص: 231 .

50 - الاقتراح ص: 70 .

51 - ينظر : الإيضاح في علل النحو : المقدمة : د-هـ .

52 - ينظر : سر الفصاحة ص: 33 ، ورأي في بعض الأصول اللغوية والنحوية ص:60 .

53 - ينظر : النحو العربي ، العلة النحوية ص: 163 - 164.

54 - مدرسة البصرة ص: 276 .

55 - ينظر : نحو التيسير ص: 45 .

56 - ينظر : دراسات نقدية في النحو العربي ص: 29 - 30 .

57 - ينظر : الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه : 323 - 324 ، أبو عثمان المازني : 145 -.158.

58 - ينظر : أصول النحو العربي : 113 - 114.

59 - ينظر: الكتاب:5 /330 - 333 .

60 - ينظر: دراسات في كتاب سيبويه :197 - 212 .

61 - الدكتور شعبان العبيدي ينظر كتابه:التعليل اللغوي في كتاب سيبويه: 91 ، 246 - 311.

62 - الأشباه والنظائر: 1 /61.

63 - ينظر : الخصائص : 1 /271، الأشباه والنظائر :1 /61، أبو عثمان المازني : 155.

64 - الأشباه والنظائر : 1 /61.

65 - ينظر : الشاهد وأصول النحو في الكتاب : 378 - 379،علل النحو لابن الوراق : 68.

66 - الكتاب : 1 /25، وينظر : 3 /121.

67 - المصدر السابق : 2/351 – 352 .

68 - المصدر نفسه : 3 /158 ،وينظر : 2/ 347 ، 366 - 367 ، 383 - 384

69 - المصدر نفسه : 2 /36 – 37.

70 - المصدر نفسه : 2 /389 ، و ينظر : 1/244 .

71 - الأشباه والنظائر : 1 /309.

72 - ينظر: العربية والغموض : 116 نقلا عن التعليل اللغوي في كتاب سيبويه : 297 .

73 - الكتاب : 3 /106 - 107 .

74 - المصدر نفسه: 2/139.

75 - ينظر : علل النحو لابن الوراق :66.

76 - أصول النحو العربي : 114.

77 - ينظر : التعليل اللغوي في كتاب سيبويه : 250.

78 - الكتاب : 2 /160.

79 - المصدر نفسه :2 /162 ، و ينظر للتعليل بها :1 /165 –166 ، 203، 2 /161 ، 172 ، 208 ، 210.

80 - المصدر نفسه : 1 /14.

81 - المصدر نفسه: 1 /20 - 21.

82 - المصدر نفسه : 2/ 131، وينظر: 1 /46 ، 57 ، 59 ، 252-253 ، 3 /286.

83 - المصدر نفسه : 1 /14.

84 - ينظر : التعليل اللغوي في كتاب سيبويه : 308.

85 - الحج : من الآية48 ، و الطلاق : من الآية8 ، الكتاب:2 /170.

86 - الكتاب : 2 /171 وينظر: 1 /44.

87 - دراسات في كتاب سيبويه : 202 .

88 - الكتاب: 1 /21.

89 - المصدر السابق: 3 /12.

90 - المصدر نفسه: 1 /40 وينظر: 1 /45، 47 - 48 ، 54 - 55 ، 120، 142.

91 - الدكتور شعبان عوض العبيدي في كتابه التعليل اللغوي في كتابه سيبويه :277.

92 - الكتاب : 1 /182 - 183.

93 - المصدر نفسه: 2 /199 وينظر :2 /378.

94 - التعليل اللغوي في كتاب سيبويه : 306.

95 - الكتاب : 3 /7 وينظر :2 /297،6.

96 - المصدر نفسه : 2/344-345 .

97 - الاقتراح : 71 - 72.

98 - التعليل اللغوي في الكتاب : 270 وينظر : الكتاب : 1 /25.

99 - الكتاب : 1 /17 - 18.

100 - المصدر نفسه : 1/ 293 –294 ، وينظر : 2 /196، 211، 3 /167.

101 - علل النحو لابن الوراق : 67.

102 - الكتاب : 1/18 وينظر : 1/13، 2 /376 - 377 .

103 - المصدر نفسه: 1/17 ، وينظر : 2/ 37 - 38.

104 - ينظر : دراسات في كتاب سيبويه :203، الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه :375 - 377.

105 - الكتاب : 2/164، وينظر : 2/ 378 ،396 .

106 - المصدر نفسه: 2/369 وينظر: 2 /251، 364، 371، 381، 3 /113، 287 - 288 .

107 - شرح المفصل : 1 /79 وينظر : الكتاب : 1 /436 .

108 - الكتاب : 1 /73 - 74 ، وينظر للتعليل بها : 1 /88 - 89.

109 - شرح المفصل : 4 /102 .

110 - ينظر : الأشباه والنظائر : 1 /308 .

111 - المصدر السابق : 1 /308 .

112 - ينظر : الشاهد وأصول النحو : 368، التعليل اللغوي في كتاب سيبويه : 256 .

113 - ينظر : الكتاب(الفهارس التحليلية) : 5 /300 - 303.

114 - الكتاب :2 /129.

115 - المصدر السابق :1 /274 .

116 - ينظر : المصدر نفسه:1 /280 - 283.

117 - ينظر : المصدر نفسه: 1 /290.

118 - ينظر : المصدر نفسه :1 /291.

119 - المصدر نفسه : 2 /239 وينظر :2/ 195، 214، 256.

120 - ينظر : المشابهة في النحو العربي : التمهيد : هـ .

121 - ينظر : التعليل اللغوي في كتاب سيبويه : 279.

122 - الكتاب : 3 /278.

123 - المصدر نفسه: 3 /12 - 13.

124 - ينظر: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه : 380، دراسات في كتاب سيبويه :206.

125 - ينظر : الكتاب : 1 /13 - 14 .

126 - ينظر : المصدر السابق: 1 /16.

127 - المصدر نفسه: 1 /88 .

128 - المصدر نفسه: 1 /18 .

المصادر والمراجع :

*القرآن الكريم.

1 - أبو عثمان المازني ومذاهبه في الصرف والنحو : رشيد عبد الرحمن العبيدي ، مطبعة سلمان الأعظمي ، بغداد ، 1969م.

2 - إحياء النحو : إبراهيم مصطفى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1937م .

3 - الأشباه والنظائر في النحو : جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي ، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،1990م.

4 -أصول التفكير النحوي: د.علي أبو المكارم ، مطابع دار القلم ، بيروت،1973م .

5 -الأصول في النحو : أبو بكر بن السراج البغدادي (ت316هـ) ، تحقيق : د.عبد الحسين الفتلي ، الجزء الأول : مطبعة النعمان ،النجف الأشرف،1973 م،الجزء الثاني : مطبعة سلمان الأعظمي ، بغداد،1973م.

6 -أصول النحو العربي: محمد خير الحلواني ، حلب ، 1979م .

7 -الاقتراح في علم أصول النحو : جلال الدين السيوطي،تحقيق : محمد حسن إسماعيل الشافعي الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998م.

8 -أنباه الرواة على أنباه النحاة : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت 646 هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار الكتب المصرية ، القاهرة 1952م .

9 -الإيضاح في علل النحو : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت 337 هـ) تحقيق:د.مازن المبارك الطبعة الثالثة ، دار النفائس، بيروت 1979م .

10 - التعليل اللغوي في كتاب سيبويه : د. شعبان عوض محمد العبيدي ، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ، ليبيا 1999م .

11 -الحدود في النحو : علي بن عيسى الرماني (ت 384 هـ) ، تحقيق : د.مصطفى جواد ، ويوسف مسكوني بغداد ، 1969م.

12 -الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ) ، تحقيق : محمد علي النجار ، الطبعة الرابعة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1990م.

13 -دراسات في كتاب سيبويه : د. خديجة الحديثي ، دار غريب للطباعة القاهرة 1980م.

14 - دراسات نقدية في النحو العربي : د. عبد الرحمن أيوب ، مكتبة الأنجلو- المصرية القاهرة ، 1960م.

15 -رأي في بعض الأصول اللغوية والنحوية : عباس حسن ، مطبعة العالم العربي ، القاهرة ، 1951م.

16 - الرد على النحاة : ابن مضاء القرطبي (ت 592هـ)،تحقيق : د. شوقي ضيف ، دار الفكر العربي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1947م.

17 -سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) ، تحقيق : عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ، 1953م.

18 - الشاهد و أصول النحو في كتاب سيبويه : د. خديجة الحديثي ، مطبعة مقهوري الكويت،1974م.

19 - شرح المفصل : موفق الدين بن يعيش النحوي (ت 643 هـ) ، عالم الكتب بيروت (د.ت).

20 - طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي (ت 231هـ) ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، بيروت (د.ت).

21 - طبقات النحويين واللغويين : أبو بكر الزبيدي (ت 379هـ) ،تحقيق: محمد ابر الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر 1984م.

22 - العربية والغموض دراسة لغوية في دلالة المبني على المعنى : د.حلمي خليل الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1988م.

23 - العلة النحوية بين النظرية والتطبيق : نهاد فليح حسن ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد الرابع عشر ،1986م.

24 - علل النحو: أبو الحسن محمد بن عبد الله الوراق ، تحقيق: د.محمود جاسم الدرويش ، بيت الحكمة ، بغداد ،2002م.

25 - الفهرست: محمد بن إسحاق النديم (ت 380هـ) ، دار المعرفة ، بيروت (د.ت).

26 - في النحو العربي نقد وتوجيه: د. مهدي المخزومي ، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت 1964م.

-القاموس المحيط: الفيروزآبادي ، مطبعة السعادة بمصر (د.ت) .

27 - كتاب سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق :عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977 .

28 - لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت 711هـ) دار إحياء التراث العربي 1985م.

28 - لمع الأدلة في أصول النحو : أبو البركات بن الأنباري ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، الطبعة الثانية ، دار الفكر بيروت 1971م

29 - المدارس النحوية : د. شوقي ضيف، الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر 1979م.

30 - مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها : د. عبد الرحمن السيد، الطبعة الأولى ، مطابع سجل العرب ، 1968م.

31 - معجم الأدباء : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي(ت 626هـ) الطبعة الثانية ، طبعة مرج ليوث مصر 1973م.

32 - مكانة الخليل بن احمد في النحو العربي : د. جعفر نايف عبابنة، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان 1984م.

33 - المشابهة في النحو العربي : نعمان عنبر الإبراهيمي : رسالة ماجستير، كلية التربية ، جامعة البصرة 2002م.

34 - من أعلام البصرة ، سيبويه، هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه: د. صاحب أبو جناح ، دار الحرية للطباعة بغداد 1974م.

35 - منهج السالك في الكلام على ألفية بن مالك : أبو حيان النحوي الأندلسي ،تحقيق: سدني جليزر ، المطبعة الأمريكية ، نيوهافن 1974م.

36 - نحو التيسير : د. احمد عبد الستار الجواري ، جمعية نشر العلوم والثقافة 1962م.

36 - النحو العربي ، العلة النحوية ، نشأتها وتطورها : د. مازن المبارك، الطبعة الثالثة ، دار الفكر بيروت 1974م.

بوادر الدرس الصوتي عند العرب

د/ والي دادة عبد الحكيم (ج. تلمسان)

يشكل الصّوت الإنساني المادّة الأولى في الدراسات اللغوية لأي لسان من الألسن البشرية، وتعد الدراسات الصّوتية قديما من أصل العلوم عند العرب، لأنها اتصلت مباشرة بتلاوة القرآن الكريم لضبط أدائه.

اعتنى العرب باللغة العربية قبل الإسلام، وبعده كان الاعتناء بها للحفاظ على القرآن الكريم من اللّحن والتّحريف، وذلك بعدما سُمعت بعض مظاهر اللّحن في لغة القرآن من أفواه من دخل الإسلام من غير العرب و من العرب أنفسهم ، مما دعا علماء العربية إلى المسارعة في وضع سياج يحفظها ويصون قواعدها للحيلولة بين القرآن وهذه المظاهر. فنشأت الدّراسات اللغوية عند العرب وتطورت في ظل القرآن الكريم و اهتموا بمستويات اللّغة صوتا ونحوا وصرفا وتركيبا. ولعلّ بوادر الدّراسات الصّوتية كانت التي قام بها **أبو الأسود الدؤلي** (ت69هـ) من خلال ضبط إعراب القرآن بالنّقط، وذلك بملاحظة حركة الشفتين بقوله لكاتبه:" إذا رأيتني قد فتحت فمي فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه ، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف" [1]. وإنما هذا يدل على أن أبا الأسود لاحظ أثر الشفتين في نوعية الصوت الذي يسميه المحدثون بالصائت وهذه إشارة إلى خاصية من خواص الحركات، فكانت المبادرة

الأولى لتحديد رموز للأصوات الصائتة القصيرة المصاحبة للصوت الصامت." [2]. فعمل أبي الأسود وإن كان يهدف إلى المحافظة على لغة القرآن إلا أنه متصل بالصوتيات أوثق صلة.كما تعدّ جهود **نصر بن عاصم** • (ت 89هـ) **و يحي بن يعمر**•• (ت 129هـ) في عجم حروف الهجاء عملا في صميم الدّرس الصّوتي، إذ أعجما المصحف الشّريف لأوّل مرّة ونقطا جميع حروفه المتشابهة، والتزما ألّا تزيد النّقط في أيّ حرف على ثلاث، فكان له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللّبس عن المصحف [3]، وغيرها من الأعمال التي قام بها أولائك الأفذاذ من علماء العربية أمثال: عبد الرحمان بن هرمز وعنبسة بن معدان وعبد الله بن اسحاق و أبوعمرو بن العلاء وعيسى بن عمرو ويونس بن حبيب. [4]

اهتم العرب بالدّراسة الصّوتية من جانبيها: دراسة الأصوات المجردة ودراسة الأصوات من خلال الظواهر الصوتية -Phonologie Phonétique.

أما الجانب الأوّل من علم الأصوات العام فنجده في كتاب العين **للخليل ابن أحمد الفراهيدي** (ت 175هـ) الذي بث فيه آراءه الصوتية، فهو أول من صنف حروف العربية تصنيفا صوتيا، إذ رتّب معجمه حسب مخارج الحروف، فبدأ بأبعد الأصوات مخرجا. فوجد أعمق الأصوات الهمزة، لكنه لم يبدأ بها لأنها متقلبة لاتستقر على حال ولا صورة ثابتة لها في النطق أو الكتابة، ثم قارن بين العين والحاء فوجد أن العين أنصع في النطق فبدأ بها يقول الخليل:"فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء" [5]، قال ابن كيسان: "سمعت من يذكرعن الخليل أنه قال: لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها النّقص والتّغيير والحذف، ولا بالألف لأنّها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا

فعل إلّا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنّها مهموسة خفيّة لا صوت لها، فنزلت إلى الحيّز الثّاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع (الجهر والقوّة) الحرفين، فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف." [6] وعلى هذا النحو مضى إلى أن رتّب الحروف ترتيبا صوتيا محضا. كما توصل الخليل من خلال هذا التصنيف إلى تقسيمها: أصوات صامتة وأخرى صائتة يقول في العين: "في العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومدارج، وأربعة أحرف جوفية وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة وسميت جوفا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان،ولا من مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف." [7]

أمّا **سيبويه** (ت 180هـ) فقد ختم مؤلّفه "الكتاب" بباب الإدغام تناول فيه عدد حروف العربية ومخارجها وصفاتها، فكان دقيقا في تحليلاته وتقسيماته حيث قدّم تصنيفا للأصوات حسب وضع الأوتار الصوتية والذي سماه الجهر والهمس، ثمّ حسب طريقة النطق ليجد الأصوات الشديدة والرخوة وما بينهما. فضلا عن الظواهر الصوتية التي درسها دراسة واعية تنم عن إدراك عميق لأسباب تلك الظواهر وأبعادها الصوتية [8]، وتعدّ دراسة سيبويه من أصح الدّراسات المتقدّمة ومازالت تعدّ مصدرا أساسيا عند المحدثين لدراستهم اللّسانية والصّوتية في العربية.

وقد بيّن كل من الخليل وسيبويه أن حروف العربية تسعة وعشرون، وهي أصول: "وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنّ فروع، وأصلها من التسعة والعشرين... وتكون اثنين وأربعين حرفا... وهذه الحروف التي

تَمّمتها اثنين وأربعين جيدها ورديؤها أصلها التسعة والعشرون، لا تتبيّن إلاّ بالمشافهة" [9]. وقد نبني على هذا أن فكرة الصّوت بعدّه وحدة صوتية مجرّدة، وجدت عند القدامى، وإن لم يتّضح مضمونها.

فالملاحظ أن كليهما ا درســا الأصوات دراسة وصفية واقعية قائمة على الملاحظـة الذاتيـة بعيـدة عن الافتراض والتأويـــل. [10]

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن الخليل وسيبويه كانا دقيقي الحس حيث أعطى الخليل لترتيب الأصوات طابعا جديدا، لم يسبقه -كما هو معلوم- أحد إلى ذلك، فرتّب الأصوات بحسب مخارجها لإصدار صوت ما، ثم بحسب مدى وقع هذه الأصوات في الأذن.

ورتّب الخليل الأصوات في نظامه المبتدع على النحو التالي: "العين الحاء الهاء الخاء الغين، القاف الكاف، الجيم الشين الضاد، الصاد السين الزاي، الظاء الثاء الذال، الراء اللام النون، الفاء الباء الميم، الواو الألف الياء الهمزة"[11].

ولئن كان ظاهر ترتيب الأصوات عند الخليل وسيبويه واحدا، فإن الثّاني صنّف الأصوات تصنيفا مغايرا لتصنيف أستاذه، إذ بدأ بالهمزة وختمه بالواو، وقال الهمزة: "...نبرة في الصّدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا"[12].

فرتّب الأصوات على الشّكل التّالي: "الهمزة، الألف، والهاء، والعين والحاء، والخاء، والغين، والكاف، والقاف، والضاد والجيم، والشين، والياء، واللاّم، والراء، والنون، والطاء، والدال والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم والواو"[13].

فهناك تقديم وتأخير في بعض الأصوات موازنة بين تصنيفه وتصنيف أستاذه وتبع سيبويه في هذا كلّ من ابن جني (الخصائص)، (سر صناعة الإعراب) في الجزء الأوّل ، ابن الجزري (النشر في القراءات العشر) في الجزء الأوّل ، عبد القاهر الجرجاني (المقتصد)، والخفاجي (سر الفصاحة) [14].

وخالف ابن جني سيبويه في ترتيب أصوات الصفير (السين، والزاي، والصاد) [15]. ويرى **سعيد النعيمي** أنّ اختلافهما في ترتيب هذه الحروف يكون سيبويه أو ابن جني قد أحسّ أحدهما بأن الثّلاثة من مخرج واحد، لا يتقدّم أيّ منها على غيره، والفرق بينهما في الصّفة، فالزّاي من مخرج السّين إلاّ أنّها مجهورة، والسّين مهموسة، والصّاد من مخرج السّين، وهي مهموسة أيضا إلاّ أنّها تختلف عن السّين بالإطباق [16].

فابن جني (ت392هـ) من أبرز العلماء الّذين استطاعوا استيعاب نتاج **الخليل وسيبويه** فأفرد عملا كاملا لدراسة الأصوات سمّاه "سر صناعة الإعراب" وهو كتاب يشمل جميع أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها في مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها، وصحيحها ومعتلها، ومطبقها ومنفتحها، وساكنها ومتحركها، ومضغوطها ومهتوتها ومنحرفها ومشربها، ومستويها ومكررها، ومستطيلها ومنخفضها، إلى غير ذلك من أجناسها. [17]

كما أن تعريف **ابن جني** للّغة كان تعريفا صوتيا حين قال في الخصائص:"أمّا حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم." [18] فالواضح أن ابن جني "قصر اللغة على الأصوات، وأخرج الكتابة من

هذا التعريـف، ومعنى هذا أن علماء العربية لم يدرسوا اللغة باعتبارها لغة مكتوبة وإنّما باعتبارها لغة منطوقة قائمة على الأصوات؛ أي أنّها نظام من الرموز الصوتية للتواصل أو للتعبير داخل مجتمـع". [19]
كما عرّف الصّوت بقولــه:"اعلم أن الصّوت عرض يخرج مع النّفس مستطيلا متّصلا حتّى يعرض له في الحلق والفم والشّفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمّى المقطع أينما عرض له حرف". [20]
والمقصود بالمقطع المكان الّذي يعترض فيه الصّوت عــائق يمنعــه عن جريـه واستطــالتـه. فمتى انقطع الصّوت باصطدامه بحاجز، ينجرّ عن ذلك الاصطدام الحرف الذي يختلف صداه باختلاف موضعه والأعضاء المشاركة في إصداره، وقد ذكر هذا ابن جني حين قال عن الحروف "إن أجراسها تختلف باختلاف مقاطعها" [21].

فالحسّ المرهف الذي امتاز به ابن جني جعله يلتمس ميزات الصّوت التي تفرز الحرف عند منتهى المقطع الذي يقف عنده الصّوت ويواصل حديثه بقوله: "ألا ترى أنّك تبتدئ الصّوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت فتجد له جرسا ما، فإن انتقلت عنه راجعا منه، أو متجاوزا له، ثم قطعت، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأوّل" [22].

ونستنتج من هذا أن ابن جني أراد تأكيد الحروف بموسيقاه، فعبّر عن ذلك بصدى الصّوت الذي يتّضح في فهمه وفهم الّذين سبقوه بإضافة همزة مكسورة وتسكين الحرف، ويبدو أن ما تعرّض له ابن جنّي في درسه للصوت وتحديده للمقطع لم يكن مقصودا لذاته، كالحال مع الدراسات الفونولوجية العربية الحديثة التي لا نغفل قصورها فيما يصدر من دراسات في النّبر والتنغيم والظواهر الأدائية الأخرى[23]، يكاد ينعدم،

لاسيما مع الافتقار إلى الإمكانات التكنولوجية وآلات التسجيل ومخابر الصّوت.

كما يعد ابن جني أول من عرض لجهاز النطق فشبهه بالناي وبوتر العود، ليقدم صورة عن العملية الطبيعية لإنتاج الكلام[24] ، يقول ابن جني:" وقد شبّه بعضهم الحلق والفم بالنّاي، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملسا ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم بالاعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة." [25] ثمّ بيّن سر اختلاف الأصوات الخارجة من جهاز النطق وكيف يتم هذا الاختلاف فيقول:"ونضير ذلك أيضا وتر العود فإن الضارب إذا ضربه، وهو مرسل سمعت له صوتا فإن حصر آخر الوتر بعض آخر أصابع يسراه أدّى صوتا آخر... ويختلف ذلك بقدرة قوة الوتر وصلابته وضغطه ورخاوته، فالوتر في هذا التمثيل كالحلق... وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا". [26] فافبن جني تفطّن إلى أن الأصوات تختلف فيما بينها تبعا لأوضاع أعضاء جهاز النطق، وأن من الأصوات ما تعترضه العوائق التي مثّلها بأنامل الزّامر أو أصابع ضارب العود على الوتر، فبهذا يكون قد وصف ميكانيكية النطق.

إنّ ما أبداه ابن جني من تفصيل تمثيلي دقيق لجهاز النطق عند الإنسان وأثر انطلاق الهواء مضغوطاً وغير مضغوط في إحداث الأصوات مختلفة بحسب إرادة الناطق أو الموصوّت هو ما تبناه علم الأصوات

الفيزيولوجي (phonnetics.physiology) في الحديث عن الجهاز التنفسي الذي يقدم الهواء المناسب لتكييف حدوث الأصوات ، وعن الحنجرة باعتبارها مفجرة الطاقة الصوتية ، وعن التجاويف فوق المزمارية التي تلعب دور عزف الرنين في إنتاج غالبية الضوضاء المستخدمة في الكلام [27].

كما قسّم الأصوات إلى صامتة و صائتة وميّز بينهما بقوله:"وسبيلك إذا اعتبرت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكنا لا متحركا، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجذبه إلى جهة الحرف التي هي بعضه، ثمّ تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله لأن السّاكن لا يمكن الابتداء به فنقول إنْ،إقْ، إجْ...والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة الألف ثم الياء ثم الواو وأوسعها وألينها الألف." [28] للتعرف على صدى الحرف يقتضي تسكين هذا الأخير مع إضافة همزة القطع في أوّله، وعلّته في ذلك أن: "الحركة تجذب الحرف إلى صوت الحرف الذي هو بعضه". والطريقة التي وضعها ابن جنّي لمعرفة صدى الحرف حذرت منه الدراسات الحديثة لأنها طريقة غير علمية ودقيقة والحرف حينها: "لا يتحقق فيه الاستقلال الذي هو أساس التجربة الصحيحة"[29].

فرّق ابن جني بين الصّوامت والصّوائت حسب مجرى الهواء عند النّطق، فالحركات (الصّوائت) هي الّتي لا يحدث اعتراض للهواء عند نطقها، فالصّوت الصّائت هو الصّوت المجهور الّذي يحدث في نطقه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والفم وخلال الأنف معهما أحيانا دون أن يكون ثمّة عائق أو تضييق لمجرى الهواء من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا، أمّا الصّامت فهو الصّوت المجهور أو

المهموس الذي يحدث في نطقه اعتراض لمجرى الهواء اعتراضا كاملا أو جزئيا من شأنه أن يمنع الهواء من أن ينطلق من الفم. وتعرّض ابن جني إلى الحركات القصيرة والحركات الطويلة فهو يرى أنها لا تختلف عن القصيرة إلّا من حيث الطول أو كمية الصوت، إلى جانب تعرضه إلى خصائص الأصوات، فهو يرى أن الأصوات في الكلمات أو الكلام لاتحتفظ بخصائصها التي تعرف بها حين تكون أصواتًا مستقلة فهي قد تكتسب خصائص جديدة كأن ينقلب الصوت إلى صوت جديد وقد يحذف تماما كما في حالات الإدغام.[30]

إن هذه الأعمال تكشف عن عمق الفكر الصوتي عند ابن جني إذ يعرض فيه عصارة تجاربه الصوتية الدقيقة المنظّمة ، ويتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيف يتنقل فيه من الأدنى إلى الأعلى ، ومن البسيط إلى المركب حتى إذا تكاملت الصورة لديه ، ولعل أبرز ما نعقبه في سر صناعة الإعراب لصوقا بجوهر الصوت الخالص البحوث الآتية :

1 - فرق ما بين الصوت والحرف.

2 - ذوق أصوات الحروف.

3 - تشبيه الحلق بآلات الموسيقى (المزمار ، العود).

4 - اشتقاق الصوت والحرف.

5 -الحركات لبعض حروف المد.

6 -العلل وعلاقتها بالأصوات.

7 - مصطلحات الأصوات العشرة التي ذكرها آنفاً مع ما يقابلها.

8 -حروف الذلاقة والأصمات.

9 - حسن تأليف الكلمة من الحروف فيما يتعلق بالفصاحة في اللفظ المفرد ، وتأصيل ذلك على أساس المخارج المتباعدة.

10 - خصائص كل صوت من حروف المعجم ، وحيثياته ، وجزئياته كافة ، بمباحث متخصصة لم يسبق إليها في أغلبها. (31)

وكما ذكرنا آنفا أن ابن جني قد خالف كلا من الخليل وسيبويه في ترتيب الأصوات فكان على النحو التالي: الهمزة ، الألف ، الهاء ، العين ، الحاء ، الغين ، الخاء ، القاف ، الكاف ، الجيم ، الشين ، الياء ، الضاد، اللام ، الراء ، النون ، الطاء ، الدال ، التاء ، الصاد ، الزاي ، السين ، الظاء ، الذال ، الثاء ، الفاء ، الباء ، الميم ، والواو (32).

ويضيف ابن جني إتماما لنظريته في الأصوات ستة أحرف مستحسنة على حروف المعجم العربي ، وثمانية أحرف فرعية مستقبحة ، ولا يصح ذلك عنده إلا بالسمع والمشافهة، حتى تكون حروف المعجم مع الحروف الفرعية المستحسنة خمسة وثلاثين حرفاً ، وهما مع الحروف الفرعية المستقبحة ثلاثة وأربعون حرفاً. فحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً، لا شك في هذا ، ولكن الحروف المستقبحة والمستحسنة التي أضافها، وإن لم يكن لها وجود في المعجم العربي ، إلا أن لها أصواتاً في الخارج عند السامعين ، وهو إنما يبحث في الأصوات فأثبتها ، فعادة الأصوات في العربية عنده ثلاثة وأربعين صوتاً ، وهو إحصاء دقيق ، وكشف جديد، وتثبيت بارع. فالحروف المستحسنة عنده، يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام ، وهي : « النون الخفيفة ، والهمزة المخففة ، وألف التفخيم ، وألف الإمالة ، والشين التي كالجيم ، والصاد التي كالزاي ... والحروف

الفرعية المستقبحة ، هي فروع غير مستحسنة ، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة ، غير متقبلة. وهي : الكاف التي بين الجيم والكاف ، والجيم التي كالكاف ، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين ، والطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء ، والباء التي كالميم ». [33]

فالملاحظ أن ابن جني جمع في دراسته بين الجانب النظري و الجانب العملي التطبيقي فكانت عنوانا على تفوقه في دراسة الأصوات، بحيث تكلّم عن الصوت اللغوي بكلمات علمية لها مفهومها المحدد، فضلا على تناوله الأصوات العربية من معظم جهاتها وائتلافها في تركيب الألفاظ.

ويتعرّض ابن سينا (ت429هـ) كتابه "أسباب حدوث الحروف" إلى قضايا جوهرية تتعلق بالجانب العضوي والفيزيائي للصوت، فبالإضافة إلى دقة الملاحظة في كيفية حدوث الصوت يصفه وصفا يستمد مفهومه من المحيط الطبيعي إذ يدخل على منهج سابقيه الجانب التجريبي الملموس حين يقرّ بأن هذه الحروف قد تسمع من حركات غير نطقية مثلا العين قد تسمع من اندفاع الهواء بقوة في الماء[34].فابن سينا كان في رسالته هذه متمرسا للإشارات الصوتية وتمييزها في الأسماع،متحدثا عن مخارج الأصوات وغضاريف الحنجرة، كما عرض للفم واللسان تشريحيّا وتركيبيّا، وعني عناية خاصة بترتيب مخارج الصوت العربي مقارنا باللّغات الأخرى بحسب تركيب أجهزة الصّوت الإنساني، وبحث مميزات الحرف العربي صوتيا وحكم جهازه السمعي في معرفة الأصوات وأثر تذبذبها. [35]

وأمّا الجانب الثاني - أي دراسة الأصوات - من خلال الظواهر الصوتية- فقد نال النصيب الأوفر في كتب النّحو .

كما يضاف إلى جهود علماء اللّغة ما استحدثه النقاد والبلاغيون من نظريات في الفصاحة وأضربها، غير أن الدرس الصّوتي بقي يأخذ في أغلبه من علمي الصرف والتجويد، وما أنجزه اللّغويون العرب في هذا الموضوع، فكانت جهودهم الصّوتية تتعلق بفصاحة الكلمة وبيان الكلام، فاعتنوا بمخارج الحروف وعرفوا صلتها بتلاؤم الحروف وتنافرها فوضعوا شروطا لخلوّ الكلمات من تنافر الأصوات كأن تكون من مخارج متقاربة، وهذا ما يعرف في علم الأصوات بالدّراسة التّنظيمية وهي طريقة تأليف الأصوات. يقول ابن سنان الخفاجي (ت 446هـ) في سر الفصاحة:" ولحروف الحلق مزية في القبح إذا كان التأليف منها فقط، ومثاله الهعخع." (36) وقبله الجاحظ (ت255هـ) زاد في كتابه من العناية في الدّراسة الصّوتية في أكثر من موضع فنجد فيه معالجة علميّة دقيقة للأصوات التي تدخلها اللّثغة يقول:"وهي أربعة أحرف:القاف والسين واللام والراء". وتحدث عن أوصاف هذا المرض واقترح بعض العلاجات الطبيعية. (37)

وما دام هذا النوع من الدراسات جاء من أوّل الأمر ليحفظ القرآن الكريم بوصفه نصا مقدّسا، فقد انصبّ اهتمام العلماء في هذا السياق على كيفيات أداء هذا النص تجويدا وترتيلا، فتعمّقوا في دراسة علمي التجويد والترتيل، وضبط أسسهما العلمية فدرسوا في الأول حظ الصّوت ومستحقه (الصفات الذاتية والعرضية)، ودرسوا في الثاني حظ اللسان من تصحيح الأصوات، وحظ العقل من تفسير المعاني وتحديد الدلالات، ثم حظ القلب من الاتعاظ والتأثر، ليفرّقوا بعد ذلك بين القراءات المشهورة منها، والمتواترة والشاذة.

فقد زاد علماء التجويد من العناية في الدراسة الصوتية بدءا بجانبها الأول وانتهاء بجانبها الثاني، وكانت الغاية من دراساتهم هي الوصول إلى النطق السليم لآي الذكر الحكيم وهو ما دفعهم إلى دراسة أصوات اللغة، وذلك لمعرفة مخارجها وصفاتها وما يطرأ عليها حالة تركيبها، منبهين إلى كيفية النطق السليم محذرين من الانزلاق إلى الخطأ عند تلاوة الكتاب المبين، فجاءت دراستهم معيارية عمادها الصحة والصواب، فتتبعوا كل ما يتعلق بالصوت اللغوي من أحكام حالة إفراده لمعرفة مخرجه وصفاته فيضمن الطريقة المثلى لنطقه، أو في حالة تركيبه لمعرفة ما يطرأ عليه من تغيرات بسبب مجاورته لغيره من الأصوات فهي تتأثر فيما بينها ممّا يغير طريقة التلفظ بها، وكل هذه الدراسات كانت من خلال النص القرآني، وبهذا اتخذ علماء التجويد الأصوات اللغوية مادتهم العلمية الوحيدة فتخصصوا فيها ولم يخلطوها بغيرها [38]. فاهتمامهم بالأصوات أدى إلى ظهور مصطلحات صوتية مهمّة كالإشمام والرّوم والاختلاس والإمالة والتخفيف والتفخيم، واعتنوا بالإدغام عناية خاصة فأفاضوا فيه. [39] فالملاحظ أنهم خاضوا غمار علم الأصوات بفرعيه النطقي و الوظيفي و هدفهم من دراسة الأصوات اللغوية هدف تعليمي محض وذلك لتعليم قرّاء القرآن النطق السليم والتحذير من النطق الخاطئ واللحن الخفي. [40]

ولكن على الرغم من ذلك ما زال الدرس الصّوتي عند المحدثين يعاني قصورا، إذ يستنسخ في الغالب أطروحات القدامى، في رأي أحد الدارسين، ما جعل الدراسات الفونولوجية شبه منعدمة. [41]

الهوامش :

1 - محمد بن إسحاق النديم، الفهرست، تح:رضا تجدد، ج1، ص45

2 - فدوى حسان، أثر الانسجام الصوتي في البنية اللغوية في القرآن الكريم، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2010، ص56.

- نصر بن عاصم الليثى كان فقيها فصيحاً عالماً بالعربية، من تلامذة أبي الأسود الدؤلي أول من وضع النقاط على الحروف في اللغة العربية بأمر من الحجاج بن يوسف.

- يحيى بن يعمر البصري الفقيه ، العلامة ، المقرئ يقال إنه أول من نقط المصاحف.

3 - محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح:فوّاز أحمد زمرلي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1415 - 1995، ج1، ص332.

4 - النديم، الفهرست، ص 47 .

5 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح:مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، العراق، دار الرشيد للنشر، ج1، 1980، ص57.

6 - جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، القاهرة، دار التراث، ج1، ط3، ص90.

7 - الخليل، العين، ص 57 .

8 - عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1979، ص130 .

9 - سيبويه، كتاب، مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ج4، 1316هـ، ص، 431.

10 - عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية ، ص131 .

11 - الخليل، العين، ج1، ص9.

12 - سيبويه، كتاب، ج3، ص548 .

13 - سيبويه، كتاب، ج4، ص434

14 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: محمد حسن إسماعيل وأحمد شحاته، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، ط2، 1426، 2004، ص.50 و، ص: 30 - 31 - 32. الجرجاني، المقتصد، ميكرو فيلم ورقة 332-324 وما بعدها، نقلا عن تامر سلّوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار حوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1983، وابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تح: علي فوده، المطبعة الرحمانية، ط1، 1932، ص: 5 إلى 21. ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ص201 إلى 220 .

15 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص52 .

16 - النعيمي: الدراسات اللهجية والصّوتية عند ابن جني، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980، سلسلة دراسة 234، ص: 301.

17 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص17-16

18 - ابن جني، الخصائص، تح: محمد النجار، القاهرة، دار الكتب، 1952، ج1، ص33 .

19 - عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص133 .

20 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص119 .

21 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص:9.

22 - ابن جني،نفسه، الصفحة نفسها.

23 - راجع بسام بركة علم اللغة العام، ص: 99، وهذه الوحدات المقطعية استعملها العرب القدامى في لغاتهم، وهي الهمز وما يقابله من تسهيل، والإدغام وما يقابله من إظهار، والإمالة وما يقابلها من فتح، والتفخيم وما يقابله من ترقيق.

24 - عبده الراجحي،فقه اللغة في الكتب العربية، ص 133 .

25 - ابن جني، سر صناعة الإعراب ،ج1، ص21 - 22 .

26 - ابن جني، سر صناعة الإعراب،ج1،ص22 .

27 - محمد علي الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، بيروت، دار المؤرخ العربي ،ص68 .

28 - المرجع السابق، ص19 .

29 - إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، دار النهضة العربية، مصر، 1961،ص20.

30 - ابن جني،الخصائص،تح:محمد النجار،بيروت،دار الكتاب العربي،ج2،ص315.

31 - محمد علي الصغير،الصوت اللغوي في القرآن ،ص58 .

32 - ابن جني، سر صناعة الإعراب،ج .1،50

33 - ابن جني، سر صناعة الإعراب،ج1، ص 50 - 51 .

34 - غافر حامد هلال، أصوات اللغة العربية،ص10 .

35 - ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، راجعه وقدّم له، طه عبد الرؤوف سعيد، مكتبة الكلّيات الأزهرية، القاهرة، 1389هـ- 1978م، ص 18.

36 - ابن سنان الخفاجي،سر الفصاحة،

37 - أبو عثمان الجاحظ،البيان والتبيين،ش:علي أبو ملحم،بيروت، دارومكتبة الهلال،مج1985،1407،1،ص51 .

38 - خالد العيساوي،دراسات في اللغة والقراءات،الأردن،عالم الكتب الحديث،2012،ص 80 - 82 - 92

39 - حامد بن سعد الشنبري،النظام الصوتي للغة العربية دراسة صوتية تطبيقية،القاهرة،مركز اللغة العربية،2004،1425،ص5 .

40 - خالد العيساوي،دراسات في اللغة والقراءات،ص-97 101 .

41 - حركات مصطفى، الصّوتيات والفونولوجيات، دار الآفاق، الجزائر، ص 11.

الاتجاه الإصلاحي في الشعر الجزائري الحديث

أ. عبدا لله لطرش (ج. تلمسان)

1- توطئة:

المقصود بالاتّجاه الإصلاحي في الشِّعر هو ذاك الذي ارتبط بالحركة الوطنيّة الإصلاحيَّة الّتي قادتها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، حيث ارتبط بها جمع غير يسير من الشُّعراء والخطباء والفقهاء فحملوا رسالتها النّبيلة ورايتها الكريمة في التّربية والإصلاح ونشر العلم والثّقافة والوعي للتحرر من ربقة الاستدمار -بتعبير مالك بن نبي- الذي أوغل في تجهيل الأمّة الجزائريّة وبذل الوسع في أن تلحق بالأمّة الفرنسيّة ولكنّه بقوّة الله ثمّ إرادة الشّعب خاب وخسر الخسران المبين.

من البداية سخر شعراء الاتّجاه الإصلاحي أقلامهم وقرائحهم لخدمة مبادئ وغايات شعبهم وأمّتهم، فكانت كلمتهم مدوية ومسموعة أرعبت العدوّ وثبتت الأخ فتبيّن حينها أن الشعر وأهله يتحملون مسؤوليّاتهم بحكمة وأمانة "وإن من الشِّعر لحكمة"، فوجدنا كوكبة من الشُّعراء بأسماء لامعة تلألأت في سماء الجزائر كالنّجوم المضيئة في ليل حالك تجلجل بقصائدها معلنة عن نفسها وانتمائها تدحض الظُّلم والظَّلام وتنشر الفجر وتباشير السَّلام نذكر منهم: أحمد سحنون، محمد العيد آل خليفة، السَّعيد الزاهري، رمضان حمود، مفدي زكريّا، عمر بن قدّور، وغيرهم.

لقد قاد هؤلاء حركة الشِّعر ورسالته التي تحرّر الإنسان وتبني الأوطان بجدارة واقتداء معلنين عن اتّجاههم ومدرستهم بفخر واعتزاز، فاحتضنهم الشّعب والوطن.

II - العوامل الّتي ساعدت في ظهور الاتّجاه الإصلاحي:

عاملين أساسيين وغيرهما مرتبط بهما بشكل أو بآخر:

أولا: الظّروف الدّينية والاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة التي طبعت الحياة العامّة للجزائر والتي كانت مجتمعة قاعدة من القواعد وسببا قويا هيّأت لظهور الشِّعر الإصلاحي، ففي منتصف الثّلاثينات "بدأ الشعب الجزائري يستيقظ من سباته ويبحث عن الطّريق الذي يقوده إلى النّجاة وكان هذا الطريق هو العودة إلى الدّين الإسلامي الصّحيح، مما أدّى بسبب الدّعوة إلى هذا المنبع النّقي إلى اصطدام بين رجال الإصلاح وبين الطرقيّين والمستعمر، ودخل الشِّعر هذه المعركة بوجه سافر، وكانت فلول الطرقيّين تتهاوى تحت ضربات الشّعراء الذين حملوا لواء هذه الدّعوة"[1].

ثانيا: ظهور الحركة الإصلاحيّة، حيث أضحت عاملا قويًّا في ظهور هذا الاتِّجاه لأنَّ أغلبيَّة الشُّعراء الذين ظهروا في هذه الفترة، إنما كانوا يحملون بذور الفكرة الإصلاحيّة وقد لمح لذلك الأستاذ الركيبي قائلا: "هذه الأفكار من تجنيس واندماج، وما صاحبهما من الدّعوة إلى التّبشير ومحاولة التّفرقة بين العناصر التي تشكِّل الجزائري بعامة، تردّدت لا في الجزائر وحدها، بل في المغرب وتونس أيضا، وتبلورت بشكل واضح أثناء احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها الجزائر، كل هذا أدّى إلى أن تظهر

الفكرة الإصلاحيّة لتصارع هذه التيّارات الأجنبيّة وتدافع عن الشّخصية القوميّة وعن الحضارة العربيّة الإسلاميّة"[2].

وهكذا أصبح الشِّعر وسيلة شريفة تخدم المشروع الإصلاحي، ويقرّر ذلك الدّكتور عبد الله الركيبي بقوله: "ارتباط الشِّعر بالفكر الإصلاحي جاء لظروف أحاطت بالأدب والثَّقافة وبسبب عوامل أحاطت بالفكر والمجتمع والسّياسة فأثَّرت في الشِّعر ووجهته لخدمة هذا الفكر"[3].

على أنَّه وجب الوقوف على سؤال ربما يطرحه البعض وهو كالآتي: لماذا ارتبط الشِّعر بالحركة الإصلاحيّة، ولم يرتبط بحزب من الأحزاب الأخرى التي كانت قائمة؟

يجيب الدكتور الركيبي: "...لهذا ارتبط بالفكرة الإصلاحيّة ولم يرتبط بالأحزاب السّياسيّة، لأنّ هذه الأخيرة لم يكن من أهدافها العمل على إحياء التُّراث، خاصة الثَّقافي والأدبي، وإنّما انصبَّت مطالبها على المساواة والعدالة عند فريق وعلى الحرّية و الاستقلال عند فريق آخر، فيما كان رجال الإصلاح لا يرون تقدُّمًا بغير المقوِّمات الأساسيّة للشّعب، من لغة وتاريخ ودين وحضارة، ومن هنا اتَّجه الشِّعر إلى التّركيز على فكرة "الإحياء" وكانت النَّظرة فيه سلفيّة تتّجه إلى الماضي الذي يمثِّل النَّموذج المحتذى"[4].

III - تجلِّيَّات الاتِّجاه في الشِّعر:

وجب التَّنويه بداية أن روَّاد هذه المدرسة قالوا كلمتهم ورأيهم في معظم الأمور ذات الشَّأن والعلاقة بقيم ومثل وتطلُّعات المجتمع الجزائري، لكن في هذه الدّراسة يمكن تحديد ميدانين حسَّاسين هامَّين جال فيهما

شعراؤنا فأثرى لديهم إنتاجا شعريًّا غزيرا زاخرا:

أولا: الميدان الاجتماعي بمفهومه الواسع

ثانيا: الميدان السِّياسي كحامل للقضايا الوطنية

ففي الميدان الاجتماعي حيث يتجلّى الجانب الدِّيني كسمة غالبة على الشِّعر الإصلاحي في عمومه وبطابع أساسي للقصيدة الإصلاحية، فأي موضوع يطرق إلا والنزعة الدينية حاضرة بارزة، وقد اشتهر في هذا المجال الشَّاعر الكبير الشّيخ أحمد سحنون بسبب أنَّه ذهب بعيدا في تفسيره للقضايا من حوله تفسيرا دينيًّا، والمبرِّر حاضر لأنَّه تربَّى تربية دينيَّة محضة كان لها التَّأثير البالغ على رؤيته ومعاملاته، فـ"الدَّارس للأدب الجزائري الحديث يلحظ أن الشّاعر في هذه الفترة كان يتأمَّل واقع المجتمع وما انتشر فيه من أمراض محاولا إصلاحه من زاوية الدين، فتراه يذكر في كل مناسبة بأن الرجوع إلى القيم الرُّوحية واقتفاء أثر السّلف الصّالح هو سبيل النَّجاة وأنَّه لا يصلح آخر هذه الأمّة إلَّا بما صلح به أوّلها"[5].

ولما كانت فكرة الإصلاح تبدأ من الدِّين وتنتهي له، فإن الشَّاعر الإصلاحي لا ينسى لحظة واحدة وفي أيّ قصيدة أن يتحدث عن القرآن والسُّنّة، لأنَّهما المبدأ والمنتهى، وهما الأساس الذي بنيت عليه الفكرة الإصلاحيّة، بقول الشّيخ الطّيب العقبي:

كتاب ربّى حجّتي ما مثله للمرء هاد
وطريق أحمد لي هدى ودليل قصدي والسّناد[6]

ويمكننا في بحثنا لهذا الموضوع الوقوف على سمتين بارزتين تقيمان هذا الاتّجاه هما: "**الدّعوة والصِّراع**".

فأمّا في **الدَّعوة** فإننا نجد قصيدة "المنصفة" للشَّاعر الموهوب "محمد المولود بن الموهوب" والتي تصف واقع الشَّعب الجزائري في العقد الأوّل من القرن العشرين وما حصل له من ممارسة لأمور خارجة عن الدِّين غارقا في الضَّياع سالكا طريق الخرافات والبدع، إذ اعتبرت القصيدة كبداية حقيقيّة للشِّعر الإصلاحي.

يقول الشّاعر:

صعود الأسفلين به دهينا ... لأنَّا للمعارف ما هدينا
رمت أمواج بحر اللهو منّا ... أناسًا للخمور ملازمينا
فكم أكل العقَّار عقار قوم ... أصولهم له أفنوا سنينا
وكم ساق الكحول إلى أنائين ... كحيلا مثل جمعهم أهينا
وكم رقَّم القمار على بيوت ... ديونا وفق قول الغالبينا
وكم داس الرِّبا أعناق قوم ... ولولاه لسادوا منعمينا
نعم إنا شقينا إذ سقينا ... كؤوس الجهل لكن ما روينا
ينادينا الكتاب لكلّ خير ... فهل كنَّا لذلك سامعينا
وسل بدعا نبدع ناكريها ... ونحمل في إقامتها الديونا
تعالوا للسّعادات اطلبوها ... بعلم واتَّقوا الله المتينا
أعينوا واستعينوا واستفيدوا ... فوالي البرّ عون المسلمينا(7)

إنّه بلا شكّ يتقصّى أمراض المجتمع واحدا واحداً، وهذه لازمة في خصائص الشِّعر الإصلاحي، منبِّهًا من خلالها شعور الأمَّة وضميرها من خطر محدّق ومشكلة عميقة قائمة إن بقي الحال على ما هو عليه، فهذه

الخمرة تباع وتشرب في وضح النَّهار، مسبِّبة الإفلاس والضَّياع، والقمار والرِّبا شاعا واتَّسع التّعامل معهما وتنافسهما النّاس فدمّرت بيوت قائمة وفسدت علاقات وأوشاج جامعة ولكنّ الشّاعر لا يكتفي بالتّقرير وفقط وإنَّما يذكر السّبب الرّئيسي الّذي دفع إلى ارتكاب هذه الموبقات القاتلة وهو "الجهل". فالفكر الإصلاحي يركِّز على هذه النُّقطة بالذَّات لأنّ الأمِّية وضعف الثَّقافة وعدم العناية بالتَّعليم، وكذلك الابتعاد عمَّا في القرآن والحديث من هدى ونصح، أدّى إلى ما يتخبَّط فيه المجتمع من حيرة واضطراب[8].

هذه اللّوحة التّصويرية الّتي صوّر من خلالها ملامح المجتمع ليس الهدف منها الوصف وحسب، وإنما الغاية هي النّتيجة المراد الوصول إليها وهي: محاولة إصلاحه باعتماد أسلوب التّقريع واللَّوم.

ويفيض الشَّاعر في أبيات أخرى ببيان تعاليم الإسلام السمحة ومبادئه السامية من كرم الأخلاق، وصفاء النّفس وحبّ واحترام بين أفراد المجتمع لأنّ هدفه ورسالته في الشِّعر ترغيب المجتمع في التّعامل بما جاء به القرآن وأحاديث الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- ليصل إلى دعوتهم للتَّعاون والتّعاضد والتَّضامن وإفادة بعضهم بعضا لأنّ الله يحبُّ الجماعة ويباركها وهذا جلي في قوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البِرّ والتَّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[9]، وهي منهاج أصيل للفكر الإصلاحي.

لقد استمر الشّعراء في تلك المناسبات الدِّينيّة التي كانت على مدار السّنة خاصّة محطّة المولد النّبوي الشّريف على صاحبها -أفضل الصّلاة والسّلام-، فزرعوا أفكارهم ورؤاهم ووضَّحوا أهداف دعوتهم الإصلاحيَّة، فها هو "محمّد العيد آل خليفة" في إحدى مناسبات الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف ينتهز الفرصة لنظم قصيدة عنوانها بـ"سلوا التَّاريخ" يدعو من خلالها إلى الإصلاح مبيِّنًا فضائله ومزاياه:

فديت محمدًا طفلاً يربّى بأحضان العوارف والرّفود
ومقتبل الشّباب يضيء وجهًا ويزكو في الخلائق والقصود
وكهلا داعيا إلى الله حرًّا يدين بدينه شتّى الوفود
وشيخا عابدا لله برًّا وسيم الوجه من أثر السّجود
عليك سلام شعب فيك يؤذى ويرمى بالتعصّب والجمود
وهل شعب الجزائر مستفيق من الأحلام مطّرح الركّود؟
وهل هو بالتحرّر سوف يحظى كأمّة (ليبيا) أو كالهنود؟
ولا يعطى التحرّر غير شعب يجيب إلى المعامع حيث عودي[10]

وبيت القصيد في شعر محمد العيد واضح وجليّ، فهو هنا لا يحتفي بذكرى الرّسول فيخلدها وكفى، إنما يرمي بعيدا في شعره قريبا في دعوته بأن يقتفي الناس منهج محمد نبيّ الأمّة ويأخذوا العبرة في التحرّر والانعتاق من كلّ ربقة ومنها ربقة الاستعمار الفرنسي البغيض.

وفي مشهد آخر نجد أن الشّاعر سحنون يرى في بناء المساجد قضاء على التّخلّف وخطوة في طريق النّصر على الأعداء وتحقيق لراية الصلاح والفلاح في الأمة، فيقول:

تعالوا سراعًا إلى المسجد إلى ملتقى الركّع السجد!
إلى منتدى النّخبة الصّالحين إلى مبتغى الخشّع الهجد!
إلى مشرق النّور للتائهين ببيداء في غيهب أسود!
إلى عرصات الهدى والتّقى إلى مرتقى المجد والسؤدد!
فيا أيّها الأنفس الظّامئات إلى المنهل الطيّب المورد
تعالي اسمعي الحكم الخالدات وسيري إلى الله لا تقعدي
ولا تسمعي لنعيق الألى يروى الظّلالة أن ترشدي
لقد صنع المسجد المعجزات بإنهاض مجتمع مقعد
هنا يشفى جاهل من عمى هنا من يجيء غاويًا يهتد
هنا النّصر للمسلم المهتدي على كل مستعمر معتد[11]

قيلت هذه القصيدة في مناسبة احتفاليّة بمسجد "تازمالت" حيث اعتبرت بأنها بيان صريح في الإصلاحيّين وحركة الإحيّاء في نظرتهم للمسجد ودوره ورسالته، فهو منتدى الإصلاح، ومشرق النّور للتّائهين ومحطّة تتزوّد فيها النُّفوس الظّامئة ومنهل أهل العلم طلاّب المعرفة والسّعادة في الدّارين.

وإذا ذهبنا إلى موضع آخر فإننا نلتقي بالشّاعر "عمر بن قدّور" وهو يبكي على العقيدة الصّحيحة والشّريعة الغرّاء مما لصق بها من استهزاء واستهتار في قصيدة "دمعة على الملّة"، يقول:

أَكَيْدُ اللَّيالي بالسّقوط دهاها ... أم المجد من سوء الفعال قلاها؟
فكم عندها من ألف باغ ... يكيدونها كيد اللئام عداها
رموها وما مسّت يديها جناية ... بفعل قبيح لا يضرّ عداها
وشددوا عليها فانثنت وترشحت ... بغبن الليالي وارتدت بعناها
فهذا يحبُّ المراح واللهو عادة ... يظنّ العلا في خمرة فسقاها
ولما غدت بين اللئام غريبة ... أهينت ببعث الخائنين قواها
وفيكم كتاب الله لازال ناطقًا ... كما كان في عهد الهدى بحجاها
يناشدكم ألا تكونوا أذلّة ... وكونوا أشدّاء ضد بغي عداها[12]

فالشَّاعر هنا يرسم حالة العقيدة الإسلاميّة وما علق بها من بدع وخرافات شوّهت صورتها الحقيقيّة فأضحت مهينة حزينة وحقيرة بين من ينتسبون إليها ويقولون أنَّنا من أتباعها، وهذه اللَّهجة الحزينة والمقرعة كانت سمة بارزة وقويّة تطبع خطاب شعراء الاتِّجاه الإصلاحي أو "حركة الإحياء" كما يسمِّيها البعض، ولأن واجبهم معالجة ما يجب علاجه ومكافحة ما يجب مكافحته لأمراض تنوَّعت وتعدَّدت في المجتمع واستفحلت مخاطرها في أعماقه.

ولعلّ قصيدة "الدِّين الخالص" للشَّيخ الطيِّب العقبي أكبر دليل على منهج الإصلاحيِّين في الدَّعوة والإصلاح، يقول:

ماتت السنّة في هذي البلاد قبر العلم وساد الجهل ساد
وفشا داء اعتقاد باطل في سهول القطر طرا النجاد
عبد الكلّ هواء شيخه جده، ضلّوا وضلّ الاعتقاد
إنّني لست ببدعيّ ولا خارجي دأبه طول العتاد
بل أنا منبع نهج الأولى صدعوا بالحقّ في طرق الرّشاد
لست من قوم على أصنامهم عكفوا يدعونها في كلّ ناد
إنَّني ألعنهم مهما بدا حاضر في إفكه منهم وباد
وأنا خصم لهم أنكرهم كيفما كانوا جميعا أو فراد[13]

هذا عن سمة الدَّعوة، أما السِّمة الثّانية فهي "الصِّراع" والمقصود منها الصراع مع الطرقيّة وبعض الفقهاء المترمّتين الذين كانوا عونًا على الاستعمار بقصد أو بغيره فساهموا في بروز الحالة الاجتماعيّة والدّينيّة بوضع غير سليم ولا صحيح.

إنّ هذا الصِّراع مع البدع وأهله والتفقيه وأتباعه هو في حقيقة الأمر صميم الدَّعوة الإصلاحيّة التي انبرى الشُّعراء لإظهارها والتَّمكين لها، من هذا المنطلق خاض الشُّعراء معركتهم مع هؤلاء، فها هو ذا مثلاً رمضان حمود يصف طريق التصوُّف بأنَّه يقبل الجديد ويعيق التَّقدُّم:

فمن شاء أن يحيا على النّاس مشرفًا ومنعزلاً عنهم يحب التصوّفا
يقدِّم رجلاً ثمّ يدبر عشرة وإن سمع الأقـدام زاد توقُّفا
ويمضي على قتل الجديد من أصله ويرجع للقصر القديم وقد عفا[14]

وأمَّا "الطَّاهر بن عبد السلام" فيصف الطرقيين في سلوكهم وفهمهم المنحرف للدِّين وانخداع النَّاس بهم وبأساليبهم:

لهم طرق شتى بما قد تشرعوا ... وهم عن طريق الشرع عمي البصيرة
لهم من شياطين الأنام عصابة ... تقودهم النّار من غير مريّة
أنابهم الشّيطان عنه لزيفهم ... فهم لضعاف العقل أكبر فتنة
ترى غرر الأموال تجبى إليهم ... فتصرف في مثل الزّنا والسّيئة
وفي شهوات الشّيخ أكل ومنكح ... وأنواع أثواب الرّبا والخلاعة
وفي ملك دور أو شراء مزارع ... ممدّدة الأطراف ذات خصوبة
وفيما بعد من خمور بدارة ... لأضيافه الإفرنج أهل الوجاهة[15]

إنَّهم الطرقيّون في تلك لفترة وكيف أنّ فرنسا بتخطيطها الشّيطاني الماكر الخبيث وظفّتهم لتغرب السّلوك الدّيني الصّحيح وتفتح جبهة الصّراع بين أبناء الوطن الواحد والمجتمع الوّاحد.

نعم هؤلاء الذين كان ظاهرهم الدّعوة إلى التربيّة وفعل الخيرات، لكنّ باطنهم ضلال وزيغ وتيه.

إن أكثر الشعراء قسوة وسخرية بهؤلاء الطرقيين كان الشاعر "السعيد" الذي أنشأ قصائد كثيرة في هجائهم والرد عليهم، يقول:

وزعـــانـــف زعـــمـــوا بـــأ ... نَّـهـم الـضَّـراغـمـة الأسـود
ظـنـوا الـسِّـيـادة في الـلَّـحى ... وبـطـولـهـن وبـالـجـحـود
أبـصـرتـهـم يـتـفـاخـرون ... عـلى الـبـرِّيـة بـالـحـدود[16]

إنَّ المدقّق فيما مرّ معنا من نماذج للصِّراع الذّي نهجه شعراء الإصلاح مع الطرقيّين يقف على استعمالهم لأسلوب الفضح، وهي سمة ارتبطت بالفكر الإصلاحي ومردّ ذلك عندهم أنَّها خطوة أساسيّة للوصول إلى محطّة المكاشفة الحقيقيّة إلى الدّعوة والإصلاح.

ثانيا: الاتِّجاه السّياسي

لقد أولى شعراء "الإحياء" و"الإصلاح" أهمِّية بالغة **للبعد السّياسي** المرتبط أصلاً بالجانب الاجتماعي وذلك لأن نظرتهم تعتمد على الشُّموليّة مع ترتيب الأولويات، ففي زخم الويلات والاضطهاد الذّي كان يسومه الاستدمار الفرنسي للمجتمع الجزائري وطبيعة الجوّ السّياسي المحتقن أصلاً، كان شعراؤنا ينشدون لمبادئ الأمّة والدّعوة، إلى التّمسّك بهويّتها ولغتها، مرغبين الشّعب والرَّأي العام قاطبة في الانعتاق من الظلم والقهر متطلعين إلى الحرِّية والاستقلال.

ولك أن تقف على ما ردَّده "رمضان حمود"، حيث يتغنى بالوطن ويدعو إلى التشبُّث بأرضه:

ويرفع محمّد العيد صوته عاليًا متذمِّرًا من الاستدمار الفرنسي واصفا إيَّاه "بالضَّيف الثَّقيل" طالبًا منه الرّحيلِ:

أطلت بجاني يا ضيف فارحل ... لحاك الله من ضيف ثقيل
مضى عليك منذ نزلت على قرن ... متى يا ضيف تؤذن بالرّحيل؟[17]

إنه تذمر من ضيف غير مرحّب به أصلا لعله يحفّز به الشعب فيقاوم ويتحدَّى ويرتبط بأمل النصر وتحرير الوطن.

وها هو مرّة أخرى يطلق صرخة مدوّية، رافضًا من خلالها مرارة هذا الواقع السياسي المرّ:

يا قوم هبُّوا لاغتنام حياتكم ... فالعمر ساعات تمر عجالا
الأسر طال بكم فطال عناؤكم ... فكوا القيود وحطِّموا الأغلالا
الشَّعب ضجّ من الظَّالم فانشدوا ... حرِّية تحميه واستقلالا[18]

كما ينادي "عبد الكريم العقون" في لهجة واضحة أبناء الوطن بإعادة المجد وأداء الحقوق والحفاظ على الأمانة:

بني وطني أعيدُوا مجد قوم   أقاموه على أقوى عماد
وأدُّوا ما عليكم من حقوق   لشعبكم وذودوا كل عاد
وفكُّوا قيده لا تتركوه   يعاني كل ظلم واضطهاد(19)

وينبِّه "أحمد سحنون" الشَّعب الثَّائر والمرابط أنه لا حرِّية ولا استقلال والخائن المدسوس في الصَّف يهدم ويخرِّب، فكشف الخائن والتصدي له يعني تطهير الطَّريق المعبَّد نحو الانعتاق والحرِّيَّة:

وتصدُّ لليوم العظيم بيقـ   ـظة وترقّـب
طهّر صفوفك من جبان   خائر ومذبذب
ومن الذي يدعو إلى   حزبيّة وتعصب(20)

فهذه العيِّنة غيض من فيض لعمق سياسي أصيل في شعر الحركة الإصلاحيّة، تثبِّت اهتمامهم بالبعد السياسي كركن ووظيفة في الرؤية، والرِّسالة الإصلاحيّة الشَّاملة التّي قدّموا بها أنفسهم لمجتمعهم ووطنهم، فبالرّغم من اهتمامهم العميق بالبعد الاجتماعي والثَّقافي كقاعدة صلبة تسبق الفعل السِّياسي إلَّا أنَّهم أدركوا قيمة حضوره في فعلهم ونشاطهم لأنَّه يثبت وجوده وحضوره بقوّة الواقع اليومي وهو أثر لذاك.

VI - رُوَّاد شعر الإحياء:

أنَّهم بلا ريب كوكبة من الشُّعراء شكَّلت كتلة الجمال والإبداع في مسيرة حركة الشِّعر الإصلاحي، فبرزت في دنيا الأدب والفنّ والثَّقافة كسرب نجوم أضاءت ليلة حالكة، ولك أن تذكر في هذا المقام: رمضان

حمود، السّعيد الزّاهري، محمد بن قدور، محمد العيد آل خليفة، أحمد سحنون...الخ، غير أنَّنا في هذه المقالة نقف على شاعرين كتب لهما الشُّيوع والبروز وهما: "محمّد العيد آل خليفة" و"أحمد سحنون".

محمّد العيد:

شاعرنا من مواليد مدينة "العين البيضاء" بتاريخ 27 جمادى الأولى 1323هـ الموافق 28 أوت 1904، من أسرة متدينة وعريقة ونشأ بمدينته، وحفظ القرآن الكريم وتعلم بمدرستها الابتدائية من الشّيخين "محمّد الكامل بن عزوز" و"أحمد بن ناجي"[21].

درس بالزيتونة سنة 1921، ثم رجع سنة 1923 إلى بسكرة، وشارك في حركة الانبعاث الفكري بالتعليم والنشر في الصحف والمجلات "صدى الصّحراء" للشّيخ أحمد بن العابد العقبي و"المنتقد" و"الشهاب" للشيخ بن باديس.[22]

وفي سنة 1927 دعي إلى العاصمة للتَّعليم بمدرسة "الشَّبيبة الإسلاميّة الحرّة"، كما أسهم في تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريِّين، وكان من أعضائها العاملين، ساهم في عدّة أنشطة مختلفة إلى أن وصل السِّجن بعد اندلاع الثَّورة المباركة[23].

له ديوان شعر يقع في 587 صفحة يعالج القضايا المختلفة (الاجتماعيّة، الدّينيّة، الفكريّة والسِّياسية)، من بين إسهاماته، نذكر هذه القصيدة كمثال:

هيهات لا يعتري القرآن تبديل ... وإن تبدّل توراة وإنجيل
قل للّذين رموا هذا الكتاب بما ... لم يتّفق معه شرح وتأويل
هل تشبّهون ذوي الألباب في خلق ... إلا كما تشبّه النّاس التّماثيل؟
فاغزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا ... في القول هيهات لا تجدي الأباطيل
وازروا عليه كما شاءت حلومكم ... فإنَّه فوق هام الحقّ إكليل
ماذا تقولون في آي مفصّلة ... يزيّنها من فم الأيّام ترتيل؟
ماذا تقولون في بيض صحائفه ... هدي من الله ممضي فيه جبريل؟
كلامه من الصّدق الأمين ولا كذب ... وحكمه الحقّ لا ميز ولا تفضيل(24)

أحمد سحنون:

ولد سنة 1907 بقرية "لشانة" قرب بسكرة، فيها تلقَّى تعلُّمه الأوّلي، ثم انتقل إلى زاوية "طولقة" وكان ذا موهبة قوية ساعدت على صقلها قراءته الحرة واتصاله بالإمام "ابن باديس" وانخراطه في الحركة الإصلاحية.

وفي سنة 1936، عين مديرًا لإدارة مدرسة التّهذيب "بحي بولوغين"، ألقي عليه القبض سنة 1956 وظلَّ ينتقل بين سجون الاستعمار مدَّة ثلاث سنوات، وفي هذه الفترة نظَّم جزءا هامًّا من شعره سمَّاه "حصاد السجن" متأثِّرا بالمحافظين، من آثاره ديوان شعر في أغراض شتَّى وكتاب "دراسات وتوجيهات إسلاميّة"(25).

نأخذ من شعره الواسع هذه القصيدة كمثال عنوانها "الجزائر تشكو":

يا أمّةً جمعتها ... عقيدة الإيمان
وأخوة تلاقوا ... على هوى الأوطان
وأنفسا ظامئات ... للعلم والعرفان
تحيّة من فؤاد ... في حبِّكم متفان
إنَّ الجزائر "تشكُو" ... لكم بدون لسان
تشكو لكم ما تلاقي ... من ذلّة وهوان
تشكو اغتصاب حقوق ... تشكو ضياع أمان
فلتنجدوها لتحي ... كسائر البلدان
بأن تردُّوا إليها ... ما ضاع من زمان(26)

لقد أعطى الشّعر الإصلاحي صورًا حيَّةً لما كان يعيشه المجتمع من مآسي وأحزان، فقد رسم صورة صادقة للمجتمع بكلّ ما فيه من متناقضات في أسلوب يناسب روح العصر، وروح الدَّعوة ويساير الخطابة الّتي شاعت في هذه الفترة، في المسجد وفي المدرسة والشَّارع والمنتديات والمناسبات المختلفة، فهو يعبِّر مضمونًا وشكلاً عن واقع معاصر وعن فترة لها ظروفها وتجربتها الخاصّة ومنطقها الخاصّ أيضا[27].

٧ - الخصائص الفنّية:

أ - اللُّغة والأسلوب:

يقصد بها اللُّغة المستعملة في هذا الشِّعر بخصائصها وكذا الأسلوب المتَّبع في نظم القصائد الّتي كانت دعوة صريحة للإصلاح والإحياء، ذلك أن اللُّغة عامل أساس كما الأسلوب في إبراز قيمة الشِّعر وتجربة الشَّاعر، يذكر الدُّكتور محمّد ناصر في أحد كتبه قائلاً: "إذا كان العمل الأدبي يتوقَّف على الدِّقَّة في الصِّياغة فإنَّ أولى مميِّزات الشِّعر هي استثمار خصائص اللُّغة بوصفها منارة بنَّاءة، فعلاقة تجربة الشَّاعر بلغته أوثق من علاقة تجربة القاص أو مؤلِّف المسرحيّة، وذلك لأنّ الشّاعر يعتمد على ما في قوّة التَّعبير من إيحاء بالمعاني في لغته التَّصويريّة الخاصّة به.."[28].

ومن هذا المنطلق فإنَّنا نؤكِّد أنَّ شعراء الإصلاح امتازت لغتهم وأسلوبهم الشّعريين بثلاث خصائص هي:

ب - الوضوح والسُّهولة:

حيث طبعت هذه الخصِّيصة الشِّعر الإصلاحي بطابع السُّهولة والبساطة، وارتبط هذا في حقيقة الواقع بالمجتمع من جهة وبالشُّعراء أنفسهم من جهة أخرى.

فمن حيث جانب المجتمع لك أن تقف على الواقع بصورة الفقر والحرمان والأمِّية، والاضطهاد، وكلّها سمات تدفع إلى التَّمسُّك بالوضوح في المخاطبة والمقارعة، أمَّا ما كان مرتبطًا بالشُّعراء فإنَّنا نذكر الآتي:

يشرح د. محمّد ناصر قائلاً: "..يلاحظ في لغة الشُّعراء الإصلاحيِّين ما تمتاز به من بساطة ويسر وسهولة ومردّ ذلك يعود فيما نحسب إلى أسباب منها:

السَّبب الأوَّل:أنَّ الشُّعراء الإصلاحيِّين بحكم رؤيتهم التَّقليدية للُّغة لم يحاولوا التَّعامل مع اللُّغة تعاملاً غير عادي باستخدام الرَّمز اللُّغوي أو الإتيان بعلاقات جديدة بين الألفاظ، لقد بقيت اللَّفظة عندهم في حدودها المعجميَّة، فلم يحملوها على غير محملها، ولم يفجِّروا فيها أبعادًا جديدة مدهشةً"[29].

أما السّبب الثاني: فيعود إلى موقفهم ورؤيتهم النَّقدية لوظيفة الشِّعر، فقد كان الشُّعراء آنئذٍ يكتبون لجمهور الشَّعب، ويستخدمون الشِّعر أداة من أدوات الإصلاح، فالواحد منهم إنما يتوجَّه بعمله الشِّعري إلى الغير لا إلى نفسه ويلتفت إلى الجمهور المتلقِّي الّذي يهمُّه أن يفهم عنه ويقتنع بآرائه، ومن ثمَّ فهو يحاول أبدًا أن يكون واضحًا في ألفاظه ومعانيه، يتوخّى البساطة المتناهية في الألفاظ والتّراكيب[30].

ولك أن تتأمَّل في قول "رمضان حمود"، حيث يعرف الشَّاعر الحقّ قائلاً: "لا يسمّى الشَّاعر شاعرًا عندي إلاَّ إذا خاطب النَّاس باللغة التي يفهمونها، بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسقة، إلا أن يكلمون في القرن العشرين بلغة امرئ القيس وطرفة والمهلهل الجاهليين الغابرين"[31].

أما السّبب الثّالث: فيعود إلى طبيعة المعجم الشِّعري الّذي كان متداولاً من طرف الشُّعراء الإصلاحيِّين، حيث كانوا يتقاربون في معجمهم اللُّغوي وتتماثل أساليبهم وصورهم، وتتقارب نظرتهم وتتشابه صياغتهم[32].

وسبب رابع: نعزوه إلى إعجاب أغلب هؤلاء بمدرسة الإحياء العربيّة، بحيث كانوا مدمنين على قراءة أشعار أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومعروف الرّصافي وغيرهم مما ترك أثرًا واضحاً متلمِّسًا في معجمهم الشِّعري وأسلوب الصِّياغة والبناء عندهم.

ومن أمثلة خاصيّة الوضوح شعرًا نورد الآتي:

المثال الأول: يقول الزّاهري

حيّ العروبة في "جمعية العلى" ... وحي ويحك فيها الدِّين والشِّيما
جمعية أخلصت لله نيَّتها ... وللبلاد، فكم ذا تبذل الخدما
جمعية لا تزال الدّهر ماضية ... من يوم نشأتها نحو العلا قدما
جمعية جمعت من بعد ذاك على الـ ... ـقرآن والسنة الغرّاء أهلها
كانوا طوائف شتَّى كلّ طائفة ... تطيع "شيخا" لها في كل ما زعما
إن قال إني "ولّي" صدّقوه وإن ... هو ادّعى الغيب قالوا أحكم الحكما
وإن تعلّم بعض الشَّيء تهجيته ... قليلة، هتفوا، يا أعلم العلماء[33]

ويقول محمّد العيد:

دعاك الأمل ... لخير العمل
فخل الونى ... وهم عن عجل
أضعنا المنى ... بفرط المهل
فهل نفخة ... تزيل النّسل؟
وهل صرخة ... تهزّ القلل؟[1]

ب – التَّقليد والاتباع:

وهي ميزة أخرى أساسيّة ارتبطت بالشِّعر الإصلاحي لا تفقدها عين ولا تخطئها قراءة، ومردّ ذلك لأنَّهم رأوا في المحافظة على القديم والتمسك به هو من صميم المحافظة على التُّراث الأصيل، وهذا بالطّبع كان هدفًا من أهداف الحركة الإصلاحيّة.

يقول الركيبي: "إن حركة التَّجديد ارتبطت بالدِّين ولم تستجب لـ"طه حسين" ودعوته لمراجعة التُّراث ودراسته بمناهج جديدة، كذلك لم تستجب لمدرسة "الديوان" لأنَّها تقف من التُّراث أيضًا موقف النَّاقد وتثور على التَّقليد، في حين أنَّ حركة الإصلاح تلحّ على التُّراث وتتمسَّك به، ومن ثمَّ راحت تشيد بشوقي وحافظ والكلاسيكيِّين الّذين ارتبطوا بهذا التُّراث وأعادوا به مكانته"[35].

ويؤسِّس لهذا المنطق الأستاذ "صالح خرفي" في كتابه "الشعر الجزائري"، فيقول: "الشعر الجزائري في نهضته الحديثة، استمد من رافدين رئيسيين: النهضة الأدبية الحديثة في الشرق، والتراث العربي القديم الذي تعتبر النهضة إحياءً له، وكان للتعلق المفرط بشعراء النهضة الحديثة في المشرق أثر كبير في تركيز الطابع التقليدي على القصيدة الجزائرية التي لم تسعفها الظروف بالاتصال المباشر بالمنابع الأولى"[36].

إنَّ تمسُّك الإصلاحيّين بالقديم إنّما كان ذوقا يطبع على قصائدهم مسحة من الجمال والجلال لأنَّه كان بالنّسبة لهم المثل الحيّ الّذي وجب أن تهتدي به، وها هو ابن رحمون يصدح:

إنَّ الكريم إن التمست وداده ... ألـفـيـتـه مـتـهـلِّـلاً مـتـبـسِّـماً
ورأى الـوداد مبرّة فجزاك عن ... ذاك الـــودّاد مـبــرّة وتـكـرّمـا
أمَّـا اللَّـئيم فـإن طلبت وداه ... ألـفـيـتـه مـتـجـهِّـمـا مـتـبــرّمًا
وأراه طبع الـلـؤم ودّك قـردبة ... تـبـغـي بـهـا مـمـا لـه لـك مغنما
وإذا عـرضـت أمــرًا نـفـعـه ... لكما تعرّض في القبول وحمحما
وتـنـصّل الأعـذاريخفي خلفها ... ما قد نواه من النُّكوص وحمما[37]

وفي موضع آخر لنتأمَّل شعر محمد العيد، لنجده مرتبطا بنزعة التقليد فلا يكاد يبرحها، لأنها دافع قوي في قرض الشعر:

فــازالمجـد المـغـنّـى بـمـرامـه ... فـتـنـافـس الأمـجـاد في إكـرامـه
قد هيّأت خضر الريّاض طيورها ... لـكـلامـه وزهــورهــا لـسـلامـه
ودنــت لـه كـل المنـى وأطـاعـه ... حتّى الزّمان فعاد من خدامه
الله راعــي صـدقــه في سـعـيـه ... معد فلم يحرمه من أنعامه
وهـوالـذي أدنـى إلـيـه مقامه ... شكرا فمن ذا يزدري بمقامه
قـد أدرك ابن العلم غايته الّتي ... يصبو إليها منذ عهد فطامه
مـازال في طلب الحقائق هـائمًا ... حتى شفى منها غليل هيامه[38]

ج -المتانة والجزالة والقوّة:

وهي في مدلولها تدلُّ على تمكن جيد من ناصيّة اللُّغة وخصائصها وألفاظها ومفرداتها ممَّا جعل معجمهم الشّعري غني بالألفاظ الجميلة وكما أنَّه أصبح معجما ثريًّا واسع الثَّراء ولغتهم تجلَّت صحيحة وسليمة بسبب أنَّهم لم يتساهلوا أبدا في استخدام لغة ضعيفة أو تعبيرات ركيكة أو عبارات سقيمة، يقول "سعد الله": "ولعلَّ أكثر ما يميِّز الشِّعر الجزائريّ جزالة اللَّفظ وحبّك العبارة والمحافظة على القوالب العتيقة"[39].

فالاقتباس من القرآن الكريم وظّفه الإصلاحيُّون بمهارة وذكاء فأعطى لألفاظهم المتانة والقوَّة.

ومثال ذلك ما أورده "محمّد العيد" في قصيدة "هذيان آشيل":

فليس فيه لأعلى النَّاس منزلة (عدن) وفيه لأذى النَّاس "سجيل"

وهو واضح هنا لأن الاقتباس تم من سورتي (البيِّنة والفيل).

وفي موطن آخر يشير إلى الاختراع الحديث:

أشار إليه الله في الذِّكر قائلاً "ويخلق ما لا تعلمون" ليطلبا

ويقول أيضا:

ويا أيُّها الإنسان (إنَّك كادح إلى الله كدحا) ما خلقت لتلعبا[40]

ونجد مفدي زكريّا مقتبسًا أيضًا وهو من الّذين أكثروا، يقول:

أنا راض إن عاش شعبي سعيدًا[41] واقض يا موت في ما أنت قاض

VI - الصُّورة الشعرية:

وهذه الخاصِّية الفنِّية في حقيقة الأمر صبغت بالضُّعف في الشِّعر الجزائري عمومًا وعند الإصلاحيِّين بشكلٍ خاص، يورد د. محمد ناصر قوله: "قد لا يكون من قبيل التعجل في الحكم القول بأن الجانب الفني في الشِّعر الجزائري في هذا الاتجاه ظل في الأغلب الأعم ضعيفًا وأنَّ ضعفه يرجع أساسًا إلى ضعف عنصر التَّصوير فيه"[42].

رغم هذا التَّقرير فإنَّه لا يمكن أن نصدر حكمًا قاطعًا بأنَّ الصُّورة كانت غائبة تمامًا ولكنّ المراد هو أن حضور هذه الخصّيصة كان ضعيفًا فوجب التّنبيه.

وللوقوف على اهتمام شعراء الإصلاح بالصّورة الشِّعرية نورد خصائصها ويمثِّل لذلك من شعرهم.

أولا: الوضوح والابتذال : والمقصود هنا أنه كلَّما كانت الصُّورة واضحة فإنها لا تستحق استعمال الخيال الواسع أو بذل الجهد في فكّ الرُّموز وتشفيرها.

ومثال ذلك ما قاله الشَّاعر سحنون في قصيدة "يا بلادي":

كلّ شيء نسيته يا بلادي   وتلاشت أطيافه من فؤادي
غير ذكراك فهي تكمن في قلبي   كوت اللظى بقلب الرّماد
والشّذا في الزّهور والحبّ في   الأشجاء والكبريّاء في الأطواد
فإذا ما بدا الصّباح تجلّت   أغنيّات سحريّة الإنشاد
وإذا ما دحا الظَّلام تراءت   في طيوف تحوم حول وسادي
وإذا ما بلابل الدّوح غنت   قلت: صوت الحمّى إلى المجد حاد
وإذا ما الريّاض أبدت حلاها   قلت حسّن من (الجزائر) باد(43)

والشّاعر صالح خرفي يقول:

خيّروني أبالجزائر أنس   أم طوى شعبها المكافح رمس
أنهج خيّم السُّكون عليها   وأناس بيّن المنازل خرس
سكنت لا سكون عمر وكانت   كعباب الخضمّ تطفو وترسو(44).

إذاً، الصّورة واضحة الشّاعر يبتذل في تقديمها سهلة ميسِّرة بعيدة عن جنوحها للخيال الواسع المفرط.

ثانيا: الحسِّية والشَّكليّة: ومؤداها أن نصف الشيء وصفًا حسّيًّا شكليًّا، كما هو بخصائصه وأركانه، "والمراد بالحسِّية والشَّكليّة ميل الشُّعراء إلى وصف الأشياء وصفًا حسِّيًّا يتناول الخصائص الثَّابتة كاللَّون والحجم والشّكل والوقوف عند هذه الجوانب التي تعتمد أساسًا

على حاسّتي البصر والسمع دون التَّغلغل إلى مواطن الأشياء والنّفاذ إلى جواهرها باستخدام الحدس والخيال لتحفيز الوعي والمنطق والعقل"[45].

ومثال ذلك ما جاء في شعر "رمضان حمود":

أنظر إلى الكون البديع بنوره ... وظلامه وسكونه الرُّوحاني
ونسيمه وهبوبه ومياهه ... وخريرها وجمالها الفتّان
وسحابه بسمائه متقطعا ... عند الغروب وهو أحمر قاني
متشتِّتاً كالفلك في إمسائها ... فكأنَّه قطع من المرجان
وسهوله ممتدَّة ومروجه ... خلاّبة بتناسق الألوان[46]

ثالثا: الجمود وعدم التَّعاطف : والمعنى أن تقدّم الصّورة وتعطى جامدة تماما كالشيء الذي تلامسه اليد أوتبصره العين، ومن هذا المنطلق كرس الشُّعراء هذه الخصّيصة في شعرهم مما طبع قصائدهم بالجمود وانغلاق النفس، فلا خيال ولا إيحاء.

ولك أن تقف مع أحمد سحنون في هذه القصيدة:

يا صامتا يتكلّم ... وضاحكاً يتألَّم
ويا خطيبًا بليغاً ... ومعرباً وهو أعجم
ومانحا كل سرّ ... لشاعر يترنَّم
لكنَّه عن سواه ... بسره يتكتَّم
يا راضيا مطمئنًّا ... وساخطا يتبرَّم
ويا حليفا وقورا ... وثائرا ليس يرحم[47]

ويقول محمد العيد في موطن آخر:

يا بحر أفديك بحرًا ... ملكت قلبي سحرًا
تبدو مياهك زرقاً ... للنَّاظرين وخضرًا
فليس لونك ليلاً ... تمثل لونك فجرًا
وليس لونك صبحاً ... تمثّل لونك ظهرًا[48]

VII - البنية العامّة: ونقصد بها الإطار العامّ الّذي يمشي فيه الشُّعراء من حيث النّبرة الخطابيّة والتّعبيروكذا الصِّياغة اللّفظية التي استعملوها في قرض الشعر.

أوّلا: النّبرة الخطابيّة:

ولعل أول مظاهر طغيان النبرة الخطابية في القصائد العموديّة هو ارتكازها الشديد في صياغتها العامّة على الأدوات المستعملة في الخطب عادة كأدوات الاستفهام، والأمر والنَّهي، والتَّوكيد والنِّداء والإكثار من صيغ التَّعجب والإنكاروالتَّحريض والتَّخصيص والقسم...الخ.

يقول محمّد العيد مستفهما:

علام يظلّ دهرك مستريباً تسأله ويأبى أن يجيبا؟[49]

فالتّشبيه والتحضّض يحتلاَّن مكانتهما بسبب أن الشَّاعريعتمد الاهتمام بهذا الغرض في شعره إمَّا اهتماماً بشعره أو لأفكار الإصلاح والإحياء التي يدعولها. كقول ابن السّائح:

ألا دع التغزّل في غوان فتلك طريقة المستهترينا[50]

أوكما جاء في استعمال كلمة "هيهات" اسم فعل آخر:

هيهات أن يعتري القرآن تبديل وإن تبدَّل توراة وإنجيل[51]

يقول الركيبي: "مادام أنّ الدّعوة الّتي حملها هؤلاء الشّعراء كانت الدّعوة إلى الاستفاقة واليقظة، فإنّهم عمدوا سواء بشعور أم بغيرشعور إلى استعمال ألفاظ معينة مثل الإنذاربالخطر، ومن ثمّ تعتمد القصيدة على الاستفهام والإنكاروالتعجّب والنِّداء والتَّحريض والأمروالنَّهي...".

يقول الزّاهري:

ضقت ذرعا برحب هذا الوجود | وبقوم طول الزمان رقود
أوجه مثل أوجه الناس لكن | خشب من خلالة وجمود[52]

ثانيا:الصيغة اللفظية: وهي الاعتناء بصياغة الألفاظ وإخراجها في قالب جميل.

يقول د. ناصر: "ولعلّ هذه الميزة تدلُّ على الجهد الّذي يبذله شعراء هذا الاتِّجاه البياني، فقد كانوا فيما يبدو شديدي العناية بقصائدهم يجودونها تجويدًا، ويحتفلون بها احتفالاً وإن هم تفاوتوا في مقدار هذا التّجويد والاحتفال"[53].

يقول أحمد سحنون شعرًا:

ما أحوج القرآن للسُّلطان | لو آمن السُّلطان بالقرآن
كما يطبق حكمه بنفوذه | وبذا تتمُّ سعادة الإنسان
وبغير قرآن وسلطان معًا | ينهار ما قد شيّد من بنيان
ويعيش أبناء البسيطة مثلما | تقضي الحياة فضائل الجيران
النّاس بالقرآن والسُّلطان في | عزّ وحرز وظلّ وأمان[54]

ويبكي "ابن رحمون" على حال الضّاد:

قل لي أخي ذاك الصّراح عزائي | أم فيه كان تفجّعي وعناقي؟
وهل أنت تصدح في الخمائل والرُّبى | عن غبطة أو عن أنس ورثاء؟
يا ويح نفسي كم يجرعها الزّمان | وصرفه من علقم الأرزاء
لما وقفت حيال أطلال أرى | ما شاد قومي من عظيم بناء[55]

VIII - الخاتمة:

لقد كان لظهور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين حاملة لواء الفكر والإصلاح في الجزائر أثر عظيم في تجميع كوكبة من الشُّعراء، سخروا أقلامهم وقريحتهم لخدمة مشروع الإحياء والبعث في وطن استوطنه الغرب المسيحي بقيادة فرنسا.

وقد بدا على شعرهم هذه الرسّالة التي أفنوا حياتهم في صدقها متأثِّرين بإخوانهم في مدرسة الإحياء الشَّرقية، فاستفاد الشِّعر العمودي من بنية أخرى ليجاهد هو الآخر دفاعاً عن قيم هذه الأمَّة وهويَّتها ومبادئها.

لقد خدم الاتِّجاه الإصلاحي من خلال الشِّعر اللُّغة والفكر والأخلاق، فكان سبباً من أسباب نشر الوعي ومحاربة الجهل وتصحيح العقيدة والانتماء لمجتمع أريد له أن يتمسَّح وأن يلحق طول عمره بالآخر.

الهوامش:

1 - الوناس شعباني – تطوّر الشِّعر الجزائري الحديث من 1954 حتى 1980، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر – 1988، ص25.

2 -عبد الله الركيبي، الشّعر الدّيني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر- 1980، ص36.

3 -عبد الله الركيبي، الشّعر الدّيني الجزائري الحديث، ص560.

4 -المرجع نفسه، ص 561.

5 -المرجع نفسه، ص563.

6 -المرجع نفسه، ص576.

7 -المرجع نفسه، ص(563 - 567).

8 -المرجع نفسه، ص564.

9 -المرجع نفسه، ص566.

10 - محمد العيد آل خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، مطبعة البحث، قسنطينة 1967، ص (198 - 201).

11 - أحمد سحنون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1980، ص138.

12 - عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 568، 570.

13 - المرجع نفسه، ص (591 - 592).

14 - المرجع نفسه، ص 593.

15 - المرجع نفسه، ص (595 - 597).

16 - المرجع نفسه، ص 597.

17 - محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص515.

إنَّ قلبي في عشقها لا يبالي تنطوي الأرض أم يخرّ سماها

قد قضى الله أن تكون كصوت وقضى أن يردِّد روحي صداها(17)

18 - نفس المصدر، ص339.

19 - الوناس شعباني، نفس المرجع، ص50.

20 - أحمد سحنون، الديوان، ص126.

21 - أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، طبعة ثالثة، 1984، ص86.

22 - أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص88.

23 -المرجع نفسه، ص89.

24 -محمد العيد، الديوان، ص85.

25 -المختار في الأدب والقراءة، السنة الثالثة ثانوي، الفرع الأدبي، ص150.

26 -أحمد سحنون، الديوان، ص107.

27 -عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص628.

28 -محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، طبعة الأولى، 1985، ص276.

29 -المرجع نفسه، ص287.

30 -المرجع نفسه، ص287.

31 -المرجع نفسه، ص288.

32 -عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 708.

33 - صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، طبعة الأولى، سنة1986، ص(101 - 102).

34 -محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص233.

35 -عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص635.

36 -صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص338.

37 -ابن رحمون مصطفى، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى فترة 1980، ص125.

38 -محمد العيد، الديوان، ص89.

39 -عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص708.

40 -أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص216.

41 -مفدي زكريا، اللهب المقدس، دار الكتاب، بيروت، طبعة أولى سنة 1961، ص117.

42 -محمد ناصر، المرجع السابق، ص 422.

43 -أحمد سحنون، الديوان، ص101.

44 -صالح خرفي، أطلس المعجزات (ديوان) المؤسسة الوطنية للكتاب، طبعة أولى، ص1985، ص47.

45 -محمد ناصر، المرجع السابق، ص445.

46 -محمد ناصر، المرجع السابق، ص446.

47 -أحمد سحنون، الديوان، ص34.

48 -محمد العيد، الديوان، ص63.

49 -أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص700.

50 -المرجع نفسه، ص700.

51 -المرجع السابق، ص700.

52 -أحمد سحنون، الديوان، ص140.

53 -المصدر نفسه، ص140.

54 -المصدر نفسه، ص140.

55 -ابن رحمون، الديوان، ص137.

الدّلالة الصّوتية في ديوان (مآسي وأين الآسي؟) لأبي الحسن علي بن صالح الجزائري 1906-1988م

د/يوسف بن نافلـة (ج.حسيبة بن بوعلي - الشلف)

المتأمل في التراث الأدبي الجزائري يجده تراثا نفيسا شاملا لعلماء أجلاء تركوا بصماتهم في الساحة العلمية ، والأدبية ، فهم بحقّ نجوم القمّة، وأعلام الأمة الخالدة بخلود رجالها ،وعلمائها الأجلاء، ومن الشعراء الجزائريين الذين خلدوا أسمائهم في التاريخ الناظم أبو الحسن علي بن صالح الغرداوي الجزائري، فارتأيت أن أتناول الصوت ،ودلالته،ووظيفته في ديوانه (مآسي وأين الآسي؟).

مفهوم الدلالة :

أ- في اللغة : جاء في معجم لسان العرب (مادة دلل) :"الدالة :ما تدل به على حميمك ، والدليل :ما يستدلّ به.وقد دلّه على الطريق يدلّه دَلالة ودِلالة ودلُولة ، والدليل ،والدليلي:الذي يدلّك ، والجمع أدلّة وأدلاّء،والاسم الدِّلاة والدَّلالة بالكسر والفتح، والدّلولة، والدليلي. ثم يستدل بقول سيبويه (ت180هـ):والدليلي علمه بالدلالة ،ورسوخه فيها . ودللت بهذا الطريق :عرفته .ودللت به أدلّ دلالة ،وأدللت بالطريق إدلالا،والدليلة المحجة البيضاء ،وقوله تعالى : (ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلا).

والدلال : الذي يجمع البيعين ،والاسم الدّلالة ،والدّلالة ، والدِّلالة:ما جعلته للدليل أو الدّلال. [1] وأدللت بالألف لغة والمصدر دلولة، والاسم الدلالة بكسر الدال وفتحها وهو ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه ،واسم الفاعل دال ودليل وهو المرشد والكاشف ،ودلت المرأة دللا،ودلا من بابي تعب وضرب وتدللت تدللا .والاسم الدلال. [2]

ب- **في الاصطلاح:** يرى العلامة التهانوي (ت1158هـ) في الكشاف:(الدلالة بالفتح هي على ما اصطلح عليه أهل الميزان،والأصول،والعربية،والمناظر، أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر .،والشيء الأول يسمى دالا ،والشيء الآخر يسمى مدلولا).[3]

ويرى محمود عكاشة أن ّ علم الدلالة (سيمونتيك) هو العلم الذي يتناول المعنى بالشرح والتفسير ،ويهتم بمسائل الدلالة وقضاياها،ويدخل فيه كل رمز يؤدي معنى؛ سواء أكان الرمز لغويا أم غير لغوي .

ويعد علم الدلالة أهم فرع من فروع علم اللغة ،وأنّ اللغة موضوع علم اللغة وضعت للتعبير (أو للدلالة) عما في نفس متكلمها ،وكل الجوانب اللغوية الأخرى هدفها تبيين المعنى على نسق واضح سهل الفهم، وجميع فروع اللغة تشارك في الدلالة ولا يمكن الفصل بينها وبين علم اللغة،وكل فرع منها يساهم بدوره في الدلالة في إطار مجاله . [4]

وهو العلم الذي يتناول المعنى بالشرح والتفسير ،ويركز على مسائل الدلالة وقضاياها،ويتعلق ذلك بكل رمز يؤدي معنى سواء أكان الرمز لغويا أم غير لغوي، (مثل الحركات ،والإشارات ،والهيئات،والصور،والألوان، والأصوات غير اللغوية ،وغير ذلك من الرموز التي لها دلالة تؤديها عن طريق التواصل الاجتماعي .

الدّلالة الصّوتية : يدرس علم الأصوات اللغة المنطوقة ،وهو فرع من علم اللغة ، وينفرد عن غيره من الفروع بأنه يهتم بشطرها المنطوق أو الملفوظ فقط ،كما أنه يهتم بأدق وأصغر الوحدات الدلالية في اللغة،والأصوات أصل طبيعة اللغة ،أما الكتابة فهي لاحقة عليها ورمز الصوت .

وتقسم أصوات اللغة إلى ضربين هما:الصوامت،والصوائت،الصوامت: الأصوات التي تتعلق بمخرج معين يعترض الهاء الصادر من الحنجرة حين إصدار الصوت المراد اختياره، وهذا النوع يشكل معظم أصوات العربية. والأصوات الصائتة هي التي لا يعترضها عضو من أعضاء النطق،أو لا تنطق بمخرج صوتي يثني النفس (الهواء الصادر من الحنجرة)عن امتداده، فيكون الصوت أثناء نطقها ممتدا حرا لا يعوقه حتى ينفذ،ويمثل هذا النوع أصوات المد أو اللين أو العلة (الألف ،الواو ،الياء حال سكون الواو ،والياء .)،والحركات القصيرة تعتبر أبعاض هذه الأصوات أو جزء منها ،لكنها لا تبلغ مقدارها من ناحية الطول ،وكمّ الهواء المندفع ،وهذان النوعان (الصامت ،والصائت) يشاركان في الدلالة أكثر من الحركات القصيرة .

وتتحقق الدلالة الصوتية في مجال تأليف مجموع أصوات الكلمة المفردة ،وتسمى بالعناصر الصوتية الرئيسة ،والتي يرمز إليها بالحروف :أ.ب.ت.ث.ج........،ويشكل منها مجموع حروف الكلمة التي ترمز إلى معنى معجمي .[5]

وتتحقق هذه الدلالة أيضا من مجموع تأليف كلمات الجملة ،وطريقة أدائها الصوتي، ومظاهر هذا الأداء ، وتعرف باسم العناصر الصوتية

الثانوية ،وتعتبر هذه العناصر أكثر إسهاما في مجال الدلالة من العناصر الصوتية التي تتعلق بالكلمة المفردة .ويطلق العلماء على الأصوات الصامتة ، والأصوات الصائتة المقطع الأولي ،أو الصوت التركيبي ، وهو أصغر وحدة صوتية ، ويشمل السواكن والعلل.

التعريف بالشاعر أبي الحسن علي بن صالح الجزائري : هو أبو الحسن علي بن صالح بن عمر بن إبراهيم بن أحمد بن صالح بن مرزوق من مواليد 1324هـ الموافق لـ1906م بمدينة القرارة ،ولاية غرداية،ترعرع في أحضان عائلة محافظة على العادات ،والتقاليد ،والدين الحنيف، تتلمذ على يد علماء أجلاء أمثال الشيخ محمد بن الحاج الطرابلسي،ثم أتم حفظ القرآن الكريم وهو لا يتجاوز سن الثانية عشر من عمره. التحق بالبعثة الميزابية العلمية إلى تونس وهو ابن الحادية عشر ،ثم قاطع دراسته لظروف اجتماعية ،وعاد إلى بلاده سنة 1923م فواظب على حلقات العلم .

ولما تأسست في بسكرة أول مدرسة عربية حرّة سنة 1928م كان بها مديرا ،ومعلما ،وقد لاحقته السلطات الاستعمارية الفرنسية بإلحاح لما رأت فيه من جرأة في خدمة الدين،واللغة والوطن ،وكان ذلك سببا في عدم استقراره ،وفي سنة 1931م انتقل الشاعر إلى مسقط رأسه بمدينة القرارة .

وقد برز الشاعر أبو الحسن علي بن صالح على الساحة الأدبية ضمن جماعة من الشعراء في عصره ،وعلى رأسهم شاعر الثورة مفدي زكرياء ابن منطقة وادي ميزاب ،ومحمد العيد آل خليفة ،ورمضان حمود،وغيرهم .

عُرف الشاعر بحبه للوطن حتى النخاع ،ودفاعه المستميت عنه، رافضا لكل ظلم واستبداد ،متأثرا بأفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،وقد لقي من الاحتلال الفرنسي الغاشم مرارة الحياة ،وضنك العيش مثل غيره من دعاة الحق ،وأعلام الإصلاح في الجزائر، وقد لاحقه الاحتلال بإلحاح بسبب جرأته ،إيمانه بالحق ،وحبه الشديد لوطنه،وعدم خوفه في الله لومة لائم ،وإخلاصه في خدمة الدين،واللغة،والوطن المفدّى.

انضمّ الشاعر إلى الثورة المباركة ،وعزم على محاربة العدو المحتل باللّسان ،إلى جانب القلم واللسان، فاعتقل في الأربعينيات ،ولم يطلق سراحه إلاّ قبيل اندلاع الثورة التحريرية المجيدة سنة 1954م،ولما تكونت الولاية السادسة التاريخية كان من الأوائل الذين التحقوا بجبل "بوكحيل " الذي دوّخ فرنسا قرب ولاية بوسعادة ،وله في العمل الثوري مواقف مشرّفة ،وكان منزله من الأماكن التي يتردّد عليها المجاهدون ،وقد تعرض لعنت شديد ،حيث ألقي القبض على ولديه "بكيرومحمد"، ولم يجتمع شمل العائلة إلاّ بعد الاستقلال .

انتقل بعد الاستقلال إلى الجزائر العاصمة ،وعُيّن أستاذا في التعليم الرسمي بإكمالية القبّة بالعاصمة .

توفي رحمه الله يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من محرم 1409هـ/ الموافق للسادس من سبتمبر 1988م بمنطقة غرداية .

خلف الشاعر آثارا مختلفة،منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط،وهي على النحو الآتي :

1 -ديوان أبي الحسن علي بن صالح ، طبع بالمؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1984م،ضمن سلسلة "شعراء الجزائر ،يحتوي على تسع ومائتي صفحة .(209ص).

2 -ديوان "مآسي وأين الآسي؟"طبع بالمؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1988م،في ست وثلاثين ومائة صفحة (136ص) ،من الحجم الصغير (شكل كتيب).

3 -ديوان "شاعرثائر"توفي قبل أن يتم طبعه .

4 -مجموعة كبيرة من القصائد المخطوطة .

5 -مذكراته ،ورسائل هامة مخطوطة .[6]

الدلالة الصّوتية في ديوان الشاعر أبي الحسن علي بن صالح :

المراد بالصّوت في عرف أهل الاختصاص آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ،ولن تكون حركات اللسان لفظا ،ولا كلاما موزونا إلاّ بظهوره [7]

وحدّ الصّوت اللغوي هو الصّوت الصادر من جهاز النطق الإنساني، وينشأ من ذبذبات مصدرها في الغالب الحنجرة لدى الإنسان، فعند اندفاع النفس من الرئتين يمر بالحنجرة فيحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم أو الأنف ، تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن."[8]

وتنقسم الأصوات في اتفاق اللغويين إلى أصوات صامتة CONSONANTS وتعرف عند العلماء بالحروف ، وأصوات صائتة VOWELS ويسميها القدماء الحركات .

أمّا ما يتعلق بموضوع العلاقة بين الصوت والدّلالة ، أوما يعرف بالدلالة الصوتية ، فقد كان محل اهتمام كثير من العلماء و الباحثين،وخاصة ما يتعلق بما يعرف بالتطريز الصوتي كالنّبر،والتنغيم،والوقفات،أو السكنات ، أو الفواصل ،ودرجة الصوت وصفته ،وقوته ، وانطلاقا من كل ذلك حاولت تتبع الصوت ودلالته في الخطاب الشعري الجزائري عند الشاعر أبي الحسن علي بن صالح من خلال ديوانه(مآسي وأين الآسي؟)

فمن الظواهر الصوتية الدلالية التي وردت في الديوان نجد :

1 - الانسجام الصوتي : كقوله:

إنما الدنيا وإن ما ست فأغرتنا مآسي

لم أجد في صيدليا ت الدواء مرهمَ آسي

أين آسٍ عبقريٍّ بارعٌ يمحو المآسي؟

صدمتنا رغم تنقي بٍ جرى صخرة يأس [9]

فنلاحظ أنّ الشاعر قد استطاع تحقيق الانسجام الصوتي الرائع بين الكلمات، وخاصة في اختياره لحرف السين ، وهو حرف مهموس في الكلمات :مآسي ،وآسي ،والمآسي ،ويأس، وبأس.. وذلك للدلالة على الحالة النفسية للشاعر، انطلاقا من حديثه عن حقيقة الدنيا وتكالب الناس عل ملذّاتها ،ونجد الانسجام الصوتي أيضا في حديثه عن "مأساة سقوط غرناطة " وذلك حين قال :

أرى الجزيرة عقدا غاليا قطعت أطرافه ،وعتت في الحكم أشراف
فصال صولة أساد الشرى وبدت معارك الحرب والأهوال أصناف

قف واعتبر،واتّعظ حيال أندلس   تر الأعادي حول الدور قد طافوا
فقتّلوا صبية بل مزّقوا مهجا   وأحرقوا ، مثّلوا، والله ما خافوا

فنلاحظ أن ّ الشاعر قد استطاع أن يحدث انسجاما صوتيا جميلا، ونغما عذبا، وخاصة في (أشراف ،وأصناف ،وأساد ،ومعارك ....كلّ ذلك للدلالة على الحالة النفسية الممزّقة التي يعيشها الشاعر حين وصف نكبة ومأساة سقوط الأندلس .

ونجد هذا الانسجام متوافرا بكثرة في ديوان الشاعر

2 - **الإتباع :** وهو أن تحرك ما قبل الحرف الأخير إذا كان ساكنا حركة الحرف الأخير في الرفع والجر نحو :هذا بكر ومررت ببكر "[10]

وقد ورد ذلك في قوله :

ألم يك فيك يا رمضان بدر   بها عزّ الهدى والشرك ذلاّ.[11]

وقوله :

هكذا الدّهر يُسقط التيجانا   ويُذل الأمير والسلطانا

وقوله :

في ارتكاب الجرائم الموبقات   السود قد أطلق اليهود العنانا

وغيرها من الأبيات التي ورد فيها الاتباع في الديوان .

3 -**التلاوة :** وهي مراعاة مخارج الحروف بالترتيل والتجويد[12]

من ذلك قول الشاعر :

من لي بأحرف مارج من نار   فأخط من شواظها أشعاري

وأصوغ من لهب الحماس قذائفا   ترمي العدى بسواعد الثوار.

لنحرر القدس الشريف وما حواه   المسجد الأقصى من الأسرار[13].

فنجد أنّ الشاعر قد كان يراعي مخارج الحروف في الأداء الصوتي للكلمات : مارج ،نار ،ولهب ،وقذائف ،والعدى ،والثوار ،و غيرها من الكلمات في الديوان

4 - **الجرس الموسيقي** : وهو في الاصطلاح إجمال الخطاب الإلهي الوارد على القلب بضرب من القهر ،ولذلك شبّه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بصلصلة ا لجرس ،وبسلسلة على صفوان ،وقال أنه أشدّ الوحي؛ فإن كشف تفصيل الأحكام من بطائن غموض الإجمال في غاية الصعوبة .[14]

والجرس هو الظاهرة الصوتية التي تميزبين الأصوات الموسيقية بعضها عن بعض ،وركّز النحويون على ثلاثة أجراس رئيسة من الحركات الطويلة أي:(ا)،و(ي)،و(و) والمراد بهذه الحركات: الفتحة الطويلة،والكسرة الطويلة ، والضمة الطويلة[15] . وقد ورد ذلك عند الشاعرفي مواضع كثيرة من ذلك قوله :

قسما بعاصفة الجهاد الأقدس   وبفتحه وذرى جبال الأطلس

لنحطمنّ عصابة النازيين   والباغيين ،من عاثوا ببيت المقدس [16]

فنجد أنّ الشاعر قد استطاع تحقيق الجرس الموسيقي العذب، وخاصة في اختياره لحرف السين مثل الأقدس،والأطلس، والمقدس، وكذلك في بقية الأبيات من القصيدة في حديثه عن عاصفة الفتح المبين،

فنجد في الأبيات الموالية الجرس الموسيقي في الكلمات :الأنحس، والأكيس، وأيبس، ومبلس ، ومؤنس ، والأهوس ، والمفلس، ومدلس، وأشوس وأدنس، والأشرس ...والقصيدة تقع في ثلاثين بيتا .

5- الإيقاع : والمقصود به حركة النغم الصادرعن تأليف الكلام المنثور والمنظوم ،والناتج عن تجاوز أصوات الحروف في اللفظة الواحدة،وعن نسق تزاوج الكلمات فيما بينها ،وعن انتظام ذلك كله شعرا في سياق الأوزان والقوافي ."[17]

وينقسم الإيقاع إلى قسمين هما :

أ- الإيقاع الخارجي : والمراد به الوزن والقافية في القصيدة الشعرية، وهذا ما يعرف بعلم العروض .

ب -الإيقاع الداخلي : والمقصود به إحساسات الشاعر بالحروف، والكلمات ،والعبارة إحساسا خاصا، بحيث تجيء في النص ،أو أجزاء منه متسقة أو متجاوبة ،وبمعنى آخر الإحساس بجماليات اللغة ،وقيمتها الصوتية ،والتركيبية ."[18]

ويتكون الإيقاع الداخلي من العناصر الآتية : التكرار، والجرس، والسجع، والموازنة. والمقاطع الصوتية،والكمية،والنّبر ،والتنغيم، والمماثلة، والمخالفة ، والتّضاد.

أمّا عن الموسيقى الخارجية فقد التزم الشاعر أبو الحسن علي بن صالح في ديوانه (مآسي وأين الآسي؟) بعدة بحور خليلية في قصائده ،من ذلك اختياره لبحر الطويل :وتفعيلاته: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعلن.

كقوله :

سأمضي وتبقى صورتي في الدفاتر   خيالا توارى في ضمير الجزائر .[19]

وبحر المجتث :وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلاتن   مستفعلن فاعلاتن

في قوله :

إنّما الدنيا وإن ما   ست فأرتنا مآسي .[20]

وبحر البسيط : وتفعيلاته:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

في قوله :

أرى الجزيرة عقدا غاليا قطعت   أطرافه ،وعتت في الحكم أشراف .[21]

وبحر الخفيف، وتفعيلاته هي :

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن   فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

كقوله :

لايسير الزمان حسب هوانا   تارة عزّة وطورا هوانا [22]

وبحر الرمل ، وتفعيلاته :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن   فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

كقوله : يا رجال الأحباش موتوا كراما   دون صون الحريم والأوطان .[23]

وبحر المقتضب وتفعيلاته :

مفعولات مستفعلن   مفعولات مستفعلن

كقول الشاعر :

ليبيا الشقيقة مرحبا   شعب المفاخر والإبـا[24]

وبحر الرجز ، وأجزاؤه :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن   مستفعلن مستفعلن مستفعلن

كقوله :

مالي وللنجم أرعاه ويرعاني   وقد جفا النوم عبر الليل أجفاني [25]

وأمّا ما يتعلّق بالقافية فإنّها عبارة عن الساكنين اللّذين في آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحركة ، ومع التحرك الذي قبل الساكن الأوّل [26]

وللقافية حروف مخصوصة بها ،وحركات ،وأنواع .فحروفها ستّة وهي:

الرّوي، والوصل، والخروج، والرّدف، والتّأسيس، والدّخيل، وقد جمعها صفي الدين الحليّ(ت 750هـ) في قوله:

مجرى القوافي في حروف ستة   كالشّمس تجري في علوّ بروجها

تأسيسها ،ودخيلها مع ردفها   ورويّها ،مع وصلها ،وخروجها 27

وقد تنوع حرف الروي عند الشاعر في ديوانه، من ذلك احتياره لحرف السين رويا كقوله:

إنّما الدّنيا وإن ما ... ست فأغرتنا مآسي
لم نجد في صيدليا ... ت الدّوا مرهم آسي
أين آس عبقريّ ... بارع يمحو المآسي ؟
صدمتنا رغم تنقيـ ... ب جرى صخرة يأس
لا أرى دنياك إلاّ ... لذوي بطش وباس
تغدو القوة درعا ... وارتادوها كلباس[28]

ويعد صوت السين من بين الأصوات الطويلة لطبيعته الصفيرية ،في رأي إبراهيم أنيس حين قال :"السين العربية عالية الصفيرإذا قيست بها السين في بعض اللغات الأوروبية كالإنجليزية مثلا "[29] وصوت السين هو الذي يغلب على قصيدة الشاعرفي مقدمة الديوان، والتي تشمل عشرين بيتا ، وهذا الصوت هوصوت رخو ومهموس مرقق، يضفي على القصيدة كلها إيقاعا مهموسا يتلاءم مع الحالة النفسية في نظمه للقصيدة ،ويبدو أنّ الشاعرقد تأثر بسينية البحتري التي مطلعها :

صنت نفسي عما يدنّس نفسي ... وترفّعت عن جدا كلّ جبسي.

واختارا لشاعر حرف الفاء رويا كما في قوله :

أرى الجزيرة عقدا قطعت ... أطرافه ،وعتت في الحكم أشراف.[30]

وحرف الفاء من الحروف المهموسة أيضا للدلالة على حالته النفسية

واختار الشاعر حروف روي أخرى في القصيدة مثل الباء كقوله :

يا أبا عبد الله مالك نادب ... قد عهدناك لا تخاف النوائب .

وحرف الباء من الحروف العربية المجهورة وهي تؤدي غرضا واضحا يرمي إليه الشاعر، وذلك بغرض تصويره الفاجعة .

ثم التزم بحرف مجهور آخروهو النون كقوله :

نبآني إن كنتما تعلمان   ما دهى الحبش أيها النيران

والدال وهو حرف مجهور كقوله :

رمنا زيارة   سيدي   فرج لذكرى   تستعـاد.

والقاف وهو حرف مهموس كقوله :

نزل اليوم في حمانا العراق   بعد أن بنا الأشواق .

والميم وهو حرف مجهور كقوله :

هلال ذي الحجة الميمون مبتسم   بالأفق مرتسم بالبشر متّسم.

وقوله :

أجرى الإله بحكمه الأقلاما   فرمى بسهم قضائه الأصناما

والراء وهو حرف مجهور كقوله :

على المسجد الأقصى اعتدى اليوم فاجر   وأضرم فيه النارباغ وماكر

كلّ ذلك لتصوير حالته النفسية ،والتعبير عن مشاعره ،فاختار الشاعرلكل موقف،وحال،ومناسبة ،حرف روي مناسب للمقام .

أما الإيقاع الداخلي فهو متوفر بكثرة عند الشاعر، تبعا لمناسبة القصيدة ،ومقامها ،والحالة الشعورية في نظمه للقصيدة ،وذلك باعتبار أن ـ هذا الضرب من الإيقاع يشمل وحدة النغم التي يكون مصدرها

اهتمام الشاعر باختيار الألفاظ المناسبة ،والخاصة التي تعبر عن عواطفه وانفعالاته ،ومع تكرار كلمات ،وأصوات داخل التركيب،ويشكل هذا النوع من الإيقاع بنية النص الداخلية.

من ذلك تصويره لدلالة الحزن والألم كقوله :مقتحما، قطعت، ومعارك والأهوال ، والدمع، والقلب ، وقتلوا ،ونعاج ، وخرفان .....وكذلك في قصيدة "ابك مثل النّساء" التي نظمها سنة 1932م وهو يصف سقوط قصر الحمراء، وكذلك في قصيدة وعد بلفور المشئوم التي نظمها سنة 1938م.، نلمس الحزن والأسى أيضا في قصيدة (الاحتلال نزول الإفرنج بسيدي فرج)التي نظمها سنة 1959م مثل الكلمات (الاضطهاد ، والحدا، والرهيب،والغزو، والهوان، وكابوس،ولوعة .....وكذلك في قصيدة (نكسة يونيو)التي نظمها سنة 1967م ، وغيرها من القصائد ، وكذلك الإيقاع الجميل المناسب للحالة النفسية للشاعر في قصيدة (مأساة وأين الأساة ؟)، وهي تتكون من خمس وعشرين بيتا ومنها قوله :

مالي وللنجم أرعاه ويرعاني   وقد جفا النوم عبر الليل أجفاني؟
فأيّ داهية حلت بساحتنا   وأي سهم رمى قلبي فأضناني ؟

فنلاحظ جمال الإيقاع في يرعاني ،وأجفاني ،وأضناني، كلّ ذلك للدلالة على حالته النفسية الحزينة البائسة على ما ألمّ بالأمّة العربية من ويلات وهموم ،وحروب .

ومن دلالات الإيقاع نجد أيضا الحزن والأسى والدموع على نكبة الزلزال بالأصنام، حيث عبّر بدموعه على كارثة الأصنام بالزلزال الذي أصيبت به يوم الجمعة غرّة ذي الحجة الحرام 1400هـ الموافق للعاشر من أكتوبر 1980م، فسجل قصيدة طويلة منها قوله :

أجرى الإله بكمه الأقلاما فرمى بسهم قضائه الأصناما
بلد عزيز في الجزائر ليته ما كان يدعى بيننا أصناما
فلربّ تسمية تواكب متعة ولربّ أخرى واكبت آلاما
ما كان من طبعي التشاؤم ،إنّما أهوى من الأسماء ما يتسامى

فنلاحظ الإيقاع لدى الشاعر يحمل دلالة الحزن الشديد،والألم المرير،على ما ألم بولاية الشلف حاليا، الأصنام سابقا، من ذلك: الأقلاما،أصناما ،آلاما ،تشاؤم ....وغيرها من القصائد التي وظف فيها الشاعر الإيقاع وفق الدلالة المناسبة التي تصور أحاسيسه بكلّ صدق، وأصالة .

6 - المقاطع الصوتية :

كلمة "مقطع " في اللغة من القطع ،وهو إبانة بعض أجزاء الشيء من بعض . أمّا في الاصطلاح فهو أقرب إلى قول العرب "مقطّعات الكلام،أي أجزاؤه التي يتحلّل إليها ،ويتركّب عنها ،ويقسم بعضهم المقاطع إلى خفيفة،وثقيلة.فالخفيف مركّب من صامت ومصوّت، والثقيل من صامتين ومصوّت .وتفطن العلماء إلى أنّ الأصوات في السلسلة الكلامية تتابع شكل مجموعات متتالية يمكن تمييز أصوات كل مجموعة عن الأخرى ،وقد تتألّف الكلمة من مجموعة واحدة أو أكثر ،وقد تتداخل تلك المجموعات بين كلمتين في الكلام المتّصل، وأطلقوا على كلّ مجموعة منها اسم (المقطع)[31].

وعرّف بعض العلماء "المقطع "بأنّه وحدة صوتية تبدأ بصامت يتبعه صائت، وتنتهي قبل أول صامت يرد متبوعا بصائت،أو تنتهي السلسلة المنطوقة قبل مجيء القيد "[32]

وفي العربية ستة أضرب من المقاطع وهي :

1 -ع ص وهو قصير مقفل ومثاله :أداة التعريف .

2 -ص ع وهو قصير مفتوح ومثاله :باء الجر المكسورة .

3 -ص ع ص وهو متوسط مقفل ومثاله : لم .

4 -ص ع ع وهو متوسط مفتوح ومثاله :ما

5 -ص ع ع ص وهو متوسط مقفل ومثاله :باب بالسكون .

6 -ص ع ص ص وهو طويل مزدوج الإقفال ومثاله :عند بالسكون .[33]

وقد وفق الشاعر في استغلال المقاطع الصوتية الطويلة المناسبة في قصيدة "اليهود يحرقون المسجد الأقصى "ص83من الديوان حيث قال :

على المسجد الأقصى اعتدى اليوم فاجر وأضرم فيه النار باغ وماكر

حريق ويا للهول شبّ أوآره فخرت على جمر الغضاة المنابر

تداعت له الأركان والسقف قد هوى فشقت لهول الاعتداء المرائر

حريق أباد اليوم وجه حضارة يباهي بها تاريخنا ويفاخر

فيا لك من حسناء راحت ضحية على شِلوها قامت تنوح المنائر

على مسمع الدنيا ومرأى شعوبها استباح حمى الإسلام والسلم فاجر

نلاحظ أنّ الشاعر في هذه المقطوعة من القصيدة التي تشتمل على ثمانية وثلاثين بيتا قد غلبت عليها المقاطع الصوتية الطويلة المناسبة لمقام الحزن ، والألم مثل :فاجر،وباغ ،وماك، و الغضات، والاعتداء تداعت ...

وقد وظّف الشاعر ألوانا أخرى من المقاطع الصوتية مثل المقاطع القصيرة المقفلة كأدوات التعريف ،وهي كثيرة للدلالة على التعريف،والمقاطع القصيرة المفتوحة كحروف الجر للدلالة على معاني متنوعة حسب السياق ،والمقاطع المتوسطة المقفلة والمتمثلة في حرف الجزم في الديوان ،والمقاطع المتوسطة المفتوحة للدلالة على الاستفهام،والمقاطع المتوسطة المقفلة وهي المنتهية بالسكون، وفي الأخير المقاطع الطويلة المزدوجة الإقفال وهي كثيرة في الديوان، والنتيجة أنّ الشاعر لم يوظف مقطعا صوتيا إلاّ للدلالة على أحاسيس صادقة،ودلالة تخصّه هو، سواء تعلق الأمر بسقوط الأندلس ،أم وعد بلفور المشئوم،أم احتلال فرنسا للجزائر ونزولها بسيدي فرج ،أم نكسة يونيو ،أم بداية رمضان والقدس يهان ،أم كيف يسعد عيد ؟ ،أم نريد سلاما لا استسلاما،أم في مكة تلبية ،وفي القدس بليّة ،أم العام الجديد، والقدس مكبّل بالحديد،أم اليهود يحرقون المسجد الأقصى ،أم نكبة الزلزال بالأصنام،أم صبره وشتيلا، وذكرى مذبحة "ديرياسين "، أم الاعتداء الإرهابي النازي على ليبيا سنة 1986م.

7 -المماثلة الصوتية /المضارعة (المماثلة الجزئية)/الإدغام المماثلة الكلية): إنّ الأصوات تتأثر بعضها ببعض عند تجاورها في السلسلة الكلامية ،ومعظمها ينضوي تحت موضوع المماثلة ،وهي أن ينحو صوتان متجاوران أو أكثر نحو التماثل في المخرج أو الصفات [34]

وقد عرفها أحدهم بأنّها التعديلات التكيفية للصوت حين يجاور أصواتا أخرى وهي على ثلاثة أنواع :

أ-التماثل التقدمي .

ب- التماثل الرجعي .

ج-التماثل المزدوج .[35]

ومن أمثلة المماثلة ، والإدغام في ديوان الشاعر قوله :

يا أبا عبد الله مالك نادب قد عهدناك لا تخاف النوائب

قد عهدناك بين أهلك لاعب أم رأيت الزمان ,الملك ذاهب

فنجد المماثلة أو التماثل في الكلمات: نادب الأولى، ولاعب، ثم ذاهب ونادب الثانية، وغيرها من مواضع المماثلة مثل (مزّقوا،وأحرقوا)، و(التيجانا، والسلطانا)، و(هوانا وهوانا)، و(علاكا،حماكا)، و(هواكا جفاكا)، و(العماد والقصاد)، (حداد،وتعداد)، (دهرا،فخرا)،و(بدراوشزرا)، و(صراع، وامتناع)، و(تباهت ،أضاءت) ،(سادت ،تداعت)،(العالي،والمعالي)، و(خبايا ،وزوايا)،السرايا ، والضحايا) (الملاهي ،والمناهي) وغيرها كثير من المماثلة في أبيات القصائد من الديوان .

8 -النّبر: النبر بالكلام الهمز ،ونبر الحرف همزه ،وهو عند العرب ارتفاع الصوت،أو هو علوّ في كلمة ،إلاّ أنّ الباحثين يربطون بين النبر والمقطع الصوتي [36]

ومن المقاطع التي وقع فيها النبر نجد ها في قول الشاعر :

بخامس منك يونيو انقضّ في حنق على العروبة أرجاس ملاعين

يا يوم غطت سماء العرب أجنحة التدمير أطلقها موشي و غوريونو

تتار النّبالم في أجساد أخوتنا تذيبها ، أين إسعاف وتأمين ؟

سيناء قد داسها أشكول في صلف واختال فيها قرير العين قارون [37].

فمن خلال هذه المقطوعة نجد مواضع النبرفي الكلمات الآتية:انقضّ،وحنق ،وأرجاس ،وغطّت ،والنّبالم ،وسيناء ،وقرير .وغيرها من مواضع النّبرفي الديوان .

9 - التنغيم: يطلق على نظام توالي درجات الصوت مصطلح التنغيم،أوموسيقى الكلام ،وترتبط به مجموعة مفاهيم مثل النغمة،واللّحن،والإيقاع ،وهي مصطلحات ذات دلالات فنية في مجال الموسيقى ،والغناء،إلاّ أنّ المستخدم في هذا المقام للدلالات المتفق عليها لدى علماء الأصوات اللغوية .

ويعرّف التنغيم بأنه ارتفاع الصوت ،وانخفاضه في أثناء الكلام.وهو عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية ،أوالإيقاعات في حدث كلامي معيّن [38]

وأشهر أنواع النغمات ثلاث هي :

أ-النغمة الصاعدة : و تعني وجود درجة منخفضة في مقطع ،أو أكثر تليها درجة أكثرعلوا منها .

ب-النغمة الهابطة : وتعني وجود درجة عالية في مقطع أو أكثر تليها درجة أكثرانخفاضا .

ج-النغمة المستوية : وتعني وجود عدد من المقاطع تكون درجاتها متحدة ،وقد تكون هذه الدرجات قليلة ،أو متوسطة ،أو كثيرة .[39]

وقد عثرت في الديوان على تنغيمات عديدة لها وظائف دلالية معينة من ذلك قول الشاعر :

طهّروا العوالي صن حماك فإنّما بهمّتك القعسا يصان المخيم
تيقظ ، و لا تأمن خؤونا مراوغا فمن أمن الخوّان لا شك يندم

تدرّب على صنع السلاح وحملـه فما ذلّ شعب بالتّسلح مغرم
على صهوات الجو حلّق مقنبلا وباغت وبادر ،فالمبادر أحزم [40]

فنجد في المقطوعة النغمة الصّاعدة التي تناسب مقام الحث على تطهير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي، فخاطب الشاعر الشباب بهذه النغمة مستعملا الأساليب الإنشائية المتمثلة في الأوامر كقوله:"صُن،وتيقّظ،وتدرّب ،وحلّق ،وباغت ،وبادر،واستعمل النهي في قوله ":لاتأمن" .وغيرها من مواضع التنغيم في ديوان الشاعر .

10 -**التّرصيع** : وهو أن تتوخى تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع وتشبيه به ،أو من جنس واحد في التصريف ، والترصيع في الشعر كالسجع في النثر ، وهو من حيث الوزن والروي ثلاثة أقسام: المتوازي، والمطرف، والمتوازن . [41]

فمن مواضع التصريح في الديوان أذكر قول الشاعر :

يا أبا عبد الله مالك نادب قد عهدناك لا تخاف النوائب
قد عهدناك بين أهلك لاعب أم رأيت الزمان والملك ذاهب [42]

فنجد الترصيع في البيت الأول بين (نادب ،والنوائب)،وفي البيت الثاني بين (لاعب، وذاهب)

وفي قوله :

هكذا الدهر يسقط التيجانا ويذل الأمير والسلطانا

لايسير الزمان حسب هوانا تارة عزّة وطورا هوانا

نلاحظ الترصيع بين (التيجانا ،والسلطانا) وبين (هوانا ،وهوا نا)

وعثرت على التصريع في أبيات أخرى من الديوان مثل (مضاعاوالقلاعا)و(علاكا،وحماكا)،و(هواكا،وجفاك)،(نائي،والآباء) (حداد،والتعداد)،و(دهرا وفخرا)، (بدرا ،شزرا)، (الدفاع، وداع) (تباهت،أضاءت) (العالي،المعالي) (الخوالي،المنال)، (خبايا، الزوايا)، (السرايا ،الضحايا) ، (الملاهي ،والمناهي)(دواهي ،وأواه).وغيرها كثير في الديوان .

الخاتمـة :

بعد هذا العرض لأهم الظواهر الصّوتية الواردة في مدوّنة الشاعر أبي الحسن علي بن صالح الجزائري وتتبع الدلالات المختلفة لهذه الظواهر يمكن أن اخلص إلى النتائج الآتية :

1 -أغلب الأصوات التي في الديوان مهجورة،انفجارية ، وتكمن دلالتها حسب الحالة النفسية للشاعر ،والمناسبة التي قيلت فيها القصيدة، أو ما يعرف بالحال، وأغلبها تدل على المشاعر الحزينة، والممزّقة، والهجوم على الظلم ، والاحتلال ، ومواساة المنكوبين، والتعاطف مع البائسين، المضطهدين .

2 -ألفاظه كان يحسن اختيارها ،ويضعها في المكان المناسب للدلالة على الموقف الملائم للمشاعر الصادقة الأصيلة ،وبالتالي جاءت الألفاظ خادمة للمعاني ،وعنوانا لها .

3 -إذا كان الصوت عامًّا لدى العلماء ،فإنّ الإيقاع خاص بالقضايا الصوتية ،وهذا ما عثرت عليه لدى الشاعر، إذ أنّ الإيقاع عنده يحمل دلالات تناسب مشاعر أبي الحسن علي بن صالح.

4 -القارئ لديوان الشاعر قراءة صوتية دلالية يجد دلالات متنوعة،من ذلك دلالة الحزن، والشجن ،والألم، وهي الدلالة الغالبة في المدوّنة ،وأيضا دلالة التحسر ،والشفقة ،والمواساة .

5 -الدلالة الصوتية عند الشاعر تبدأ من خلال أصغر وحدة صوتية، بحيث إن تغيرت الحركة بالضرورة تغيّر المعنى ،وهذا ما لمسته في ثنايا قصائد الشاعر.

6 -الأشكال التنغيمية في خطاب أبي الحسن علي أدت وظائف دلالية مناسبة لحالته الشعورية والانفعالية .وأنّ هذه الأشكال ،وكذا المسائل الصوتية برزت عنده ،وأدت دورا هاما في توجيه الدلالة، وبالتالي تحقيق قيم دلالية نفيسة .

7 -مظاهر التوافق أو التوازي الصوتي ،والانسجام الصوتي ،والتوزيع الصوتي في شعر أبي الحسن علي بن صالح كل ذلك في اعتقادي أدّى دلالات تناسب أحاسيس الشاعر .

8 -الحس المرهف الذي يتمتع به الشاعر ،أدّى به إلى إبراز مكنونات الأصوات اللغوية ،وأنّ الدلالة الصوتية عنده تتماشى وفق السياق .

9 -حالات الحزن عنده في الإيقاع الداخلي فاختارالمقاطع المناسبة، وفي التنغيم للدلالة على الحالة الشعورية وقوة الانفعال لديه ، وكذا التناسق بين الصوت والسياق.

الهوامش والإحالات:

1 - لسان العرب ، لابن منظور ،المجلد الثالث ص 399 ومابعدها ،دار الحديث القاهرة ، 1423هـ/2003م.

2 - المصباح المنير للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري ص121،دار الحديث القاهرة ،1424هـ/2003م.

3 - كشاف اصطلاحات الفنون ،للتهانوي ،2/119،دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان الطبعة الثانية 1427هـ/2006م.

4 -التحليل اللغوي فضوء علم الدلالة ،د/ محمود عكاشة ص 9،دار النشر للجامعات مصر ،ط/الأولى 1426هـ/2005م.

5 -المصدر السابق ص 17 .

6 -ينظر :معجم أعلام الإباضية من القرن الأول إلى القرن الخامس عشر 2/613،وديوان مآسي وأين الآسي ص7.

7 -ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ،تحقيق :عبد السلام هارون ،ط/ الخامسة ص79.

8 -ينظر :الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس ص9.

9 - ديوان مآسي وأين الآسي ص9.

10 - ينظر : اسرار العربية لابن الأنباري ص204.

11 -ديوان مآسي واين الآسي؟قصيدة (هلّ رمضان والقدس يهان) ص50.

12 -التعريفات للجرجاني ص125.

13 -ديوان مآسي وأين الآسي؟ق(لنحرر القدس)ص116-115

14 -التعريفات للجرجاني ص78.

15 -المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية ص34

16 -ديوان مآسي وأين الآسي ؟(عاصفة فتح)ص77و78.

17 -ينظرالمعجم المفصل في اللغة والأدب ،د/ميشال عاصي .

18 -يراجع : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية،د/مجيد عبد الحميد ناجي ص41.

19 -ديوان مآسي وأين الآسي ؟ ق(خيالي) ص5 .

20 -الديوان ص 9 .

21 -الديوان ص13(قصيدة مأساة سقوط غرناطة).

22 -الديوان ص18(ق/ابك مثل النساء) .

23 -الديوان (ق/يارجال الأحباش) ص28.

24 -الديوان (ق/هل وحدة كبرى ؟)ص37.

25 -الديوان (ق/مأساة وأين الأساة ؟)ص91.

26 -ينظر :المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي ،لموسى بن محمد الأحمدي نويوات ،ط/3 ،ص353.

27 -المصدر السابق ص354،355.

28 -الديوان ص9،ومابعدها.

29 -الأصوات اللغوية ،د/إراهيم أنيس ،القاهرة 1961،ص 64 .

30 -الديوان ص13 .

31 -ينظر :المدخل إلى علم أصوات العربية ص197،وما بعدها .

32 -ينظر :المصدر السابق ص201.

33 -ينظر :مناهج البحث في اللغـــة ،د/تمام حسان ص141.

34 -المـدخـل إلـى عـلـم أصـــوات الـعـربـيـة ،د/غــانــم قــدوري الحمد،منشورات المجمع العلمي بغداد ،1423هـ1423،20هـ/2003م

35 -ينظرعلم الصرف الصوتي ،د/عبد القادرعبد الجليل ،دارصفاء عمان ،ط1 1431هـ،2010مص147،146.

36 -اينظر :المدخل إلى علم أصوات العربية ص249.

37 -الديوان ص 42 .ق(الاعتذاروالغدر).

38 -ينظر :المدخل إلى علم أصوات العربية ص257.

39 -المصدر السابق ص258.3

40 -الديوان ،ق(طهّروا فلسطين)ص74.

41 -ينظرالبنية الصوتية ودلالتها في إلياذة الجزائرلمفدي زكرياء (رسالة ماجستير)،إعداد الطالب عبد القادرشارف ،جامعة وهران،2001،ص 114.

42 - الديوان ص.17 - 42

السياحة الحلال بين النظرية والتطبيق
(تجربة ناجحة لدولة غير إسلامية " بريطانيا ")

أ. سعاد دولي . أ. إلياس سليمان (ج. بشار)

مقدمة

المتأمل في الإحصاءات والأرقام الصادرة عن الهيئات والمؤسسات والدوائر السياحية العالمية والعربية والإسلامية، يدرك مدى الأهمية التي باتت تتمتع بها الصناعة السياحية، حتى أصبحت رقم التداول الاقتصادي الأول في العالم...

فقد أوردت إحصائية عالمية حديثة؛ أنه سيرتفع عدد السياح على مستوى العالم من 618 مليوناً عام 1997م إلى 1.7 مليار سائح بحلول العام 2020م ، فيما سيصل حجم الإنفاق السياحي في العام نفسه إلى 1600 مليار دولار. ولاشك أن الصناعة السياحية العربية والإسلامية نالت قسطاً من التطور، ما جعل منها المصدر الأول للدخول من العملات الأجنبية في مصر؛ وبمتوسط أربعة ملايير دولار(4) سنوياً، حسبما ذكرت إحصائية مصرية صدرت عام 2004م، وبينت الإحصائية أيضاً أن السياحة في مصر أسهمت بنسبة 11.3 % من الناتج المحلي الإجمالي، وتغطي أكثر من 41 % من العجز في الميزان التجاري..

أما في السعودية؛ فقد بينت دراسة سياحية أن عدد الحجاج والمعتمرين وصل إلى 4.5 ملايين سنوياً، وأن السياحة الدينية "الحج والعمرة " تعد الهدف الأول للسائحين الإقليميين والدوليين، وفي الكويت قدرت

إحصاءات دولية أبرزها منظمة (السياحة العالمية) ومنظمة أكسفورد بيزنس غروب) التي تعمل على دراسة قطاعات الاقتصاد الكويتي حالياً، و(أرنست انديونغ)، أن نسبة الكويتيين الذين يسافرون لقضاء الإجازات خارج البلاد تبلغ بين 70 - 75 % من إجمالي عدد المواطنين، أي نحو665 ألف كويتي، ينفقون في الخارج سنوياً نحو 900 مليون دينار كويتي؛ أي (ثلاثة ملايير دولار سنوياً).[1]

إن دلالات هذه الأرقام التي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر تفرض علينا مجموعة من الأسئلة في غاية الأهمية وهي: أين موقع السياحة الإسلامية على خارطة السياحة العالمية؟ وهل تلبي هذه السياحة طموحات ملايين المسلمين في العالم؟ وهل السياحة الإسلامية قادرة على المنافسة وسط هذا الكم الهائل من المنتجات السياحية التي يتعارض كثير منها مع ثوابتنا وهويتنا ومعتقداتنا؟ وهل نمتلك برنامجاً أو مشروعاً سياحياً متكاملاً قادراً على إبراز المنتجات السياحية الإسلامية المتوافقة مع هويتنا الإسلامية بصورة منظمة ومتطورة ومبرمجة وجاذبة؟.

إنَّ الجواب على هذه الأسئلة يأتي بالنفي في ظل الواقع الذي يلمسه الإنسان المسلم، والإحباطات التي أصابته وتصيبه عندما يقارن بين السياحة الإسلامية البينية والخارجية؛ وبين السياحة العالمية؟.

السياحة: المفهوم والتعريف/ تطور مفهوم السياحة ومعناها مع تطور المجتمعات، وكانت البداية مع العصور القديمة، بحيث كانت غريزة التنقل عند الإنسان منذ تواجده على هذه المعمورة، فكان الإنسان يسعى إلى توفير احتياجاته بنفسه؛ وإلى خلق علاقات متبادلة بين القبائل، وكان حب الاطلاع دافعا قويا لقيام الفرد برحلات طويلة، وكذلك زيارة الأماكن المقدسة، ومع العصور الوسطى انفرد العرب بتطوير مفهوم السياحة

ووضع الأسس الأولى لمعظم فروعها، فتركزت السياحة في هذه الحقبة على التجارة، الحج، والدراسة. وأحدثت الثورة الصناعية في العصور الحديثة تغيرا جذريا في وسائل المواصلات، مما أدى إلى اختصار الوقت، وسهولة السفر.[2]

إن المهتم بدراسة السياحة يحصي زخما كبيرا من التعاريف التي تناولت المفهوم، وعلى هذا الأساس اخترنا كطريقة منهجية حصر أبرز مرتكزات هذه التعاريف على سبيل المثال لا الحصر، وذلك لتوافر عديد التعاريف التي لا يتسع المجال للخوض فيها كلها، قصد تكوين تعريف خاص يكون أكثر شمولية، بحيث يتوافق مع غاية البحث.

وتتمثل أبرز المرتكزات التي تؤسس للتعاريف المختلفة للسياحة في كونها تعد:

عملية انتقال مؤقتة: أغلب التعاريف التي تناولت مفهوم السياحة تركز على أنها تخص غير المقيمين في منطقة معينة، وبالتالي فهي تستوجب الانتقال إلى المكان المستهدف ، وقد يكون هذا الانتقال محليا (من منطقة لأخرى بنفس البلد)، والأهم أن يكون دوليا (من بلد إلى بلد آخر)، ومن هذا المنظور ترتبط السياحة بالسفر الداخلي أو الخارجي. نقطة أخرى تشدد عليها تعاريف السياحة؛ وهي اعتبار عملية السفر مؤقتة وغير دائمة، حيث لا يعد المقيم سائحا، ونفس الشيء بالنسبة لمن سافر لأغراض غير البحث عن المتعة والترفيه؛ كالبحث عن عمل، الإقامة، أو الدراسة مثلا.

ولعل خير استدلال على ما تقدم ذكره تعريف "Robinson" روبنسون للسياحة، حيث يعتبرها" انتقال الأفراد خارج الحدود السياسية للدولة التي يعيشون فيها مدة تزيد عن 24 ساعة؛ وتقل عن عام واحد، على أن لا يكون الهدف من وراء ذلك الإقامة الدائمة، أو العمل، أو الدراسة، أو

مجرد عبور الدولة لأخرى" [3] ، ويدعم هذا الطرح الأستاذان السويسريان krapf وHenniker في تعريفهما المقدم إلى الجمعية الدولية للخبراء العلميين في السياحة، حيث يعتبران " السياحة هي مجموعة من الظواهر والعلاقات التي تنشأ نتيجة لسفر وإقامة الشخص الأجنبي إقامة مؤقتة، بحيث لا تتحول إلى إقامة دائمة، أو ترتبط بعمل مأجور".[4]

تعرف السياحة من هذا المنظور حسب العالم النمساوي HERMAN VON SHOLLEREN على أنها" كل العمليات المتداخلة، وخصوصا العمليات الاقتصادية المتعلقة بدخول الأجانب وإقامتهم المؤقتة، وانتشارهم داخل حدود أو منطقة معينة."[5] من جهته MATHISON يعتبر السياحة " حركة مؤقتة للسكان أو الناس لمناطق معينة خارج مناطق سكناهم وإقامتهم الدائمة، وتشمل السياحة جميع النشاطات التي تمارس في مناطق الهدف، وكذلك جميع الخدمات والتسهيلات التي تم توفيرها لممارسة هذه النشاطات. والسياحة بهذا المفهوم نوع من أنواع السفر الذي يختلف عن رحلة العمل اليومية، أو الهجرة، أو التسوق، أو الإقامة الدائمة".[6]

إشباع لحاجات السياح : السياحة توجه وتسخر جهود الدولة المضيفة بقطاعيها العام والخاص إلى محاولة إشباع حاجات السائح، من خلال توفير كل متطلبات الراحة من جهة، وتحقيق أكبر قدر ممكن من تطلعاته التي دفعته للزيارة السائحية من جهة أخرى ، وفي هذا السياق اعتبرت الأكاديمية الدولية للسياحة أن "السياحة اصطلاح يطلق على وحدات الترفيه وكل ما يتعلق بها من أنشطة، وإشباع لحاجات السائح".[7]

تحقيق الراحة والمتعة للسائح والوفرة الاقتصادية للمستضيف: إن السياحة هي السبيل إلى الحصول على الراحة والمتعة للسائح، من

خلال المزايا التي يوفرها المكان؛ من طبيعة أو تاريخ أو هياكل تسهر على خدمة السياح، أو عادات تخول للسائح الاتصال بالشعوب والاطلاع على ثقافاتها المختلفة، كما أنها تمكن البلد المستضيف من تحقيق وفرة اقتصادية تعود على القائمين بشؤون السياحة أولا: ومن ثم على باقي الأعوان الاقتصاديين ثانيا. ومن هذا المنظور يرى جويرفرويلر " السياحة بأنها ظاهرة من ظواهر عصرنا تنبثق من الحاجة المتزايدة إلى الراحة، وإلى تغيير الهواء، وإلى مولد الإحساس بجمال الطبيعة ونمو هذا الإحساس، وإلى الشعور بالبهجة والمتعة من الإقامة في مناطق لها طبيعتها الخاصة، وأيضا على نمو الاتصالات، على الأخص بين الشعوب وأوساط مختلفة من الجماعة الإنسانية، وهي الاتصالات التي كانت ثمرة اتساع نطاق التجارة والصناعة، سواء أكانت كبيرة أم متوسطة أم صغيرة، وثمرة تقدم وسائل النقل."[8]

وعلى ضوء ما تقدم فالسياحة :"عملية انتقال مؤقتة إلى مكان معين تنشأ عنها مجموعة من النشاطات المختلفة بين المنتقلين(سياح)، وأصحاب المكان(سكان المنطقة +القائمون على النشاط السياحي+كل الهياكل المساعدة للنشاط السياحي)، تهدف أساسا إلى تحقيق إشباع السياح وتحقيق الراحة والمتعة لهم، وتحقيق وفرة اقتصادية لأصحاب المكان."[9]

مفهوم السياحة في الإسلام:[10] لا يعني اهتمام الدول السياحية الكبرى بعلم السياحة وصناعتها أنها هي التي عنيت بها فحسب، بل كان للإسلام السبق في الحث على السفر والسياحة، إن الدين الإسلامي بمرجعيته القرآن الكريم ونبينا محمد- صلى الله عليه وسلم - والخلفاء والصحابة ذكروا السفروالسياحة، واعتنوا بها وشجعوا عليها في مناسبات مختلفة، إذ تكرر ذكرها في عدة آيات من القرآن الكريم، وتحددت مجالاتها

في مناسبات معينة، كالتأمل في الطبيعة قصد معرفة قدرة الخالق في إبداع الكون، وفي آثار الأولين والاعتبار منها، ومحاولة الترويح عن النفس بالتأمل في جمال الطبيعة، والدعوة إلى التعارف بين الشعوب، و بيان أنواع وسائل النقل والانتقال وتطويرها وتوضيحها، وتوضيح بعض أحكام الفرائض الدينية كالصلاة والصوم، وأثر السفر بهما وفي أداء فريضة الحج، وذكر رحلات الفضاء الخارجي عن طريق الإسراء والمعراج.

يدعو القرآن الكريم صراحة إلى النظر في الكون وظواهر الطبيعة وصنوف البشر وأنواع الحيوانات والنباتات، والبحث في كل ما يتصل بالعالم المحسوس، فالله سبحانه الذي أوجد العوالم بكل ما فيها من أجل الإنسان، ودعاه إلى أن يتدبر في كل ما حوله؛ ليعرف قدرة الخالق، متجليا ذلك في قوله تعالى في سورة السجدة الآية (7) (الذي أحسن كل شيء خلقه)، ومن خلال كل ما نرى من آثار ومعالم للحضارات البائدة والقائمة، وليس النظر إلى الظواهر في الأمور السطحية فحسب، فهي تشير بوضوح إلى آثار السير في أرجاء الأرض، والانتباه إلى صوت التاريخ يقص علينا عبر الزمان فيقدر الاستمتاع السياحي بجمال الكون، يتقرب الإنسان من خالقه فيحمد الله، وبذلك يستحق المزيد من نعم الله، يتضمن القرآن الكريم خمسا وثلاثين (35) تدعو للنظر فيما يتعلم منه الإنسان، وأكثر من خمسين (50) آية تدعو للسير في الأرض، نذكر منها قوله تعالى في سورة آل عمران الآية (138) (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)، وقوله في سورة الروم الآية (42) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل)، وقوله في سورة العنكبوت الآية(20) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)، و كذا قوله في سورة غافر الآية (21) (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم،كانوا هم

أشد منهم قوة و آثارا في الأرض)، فالآيات الكريمة تأمرنا بالسير والحركة والسفر في ربوع الأرض، للاستفادة من عبر الماضي للعمل على ضوئه في الحاضر لما يفيدنا في المستقبل.

يخبرنا القرآن بما حدث للأمم السابقة، ويروي قصص الأنبياء والرسل وآثارهم، ويتحدث عن الحضارات التي سادت ثم بادت، والآثار التي تركتها الشعوب، والأحداث التي وقعت في الأزمنة الغابرة، فتناول الجماد والنبات والحيوان والإنسان والتأمل في الاختلافات والمتناقضات الموجودة في النوع الواحد وليس في الجنس الواحد، متجليا ذلك في قوله تعالى في سورة فاطر الآية (26 - 27) (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابين سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) .

أما الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد تعود في حياته ومنذ شبابه على الانتقال من بلد إلى آخر كتاجر، ووسيط في الأعمال التجارية ، حيث ارتحل إلى الشام؛ وعمل في تجارة السيدة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، فقد ذكر أنه وصل إلى منطقة الإحساء في الجزيرة العربية، وعندما بعث نبيا تنقل بين مدن الجزيرة ودعا إلى الدين الجديد؛ وإلى وحدانية الله تعالى، كما أنه شجع المؤمنين على الهجرة إلى الحبشة عابرين البحر الأحمر، هربا من إيذاء الكفار، كما أنه هاجر بنفسه إلى المدينة فسار إليها ليتخذها موطنا له وللمؤمنين، وقد تحرك نحو شمال الجزيرة إلى حدود الشام في بعض غزواته وحروبه .

* **أنواع السياحة:** السياحة أنواع متعددة منها: [11]

السياحة التأملية: وتقوم على تدبر الإنسان وتأمله في كل ما يراه ويقع عليه بصره،يلمسه أو يدركه بحواسه، وكل ما يسمعه ويستقبله بأذنيه،

وكل ما يهز قلبه ويحرك وجدانه من مخلوقات لها حركات وسكنات منتظمة تبعًا لسنن وقوانين ثابتة. قال تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام: 28). وهي أيضا تقوم على التمتع بما خلق الله لعباده من سنن كونية كالوديان، والجبال، والصحاري، والغابات، والسماء بما فيها من نجوم وكواكب وبحار ومحيطات وأنهار، وما تحتويه كل هذه الأشياء من علامات تدل على قدرة الله تبارك وتعالى. قال تعالى: **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تبصرة وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)}** سورة:(6 - 8).

السياحة الدينية: وتقوم هذه السياحة - من خلال أداء الفرائض- على زيارة الأماكن الدينية، والسفر إليها، فيزداد الإيمان، ويرتفع انتماء المسلم إلى آثاره الإسلامية. قال تعالى: **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)** (آل عمران: 97).

وقد يتصور بعض الناس أن الإسلام يرفض السياحة، وأنه ليس لها مكان في تشريعات الإسلام، وهذا الكلام خاطئ، ولا يحمل أي من علامات الصواب، إن الإسلام هو دين الله الذي ضمن السعادة للإنسان إذا ما التزم به. وقد وضع الإسلام الأسس والوسائل الكفيلة بإنجاح السياحة وتحقيق الغاية منها، ومن هذه الوسائل:

• تنقية النشاط السياحي مما علق به من محرمات، وذلك بالابتعاد التام عن إشاعة الفاحشة وإثارة الغرائز والشهوات، ومنع ما حرمه الله من خمر وميسر واختلاط.

• عدم السياحة في أماكن الفتن والفسق والبدع؛ حتى لا يتعرض المسلم للفتنة في نفسه ودينه.

• التحلي بأخلاق الإسلام والتزام مبادئه والسير على منهج النبي وسنته.

• صدق النية وإخلاص العمل لله -عزوجل- ، وذلك حينما نجعل هذه السياحة وسيلة للدعوة إلى الله، فنقدم للناس صورة مشرقة لديننا، وبلادنا، فنوضح لهم الحقيقة، ونفضح أمامه أكاذيب الإعلام الغربي الذي يشوه صورة الإسلام والمسلمين.

1 -مصطلح "السياحة الحلال".[12]

ظهر مصطلح "السياحة الحلال" عقب سلسلة ثورات الربيع العربي، وأصبح الجدل حول هذا المصطلح حديث الساعة، فمن جانب استغله الليبراليون للترهيب من الفكرة الإسلامية والداعين لها،بدعوى أن الإسلاميين سيحرمون السياحة، وسيقصرونها على سياحة المساجد وحدائق الحيوانات، وسيحطمون الآثار ويغلقون الشواطئ، ومن ثمة ستنهار صناعة السياحة، ويضيع الاقتصاد. وعلى الجانب الآخر؛ يسعى الإسلاميون في ظل الصحوة الحالية إلى استغلال هذه اللحظة، لفرض أطروحاتهم الفكرية ورؤاهم في مجالات الاقتصاد والسياحة والإعلام والتعليم...نافين أراجيف الليبراليين وتخوفاتهم عبر برامج علمية وأطروحات تسعى للتنفيذ.

وتعريف السياحة الحلال لا يختلف كثيرا عن مفهوم السياحة المتعارف عليه، لكن بزيادة عبارة (فيما لا يغضب الله)،(أو فيما لا يخرق قيم وعادات وشريعة البلد)، وهو أمر لا خلاف عليه، بل ويعمل به في كافة دول العالم.

تعتبر السياحة الحلال، نوعا من السياحة "يوفر وجهات يمكن أن تقصدها العائلات المسلمة الملتزمة بقواعد الشريعة، وتضمّ فنادق لا تقدِّم الكحوليات، وحمامات سباحة، ومرافق صحية تفصل بين الرجال والنساء، وتقدِّم صناعة السياحة الحلال أيضًا رحلات جوية لا تُقَدَّم على متنها المشروبات الكحولية أو لحوم الخنزير، وتعلن عن أوقات الصلاة، وتعرض برامج دينية ترفيهيَّة، وتوفِّر مصاحف في جيوب المقاعد، وأماكن خاصة تتيح الفصل بين المسافرين الذكور والإناث".ولا ينحصر هذا النوع من السياحة في الشواطئ والآثار فقط، بل هناك السياحة الرياضية والسياحة العلاجية وسياحة المؤتمرات والندوات، وسياحة المعارض والأسواق، والسياحة الصحراوية، السياحة الريفية؛ وغيرها من الأنواع التي أهملت عن قصد وعمد.

اختارت منظمة المؤتمر الإسلامي دولة قطر ضمن أفضل عشر دول للسياحة الإسلامية " الحلال " على مستوى العالم، واحتلت الدوحة المرتبة العاشرة، وجاء في الموضوع الذي تناولته عدة وسائل إعلامية أجنبية، أن قطر التي فازت باستضافة كأس العالم 2022 عزز موقع قطر على خريطة السياحة الدولية، وأن المتحف الإسلامي يمثل عنصر جذب خاصا يعزز من مفردات السياحة الإسلامية الحلال. وضمت القائمة إلى جانب الدوحة كلا من ماليزيا، ومصر، وتركيا، وإندونيسيا، والإمارات العربية، والمغرب، وتونس، والأردن، وبروناي[13].

2 - **أهمية "السياحة الحلال"**. لا يميل كثير من العاملين في قطاع السياحة إلى فكرة السياحة الحلال، ويدَّعون أنها ستؤدي إلى كساد هذه الصناعة وتراجع أرباحها، وهو أمر مردود يسفهه الواقع. فكثير من الدراسات تثبت أن قطاع السياحة الحلال في نمو وازدهار، ومن هذه الدراسات دراسة نشرها سابقا منظمو معرض سوق السفر العالمي في لندن، وشركة الدراسات «يورومونيتور انترنا شيونال» في نوفمبر 2007م.

وبحسب هذه الدراسة فإن عدد السياح الذين يزورون منطقة الشرق الأوسط طلبا للسياحة الحلال في ازدياد وارتفاع، وبينت الدراسة كذلك وجود عدد كبير من السياح ينحدرون من الدول الإسلامية، ولا يحظون بخدمات خاصة بهم لتتوافق مع دياناتهم ومأكلهم ومشربهم خلال رحلاتهم إلى الخارج.وهذه الفئة من السياح تشكل نسبة كبيرة، ولا تحظى بالاهتمام اللازم، على الرغم من إنها تشكل رافدا مهما لتنمية السياحة «الحلال» ، التي يمكن تعريفها بأنها شكل من أشكال السياحة الدينية المطابقة للقوانين الإسلامية". أما عن عائد هذه الصناعة؛ فعلى الرغم من حداثتها فإن نسبة الأشتغال في فنادق السياحة الحلال بلغ نسبًا مرتفعة، تقترب أحيانا من الـ 100 %.

تجربة بريطانيا في السياحة الحلال

1 - التعريف ببريطانيا: تقع المملكة البريطانية المتّحدة في غرب القارة الأوروبية، وتتكوَّن من أربع دول متَّحِدة، تحت حكومةٍ واحدة، هي: إنجلترا، وأيرلندا الشّماليّة، واسكتلندا، وويلز. تقع شمالي غرب فرنسا، بين المحيط الأطلسي وبحر الشمال[14].

2 - تجربة بريطانيا في السياحة الحلال: تشهد "السياحة الحلال" توسعا حقيقيا في المملكة البريطانية المتحدة، إحدى الدول الكبرى المصدرة للسياح، وذلك لصالح الجالية المسلمة الهامة التي يحتضنها هذا البلد: "شمس، وبحر، وحلال" هو إحدى الشعارات الأكثر جاذبية التي اختارتها وكالات الأسفار التي تتخصص أكثر فأكثر في هذا المجال، مستفيدة من الطلب المتزايد لدى جالية يرتفع عدد أفرادها إلى 5ر2 مليون شخص. وإلى وقت قريب، كانت وكالات الأسفار التي تقدم خدمات "السياحة الحلال" تعد على رؤوس الأصابع، حسب تشارلز جونسون وكيل الأسفار في لندن. وكان هذا النوع من السياحة يقتصر في الماضي على الرحلات إلى

المملكة العربية السعودية لأداء العمرة أو الحج، أو حتى التنقلات في اتجاه باكستان والهند، البلدين اللذين تنحدر منهما غالبية المسلمين المقيمين في بريطانيا. إلا أن الأوضاع تغيرت الآن، حيث إن الأجيال الجديدة من المسلمين، التي لا تعتبر نفسها ملزمة بقضاء عطلتها في بلدها الأصلي، تسعى لقضاء العطلة في بلدان أخرى، مع التمسك بالتعاليم الدينية.

وأوضح جونسون أن المواطن المسلم، كما هو الحال بالنسبة لأي بريطاني متوسط الدخل، يسافر مرة واحدة على الأقل إلى الخارج سنويا. واغتنمت الوكالات هذا التطور لتتخصص حصريا في هذه السياحة التي تحترم القيم الإسلامية، من بينها "كريسنت تاورز" و"إسلاميك ترافلز". وتبدأ الخدمة، الموجهة عموما للعائلات، برحلة في طائرة لا تقدم المشروبات الكحولية والمأكولات التي تتضمن دهون لحم الخنزير، بل حتى إنها تعلن الآذان للصلاة وترشد إلى اتجاه القبلة. كما أن العديد من الفنادق، التي دخلت غمار المنافسة للحصول على حصص من هذا السوق المتوسع باستمرار، تقدم مأكولات تتماشى مع الشريعة الإسلامية، وخدمات أخرى عصرية.

وكانت دراسة أصدرها المعرض العالمي للسياحة سنة 2007 في لندن، قد أظهرت أن "السياحة الحلال" ستشهد تطورا هاما في السنوات المقبلة، مشيرة إلى أن منطقة الشرق الأوسط، الوجهة المفضلة للسياح المسلمين، وستعرف ارتفاعا في عائدات رحلاتها بنسبة 108 في المائة سنة 2011؛ لتصل إلى 51 مليار دولار. وأكدت هذه الدراسة أن "هذا التطور يتيح فرصا ضخمة للسياحة الحلال"، مبرزة أن هذه الفرص ستعزز بالطلب المتزايد لدى المسلمين القادمين من العالم بأسره، خاصة أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية.

من جهة أخرى، يبقى البعد الثقافي مكونا أساسيا للمنتوج الذي تقدمه الوكالات المتخصصة في هذا القطاع. وتؤكد هذه الوكالات، ومنها "إسلاميك ترافلز"، أن من بين أهدافها الأساسية النهوض بالسياحة في اتجاه البلدان الإسلامية، كأداة لاكتشاف التاريخ والإرث الحضاري للإسلام. كما تعتبر أن النهوض بالتبادلات الثقافية وفرص الأعمال في المجال السياحي "يحدث حسا تضامنيا" في صفوف المسلمين.[15]

إن السائح المسلم في الدول الغربية، ما زال هو الاستثناء وليس القاعدة فيما تقدمه الفنادق والمنشآت السياحية في هذه الدول. وهو في أغلب الأحيان يعتمد على نفسه في طلب الطعام الحلال تحديدا، كما يحمل أداة إلكترونية، مثل الهواتف الذكية، التي توفرله اتجاه الكعبة في أي مكان ينزل فيه. وفي بريطانيا لا توجد صعوبة في الحصول على وجبات حلال، سواء من المطاعم العربية والآسيوية المنتشرة في كافة المدن البريطانية، أم من منافذ السوبر ماركت التي تبيع اللحوم الحلال.[16]

وتنتشر أيضا الأطعمة الحلال إلى الكثير من الأندية والمنشآت الرياضية، والتي يذكر منها نوادي أسكوت وتويكينهام وويمبلي وكلية تشلتنهام، وسلسلة فنادق ويتبريد والكثيرمن المدارس والكليات الدراسية وحتى المستشفيات الحكومية. وقلما توجد مدينة بريطانية لا تقدم فيها مطاعم منتجات حلال لمن يطلبها، وأحيانا أخرى لمن لا يطلبها. فقد شكت صحيفة «ميل أون صنداي» مؤخرا من أن «الكثير من المنشآت تقدم أطعمة حلال من دون تحذير روادها!»، وكان قد وجه اعتراض الصحيفة هو على «الأسلوب ألا إنساني الذي تذبح به الحيوانات»؛ بدلا من صعقها بصدمة كهربائية أولا، كما يحدث في المسالخ البريطانية. ولكن الكثير من المنشآت البريطانية التي تقدم اللحوم الحلال تقول إن قرارها يعتمد على اعتبارات النوعية والسعر، وليس على اعتبارات دينية.من ناحية أخرى،

تؤكد جهات بريطانية أخرى أنها لا تقدم سوى اللحوم الحلال، لأن معظم روادها يفضلون اللحوم الحلال عن غيرها .

الخلاصة

إن للسياحة الإسلامية أفاقا جديدة في عوالم السياحة النوعية، فهي كمشروع؛ قادرة على المنافسة في سوق عالمي مزدحم بالبرامج والمشاريع، إلا انه يبدو مخيبا للآمال، فمن المؤسف أن تكون المنتجات السياحية الإسلامية غائبة عن الساحة الدولية، وتكاد لا توجد لها حضورا في المعارض التي تبرز فيها كل أنواع المنتجات السياحية ، وهذه الأخيرة تزدحم بكل أنواع السياحة حتى الغريبة منها، حتى تلك التي لا يوجد تأييد أخلاقي أو ديني لها، أما السياحة الإسلامية التي يدور فيها ملايين المسلمين حول العالم؛ والمتمثلة في زيارة العتبات المقدسة وغيرها من مدن العالم الإسلامي، فإن مما يؤلم النفس هو تخلفها عن سياق السياحة العالمية، فهي تفتقر إلى الخطط السياحية والبرامج والوسائل الإعلامية الواضحة، والتي تعبر عن التنمية السياحية التي تهدف إلى تحقيق الزيادة المستمرة المتوازنة في الموارد السياحية،وتعميق وترشيد الإنتاجية في القطاع السياحي، وكذا تحقيق التنمية المستدامة في الاقتصاد الإسلامي في الدول الإسلامية وغيرها، حيث أن هناك طاقات وثروات سياحية مطمورة تحت غبار الزمان و المكان، وهي الآثار الإسلامية التي هي أثار الإنسانية جمعاء وملك لها، ولو أنها سلطت الأضواء عليها لأصبحت مركز إشعاع حضاري يعود نفعه على شعوب بلدانها، وعلى القطاع السياحي العالمي .[17]

ووفق أرقام منظمة السياحة العالمية، فإن سياح دول الخليج ينفقون 12 مليار دولار أمريكي سنوياً على السفر من أجل الترفيه. يمكن الاستحواذ

على حصة كبيرة من الإنفاق السياحي الخليجي عبر الاستثمار في صناعة السياحة الحلال.وبالرغم من الربح المتوقع من وراء هذه الصناعة، إلا أن هذه الصناعة مازالت تحبو وفي بداياتها الأولى،وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها وحدها فقط كبديل عن السياحة التقليدية. لكن بالرغم من أن البعض ينظر إلى السياحة الحلال وعطلات الشواطئ التي تتوافق مع الشريعة باعتبارها خياراً لبعض العائلات المسلمة، فإن آخرين يعتقدون أنها شكلا من أشكال الانعزال.

وتبقى السياحة الحلال مفهوماً مثيراً للجدل بين من يعتبرها انعزالية؛ وبين من يعتبرها خياراً للراغبين في التقيد بأحكام الشريعة الإسلامية،

إننا اليوم في أمسِّ الحاجة إلى عدد من الأمور نجعل من خلالها السياحة الإسلامية وسيلة تنموية لبلداننا الإسلامية، ووسيلة دعوية لديننا، وقيمنا، ومبادئنا، ومنها:[18]

1 - إنشاء منظمة سياحية إسلامية تعمل على تشجيع السياحة بين البلدان الإسلامية وبين هذه البلاد وباقي بلدان العالم.

2 - إزالة العوائق والحواجز المادية التي تقف حجر عثرة في وجه تطور حركة السياحة الإسلامية؛ من خلال إصدار القوانين والتشريعات التي تسهّل وتيسر ذلك.

3 -الأخذ بكل الوسائل وفنون الابتكار والإبداع في المجال السياحي، شريطة ألا تتعارض مع هويتنا وثوابتنا وقيمنا الإسلامية، وأن ينعكس هذا الإبداع على جميع مرافقنا السياحية؛ من فنادق ومطاعم ومواقع طبيعية وأثرية وغيرها.

3 - الاستفادة من السياحة في المجال الدعوي واتخاذها وسيلة لجذب غير المسلمين للإسلام، تماماً كما كانت في العهود الغابرة، حيث دخلت أعداد كبيرة من الشعوب في الإسلام عندما عرض التجار والسياح والمسافرون المسلمون مبادئ دينهم وقيمه النبيلة بأسلوب وسطي معتدل، فكانت النتيجة دخول الملايين من الشعوب والأقوام في الإسلام عن طواعية واقتناع.

الهوامش:

1 - مجلة الوعي الإسلامي ، أين موقع السياحة الإسلامية على خارطة السياحة العالمية؟! - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - دولة الكويت العدد 532 بتاريخ 3 - 9 - 2010.

2 - عثمان محمد غنيم وم . بنيتا نبيل سعد."التخطيط السياحي "الطبعة الأولى،دار الصفاء للنشر والتوزيع ،عمان2001 ، ص 18.

3 - عثمان محمد غنيم و م . بنيتا نبيل سعد،"مرجع سابق، ص 24.

4 - نبيل الروبي "نظرية السياحة " مؤسسة الثقافة الجامعية،الإسكندرية، 2000 ،ص 21.

5 - ماهر عبد العزيز توفيق ، صناعة السياحة ، دار زهران للنشر والتوزيع ، عمان، 1997 ، ص23.

6 - عثمان محمد غنيم، بنيتا نبيل سعد، "مرجع سابق، ص 24.

7 - عثمان محمد غنيم، بنيتا نبيل سعد ، "مرجع سابق،ص23

8- محمود كامل، السياحة الحديثة علمًا وتطبيقًا، الطبعة الأولى، الدار الجامعية ،القاهرة، 1999 ،ص؛13.

9- تعريف شامل خاص بالباحثة .

10 -المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني،الإدارة العامة التصميم و تطوير المناهج،سفر وسياحة حجز خدمات سياحية 184 المملكة العربية السعودية ص45 .

11 -جمعية البيئة العربية رسالة جمعية البيئة العربية في يوم السياحة العالمي تحت شعار (السياحة والتنوع الحيوي مشهرة برقم 137 / 2001 الإسكندرية 27 سبتمبر 2010 .

12 - متوفر على موقع http://taseel.com/Display/Author/AuthorsPubs.aspx?ID=357 بتاريخ 23-6-2013

13 - متوفر على موقع http://www.qatarshares.com/vb/index.php بتاريخ 23-6-2013 .

14 - متوفر على: http://islamicnews.net/Document/ShowDoc02.asp?DocID=49392&TypeID=2&TabIndex=1 : بتاريخ 24.03.2013 .

15 - متوفر على:.http://hespress.com/international/23285.html بتاريخ 30-03-2013 .

16 - متوفر على:http://www.aawsat.com/details.asp?section=67&article=712921&issueno=12465 بتاريخ 30-03-2013

الملتقى الدولي حول : مقومات تحقيق التنمية المستدامة في الاقتصاد الإسلامي الدكتور المعزلله صالح أحمد البلاغ جامعة قالمة يومي 03 و 04 ديسمبر 2012.

17 - متوفر على .http://www.sesric.org/publications-detail-ar php?id=187 بتاريخ 23 - 6 - 2013

18 - مجلة الوعي الإسلامي - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - دولة الكويت متوفرعلى موقع http: //alwaei.com/index.php بتاريخ 23 - 6 - 2013 .

اضطرابات اللغة والكلام لدى المصابين بمتلازمة داون: الظاهرة والأسباب

أ/ نزهة خلفاوي (المركز الوطني للبحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، ج . تلمسان)

تمهيد:

لم يعد التعليم في هذا العصر موجها إلى الأطفال العاديين فحسب، بل أصبح يستهدف حتى غير العاديين من ذوي الاحتياجات الخاصة القابلين للتعلم، بمن فيهم المتأخرون ذهنيا قصد العمل على إكسابهم ما أمكن من القدرات التي تساهم في إدماجهم الاجتماعي مما يقلل اعتمادهم على الآخر.

متلازمة داون هي من أكثر أنواع التأخر الذهني شيوعا، وقد أصبح العالم اليوم ينظر إليها كظاهرة طبيعية تتطلب تعاملا إيجابيا، هذا ما دفع بعجلة البحث العلمي إلى الاهتمام بالموضوع؛ إذ لم تعد الأبحاث المتعلقة بهذه الفئة مقتصرة على المختبرات الطبية ومختبرات علم النفس، بل أصبحت اللسانيات التطبيقية هي الأخرى توليها اهتماما خاصا من خلال البحث في أمراض اللغة والكلام بهدف خدمة اللغة العربية لدى هؤلاء الذين يعانون صعوبات في النطق.

من هنا جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على معاناة ذوي متلازمة داون اللغوية بالتعريف بالظاهرة والبحث في أسبابها، اعتقادا مني بأن التفكير في أي برنامج علاجي لغوي لا يمكن أن يتم إلا بتحديد الأسباب والمظاهر، وبهذا نستطيع الإسهام في إنشاء منظومة تربوية لغوية خاصة بهذه الشريحة التي بدأت الحكومات والمجتمع المدني يفكران بجدية في إدماجها.

1 - من المنغولية إلى متلازمة داون:

بعد مرور أكثر من مائة وخمسين سنة على اكتشاف السبب الحقيقي لمتلازمة داون من طرف عالم الوراثة الفرنسي جيروم لوجين• ، ما زال الناس يتساءلون باستغراب عن المقصود بهذه التسمية عند سماعها، حتى إذا ما قيل لهم بأنها تطلق على من عرفوا بالمنغوليين من المتأخرين ذهنيا زالت لديهم علامات الاستفهام.

متلازمة داون أو عرض داون أو تثلث الصبغية 21 أو ما كان يعرف في الماضي بالمنغولية تعتبر أول سبب للإعاقة أو التأخر الذهني من أصل جيني. ففي سنة 1866 لفت الطبيب الإنجليزي لانجدون داون (L.down)•• أنظار العالم إلى فئة من المتخلفين ذهنيا في المجتمع، وركز على الملامح الوجهية، العينين المجعدتين، والأنف المسطح، وأسمى هذه الفئة بالمنغوليين نسبة إلى سكان منغوليا انطلاقا من فكرة الانحلال العرقي. واقتصرت الأبحاث في هذه المرحلة على رصد الصفات المشتركة والأعراض عوض البحث عن الأسباب الحقيقية للمتلازمة، وترتب على هذا وضع المنغولي في قائمة البلهاء، واقترن وضعه بتلك التسمية التي غلبت عليها صفة الإقصاء والنظرة الدونية.

وبقي الحال كذلك قرابة قرن حتى عام 1959 حيث أدت أعمال كل من ريمون توربان (R.Turpin)••• وجيروم لوجين (J.lejeunne) إلى معرفة الأسباب الحقيقية لعرض داون والتي لا علاقة لها بالانتماء إلى عرق المغول، حيث اكتشفا بأن متلازمة داون تشوه خلقي ناتج عن خلل كروموزومي[1] يحدث خللا في المخ والجهاز العصبي ينتج عنه تأخر ذهني واضطراب في مهارات الجسم الإدراكية والحركية كما يظهر هذا الخلل ملامح وجهية وجسمية مميزة وعيوبا خلقية في أعضاء ووظائف الجسم.

تحدث هذه الحالة الجينية على مستوى الكروموزوم 21 الذي يحمل كروموزوما إضافيا. فيصبح إجمالي عدد الكروموزومات عند المصابين بمتلازمة داون سبعا وأربعين (47) كروموزوما في كل خلية بدل ستا وأربعين (46) كروموزوما في كل خلية عند الأشخاص العاديين.[2]

وتشير الأبحاث إلى أن سن الأم يلعب دورا هاما في احتمال حدوث الخلل الصبغي إذ تزداد نسبة ولادة الطفل بمتلازمة داون كلما زاد عمر الأم.[3]

يعاني المصابون بمتلازمة داون من عيوب خلقية وقابلية أكثر من غيرهم لحدوث بعض الأعراض الطبية بعضها خطير كمرض القلب والجهاز الدوري ولكن مع التقدم الطبي أمكن علاجها مما أتاح لهذه الفئة العيش والحياة بصحة جيدة ولمدة أطول.[4] وتختلف قدراتهم العقلية والجسدية من شخص لآخر، وتتراوح نسبة ذكائهم ما بين 15 و50 %[5] كما يشتركون في سمات جسمية وخلقية.

2 - اضطرابات اللغة لدى فئة متلازمة داون:

يعاني المصابون بمتلازمة داون من اضطرابات اللغة و الكلام، وتصبح في الكثير من الأحيان عائقا يمنعهم من الاندماج الاجتماعي والتعبير عن أنفسهم وحاجاتهم، ويمكن أن نصنف هذه الاضطرابات كالآتي:

- اضطرابات النطق والإبدال والحذف والتشويه.
- اضطرابات الصوت والطبقة والعلو والنوع.
- اضطرابات الطلاقة واللجلجة أو التلعثم في الكلام.
- اضطرابات اللغة " الحبسة وتأخر النمو اللغوي"[6]

تتعدد أشكال الصعوبات اللغوية لدى فئة متلازمة داون لعل من أكثرها شيوعا لديهم الحذف والإبدال والتحريف واستعمال الصيغ الجامدة والحبسة واللجلجة وغيرها، ويمكن أن يحدث أي نوع من الأنواع التي سبقت الإشارة إليها بأي درجة من التكرار، وبأي نمط من الأنماط، كذلك يمكن أن يتضمن كلام المصاب عيبا واحدا من عيوب النطق، أو قد يتضمن مجموعة من هذه العيوب أيضا؛ فإن عيوب النطق والكلام عند فئة المصابين بمتلازمة داون كثيرا ما تكون غير قارة وتتغير من مرحلة من مراحل النمو إلى مرحلة أخرى، علاوة على كل ذلك، فإن الطفل قد ينطق الصوت الواحد صحيحا في بعض الأوقات أو المواقف، لكنه يحذف أو يبدل أو يحرف نفس الصوت في أوقات أو مواقف أخرى. كما قد ينجح في إصدار الصوت إذا طلبنا منه إدخاله في كلمة، وربما يرجع ذلك لصعوبة انتقال أعضاء النطق من الوضع الذي تتخذه مع أحد حروف الكلمة إلى الوضع الذي يتطلبه نطق حرف آخر.

ومن الأمور البالغة الأهمية عند الكشف عن عيوب النطق ينبغي أن نحدد ما إذا كان خطأ ما من أخطاء النطق يعتبر عيبا حقيقيا من عيوب النطق أم أنه خطأ من الأخطاء اللغوية، وترجع أهمية هذا التمييز إلى أن أهداف العملية العلاجية وأساليبها تختلف تماما بالنسبة للحالتين.

تتراوح عيوب النطق التي يعاني منها المصابون بمتلازمة داون من عيوب خفيفة إلى حادة، وفي الحالات التي تكون فيها عيوب النطق من النوع الحاد، يصعب فهم كلام الطفل. ومن ناحية أخرى يعاني الطفل معاناة شديدة عندما يحاول التعبير عن أفكاره أو حاجاته الخاصة في المحيط الأسري أو المدرسي أو في علاقاته مع الزملاء، إلا أن مدى وضوح كلام المصاب ليس العامل الوحيد الذي يؤثر في الحكم على درجة حدة الاضطراب، فالعمر العقلي – بلا شك- يعتبر عاملا هاما وخاصة في ضوء الطبيعة النمائية المبكرة فإنه يعاني من اضطراب أكثر حدة من طفل آخر من نفس سنه، لكنه لا يخطأ إلا في نطق الأصوات النمائية المتأخرة فقط، كذلك فإن عيوب النطق الثابتة والراسخة عند المصاب الأكبر سنا، عادة ما تكون أكثر حدة وصعوبة في العلاج من الأخطاء غير الراسخة عند طفل أصغر سنا وبوجه عام، يمكن القول: إن الأخطاء الثابتة أقل قابلية للعلاج من الأخطاء الطارئة أوالوقتية.

من ناحية أخرى فإن عدد عيوب النطق وأنواع هذه العيوب عامل مؤثر أيضا في تحديد درجة حدة الاضطراب مع مراعاة أن عيوب الحذف تعتبر على مستوى الأطفال أكثر من عيوب الإبدال أو التحريف، وقد يرجع ذلك إلى قدرات الجهاز الصوتي ومدى قوة العضلات المتحكمة فيه والتي تكون ضعيفة جدا في السنوات الأولى مما يجعل المصاب أكثر ميلا إلى الحذف بدلا من محاولة نطق الصوت والتي تؤدي لاحقا إلى عيوب الإبدال والتحريف قبل أن يتمكن من إصدار تلك الأصوات بطريقة سليمة

وواضحة في مراحل أخرى، طبعا مع الكثير من المساعدة، كذلك فإن العيوب المتضمنة أصواتا تتكرر كثيرا في اللغة تكون واضحة بدرجة أكبر من الأخطاء التي تتضمن أصواتًا نادرة أو قليلة الاستعمال في اللغة عندما يكون الطفل قادرا على تصحيح عيوب النطق إذا ما توفرت الاستثارة السمعية والبصرية اللازمة، ويعتبر ذلك - عادة - دلالة علاجية جيدة على أن الطفل سوف يكون قادرا على تعلم إصدار الأصوات الصحيحة اللازمة للكلام، أما الأصوات الخاطئة التي لا تكون قابلة للاستثارة (أي عيوب النطق التي تستمر عند الطفل حتى مع وجود الاستثارة الإضافية والدلالات التي يقدمها المعالج) يصعب في العادة تدريب الطفل على تصحيحها.[7]

وحتى نتمكن من تقويم هذه العيوب التي يعاني منها المصابون بمتلازمة دون، لا بد من تشخيص الأسباب المؤدية لها والتي تختلف من حالة لأخرى، بالرغم من أنهم يشتركون في عدد من المشاكل الفيزيولوجية والعقلية والنفسية والاجتماعية التي تلعب دورا كبيرا في زيادة حدة هذه العيوب.

3 - أسباب مشاكل النطق عند المصابين بمتلازمة داون.

من المهم أن نضع أيدينا على الأسباب التي تؤدي إلى تلك العيوب النطقية واللغوية لدى المصابين بمتلازمة داون، فمعرفة الأسباب تفسر لنا حدوث الأعراض والاضطرابات، مما يساعدنا لاحقا في وضع خطة علاجية تقوم على التدخل المبكر لتجاوز أكبر قدر من العوائق وتذليلها.

وقد نقسم في هذا الصدد أسباب ظهور مشاكل اللغة لدى هذه الفئة إلى أسباب فيزيولوجية وأخرى عقلية وأخرى نفسية واجتماعية، مع الإشارة دائما إلى أن كل هذا ناتج عن سبب جيني هو تثلث الصبغية 21.

3 - 1 الأسباب الفزيولوجية:

إن متلازمة داون في الأساس خلل جيني يؤدي إلى تشوه خلقي فيزيولوجي، ولعل أول ما يمسه هذا التشوه هو المخ والجهاز العصبي[8]. فإذا كان المخ هو محرك جسم الإنسان والمسؤول عن كل حركاته وانفعالاته ومكتسباته، وإذا كان الجهاز العصبي هو الوسيط بين المخ وباقي أعضاء الجسم، فإنه من الطبيعي أن يكون الخلل الذي يصيب هذين الجهازين سببا في إصابة باقي الأجهزة المسؤولة عن عملية النطق، وبالتالي سببا في عدم تمكن المصاب بمتلازمة داون من النطق السليم، لما يعانيه من مشاكل على مستوى الأجهزة التالية:

3 - 1 - 1جهاز السمع:

إن المصاب بمتلازمة داون يعاني من اضطرابات عصبية أكيدة تمس جميع حواسه والأجهزة المسؤولة عنها، وليس على مستوى هذه الأجهزة وحسب، إنما على المستوى المركزي (الدماغ) الذي وظيفته فهم الرسائل المنقولة إليه عن طريق الحواس وترجمتها[9] فعلى مستوى السمع، يعاني هؤلاء من عدة مشاكل، بدءا من شكل الأذن الخارجية الحلزوني والذي لا يؤثر على عملية السمع ولكنه يبقى عاملا مميزا لهم عن باقي الأشخاص العاديين، وصولا إلى مشاكل أكثر تعقيدا، لعل أكثرها شيوعا:

- تكرار التهابات الأذن الوسطى الذي قد يؤدي إلى الصمم[10]إن لم يعالج قبل بلوغ سن الخامسة[11].

- تأذي الأذن من الأصوات التي تفوق حدتها 4000هيرتز، وسماعها مشوهة أحيانا.

- ضيق المجال السمعي مما يجعل الأصوات العالية مزعجة، وقد تصل لدرجة الإيلام[12].

- نقص السمع العصبي.

- نقص السمع التوصيلي[13].

- ضعف عمليات تحليل المؤثر الصوتي والتمييز والتعرف على مستوى الدماغ[14] مما يؤدي إلى صعوبات في الترجمة المركزية للرسائل السمعية المنقولة.

3-1-2 الجهاز العصبي:

يعاني المصابون بمتلازمة داون من مشاكل بصرية عصبية تسبب صعوبة في تحديد المعالم مما يجعل رؤيتهم للأشياء منحرفة؛ هذا ما يعرضهم لتعب كبير في إدراك عالمهم بصريا، وترجمة تلك المدركات البصرية. ومن أكثر أمراض العيون شيوعا بين المصابين بمتلازمة داون ما يلي:

- التهاب الجفنين: وهو أكثر أمراض العيون انتشارا بين هذه الفئة، إذ تقدر نسبة انتشاره بينهم ب 47 % وهو راجع لضعف جهاز المناعة.

- الحول: وتقدر نسبة انتشاره ب 43 % وهو راجع إلى ضعف عضلات العين من الجانبين الأيمن والأيسر[15].

- القرنية المخروطية: وهو منتشر بينهم بنسبة 15% وهو أكثر شيوعا لدى الإناث منه لدى الذكور.

- الماء الأبيض: تقدر نسبة انتشاره بينهم ب 13% ومن علاماته ظهور غشاوة على العين تتسبب في عدم رؤية الأشياء بنفس الوضوح.[16]

هذه الأمراض التي قد تصيب العين، فضلا عن ضعف البصر وعدم ثبوته عند المصابين بمتلازمة داون قد يؤثر سلبا على الاكتساب اللغوي الذي يتطلب بشكل أو بآخر حاسة البصر.

3 - 1 - 3 جهاز النطق:

قبل الحديث عن التشوهات التي يعاني منها المصابون بعرض داون على مستوى جهاز النطق، لا بأس من الحديث عن المشاكل التي يعانون منها على مستوى الجهاز التنفسي كونه منتج المادة الخام لعملية النطق (الهواء الذي يتحول إلى صوت).

*الجهاز التنفسي

يعاني المصابون بمتلازمة داون من اضطرابات متكررة في الجهاز التنفسي، بعضها قد يكون لعيوب في الرئة نفسها، والأخرى ناتجة عن اضطرابات القلب أو نقص المناعة. ولعل أهم العيوب المؤثرة على عملية النطق:

- ضيق الحنجرة.
- نقص عدد الحويصلات الهوائية في الرئة.
- ضعف حركة الصدر لارتخاء العضلات.[17]

هذه الاضطرابات تجعل توفير الهواء اللازم لعملية النطق أمرا صعبا ومتعبا. مما يعيق هذه العملية الأخيرة..

قد وفرت الصوتيات التطبيقية مجموعة من الأجهزة المتطورة من أجل خدمة البحوث اللسانية، ويمكن الاستفادة منها في تشخيص أسباب عيوب النطق عند المصابين بمتلازمة داون وتحديد درجة الاضطراب أو الإعاقة. فبالنسبة لتشخيص مشاكل التنفس عندهم يمكن الاستعانة

بجهاز مقياس التنفس (respirometer) لقياس كمية الهواء المستعملة أثناء الكلام، وإن كانت كافية بالمقارنة مع الكمية المستعملة من طرف الأشخاص العاديين.[18]

وسنتحدث فيما يلي عن أهم الاضطرابات التي يعاني منها مصابو متلازمة داون على مستوى جهاز النطق:

***الحنجرة:** توصف حناجرهم بالضيق، وبالنقص على مستوى الأوتار الصوتية، مما يجعل أصواتهم تتصف بالخشونة.[19]

***الحنك:** وهو مقوس بشكل كبير مما يصعب عملية التقاء اللسان به عند نطق بعض الأصوات.

***الأسنان:** تتميز بتشوه تركيبها وتفرقها خاصة الأسنان السفلية[20] مما يسمح للهواء المحبوس داخل التجويف الفموي من أجل إنتاج صوت انفجاري بالتسرب.

***الفك السفلي:** صغر عظامه وضعف عضلاته وأربطته، يعيق حركته كما يؤدي إلى سوء إطباق الفكين و الأسنان، بالإضافة إلى تأثيره على درجة انفتاح الفم والتجويف الحلقي أثناء الكلام.[21]

***الشفتان:** تتميزان بكبر حجمهما وتشققهما[22]، ولكن ذلك قد لا يؤثر في سلامة النطق.

***اللسان:** من المعروف أن جهاز النطق يتحكم فيه ما يقرب من مئة عضلة (منها السبع عشرة عضلة التي تحرك اللسان) تجعل الجهاز الصوتي في أوضاع مناسبة لإخراج الأصوات التي ننطقها ويتم هذا في انسجام تام وتحت إدارة مباشرة من الدماغ[23]

يعتبر اللسان أهم عضو من أعضاء جهاز النطق لما يتميز به من لين وقابلية لحركات واسعة ومتمركزة في وسط الفم بفضل عضلاته السبع عشرة التي تتيح له هذه الحركة[24]، مما يجعله أكبر عائق من عوائق النطق التي يعاني منها المصاب بعرض داون، فلسانه يتميز بكبر حجمه مقارنة باللسان العادي، كما يتميز بتشققه وضعف عضلاته، مما يعيق حركته ويجعلها بطيئة.[25]

المصاب بمتلازمة داون يجد صعوبة كبيرة في نطق الأصوات التي تستدعي تحريك اللسان كأصوات الغين والخاء والكاف والقاف. ومن أجل إثبات تسبب اللسان في هذا العجز يمكن الاستعانة بجهاز رسام الحنك الإلكتروني (electropalatograph)، وهو "جهاز مكون من حنك اصطناعي مصنوع من البلاستيك ويحتوي على 64حالبا يزيد عددها أو ينقص حسب نوع الجهاز. يتم تثبيت الحنك الاصطناعي في الفم ملاصقا للحنك الطبيعي وموصولا بحاسوب، أثناء التجربة، يعرض الجهاز الحوالب التي لا يلامسها اللسان أثناء التحدث إما على الشاشة أو بالطباعة على الورق، راسما أجزاء الحنك التي يلامسها اللسان أثناء الكلام كل 10 ميليثانية (أي كل 1/100 من الثانية)"[26]

من المعروف أن كل المصابين بمتلازمة داون يعانون من ارتخاء العضلات، ومن أجل معرفة أي عضلات جهاز النطق مسؤولة عن إحداث شيء من العجز في النطق، يمكن الاستعانة بجهاز بمكهار العضلات (EMG-Electromyograph). وهو جهاز يستخدم لمعرفة حركة العضلات المصاحبة لنطق الأصوات، وذلك بقياس الشحنة الكهربائية الواردة من الدماغ إلى العضلات والتي تؤدي إلى تقلصها، ومن ثم يتم تتبع وضع العضلات التي تشارك في حركة إخراج صوت ما وتقلصه.

بهذه الطريقة يمكن دراسة حركة عضلات اللسان والشفتين والفكين للمصاب بمتلازمة داون، وتحديد درجة عجزها.

***التجويف الأنفي:** يتميز بالضيق وببعض التشوهات، كما يتميز بصغر فتحتي الأنف وامتلائهما بالمخاطية مما يعيق خروج الهواء[27] عند نطق بعض الأصوات كالميم والنون، إذ يمكن قياس انسياب الهواء من الأنف عن طريق مقياس انسياب الهواء (pneumotachograph) وهو جهاز يتكون من كمامة تغطي الأنف وتحتوي على لاقط صوتي بحيث تكون الكمامة متصلة بجهاز قياس حجم الهواء الخارج من الأنف بالنسبة لعامل الزمن[28]، ويأتي دورهذا الجهاز في حالة الإصابة بمتلازمة داون عند مقارنة كمية الهواء الخارج من أنف عينة من المصابين بكمية الهواء الخارج من أنف عينة من الأشخاص العاديين عند نطق بعض الأصوات التي ينساب الهواء معها عبر الأنف.

2-3 الأسباب العقلية:

إن الخلل الكروموزومي مسؤول عن التغيرات العصبية وعلى مختلف الاضطرابات التي يتميز بها النمو الفيزيولوجي والعقلي عند المصابين بمتلازمة داون. وقد تحدث التغيرات العضوية قبل الولادة، بالتحديد أثناء تطور الجنين في الستة أشهر الأخيرة من الحمل، فيؤثر ذلك الخلل على تطور وظيفة الدماغ وهذا الأخير هو المحرك الأساس في مراقبة مختلف جوانب التنسيق الجسمي والذكاء ومختلف الوظائف العصبية والمفاهيم السلوكية التي تسبب تخلفا عقليا عند هذه الفئة.

يتميز تطور الدماغ عند المصابين بمتلازمة داون بالبطء، ففي سن الخامسة عشرة يكون حجم الدماغ عند هذه الفئة يساوي حجم دماغ الأطفال العاديين ممن يبلغ عمرهم سنتين ونصف[29] وكلما ازداد

المخ في التطور كلما كان هناك اكتساب جديد للنشاطات، إذ تكون في الأول بسيطة كالنشاطات الحركية، ثم تأتي النشاطات المعقدة كالكلام والقراءة، ولكن اكتسابها يبقى متأخرا وبطيئا مقارنة به عند الأطفال العاديين، وذلك بسبب بعض الاضطرابات التي يعانون منها على مستوى بعض العمليات العقلية، كالإدراك والانتباه، والإدراك الحسي والذكاء...

3 - 2 - 1 الذكاء:

إن ذكاء الطفل يكيف إلى حد ما السرعة التي يستجيب بها جهازه الصوتي للنطق بالكلام، كما يكيف مدى قدرته على استخدام لغة الحديث، حيث تبين البحوث أن الطفل ضعيف الذكاء أبطأ من الذكي في حديثه وأنه كذلك أقل قدرة على التمكن من الكلمات والتراكيب، ومن هنا كان للقدرة اللغوية دلالتها على ذكاء الفرد. فكثيرا ما نلاحظ أن الطفل ضعيف القدرة على استخدام اللغة يكون ضعيفا في ذكائه العام.[30]

يتروح مستوى ذكاء المصابين بمتلازمة داون بين 40 إلى 45 درجة، إلا أن هذا الانخفاض في الذكاء لا يعني انخفاض المستوى العقلي تماما لذا يجب أن يُخص الطفل بكفالة مبكرة وببرامج مكثفة وذلك لكي يكتسب قدرات عقلية تمكنه من امتلاك بعض النشاطات التي تدمجه في الحياة[31] الاجتماعية، فقد ذكرت الجمعية الأمريكية للتخلف العقلي في أحد تصنيفاتها التربوية أن الأشخاص الذين تتراوح نسبة ذكائهم بين 30 و 50 قابلون للتدريب.[32]

3-2-2 الإدراك الحسي:

إن الإدراك الحسي يلعب دورا هاما في تعلم النطق الصحيح، ونقصد بالإدراك الحسي ذلك التحليل الداخلي أو التفسيرللمحسوسات مما يتم

عن طريق المخ، فنحن دائما بحاجة إلى تفسير محسوساتنا المنتقاة والتي هي موضع انتباهنا في ضوء خبراتنا الماضية لندركها أخيرا[33].

فالأصوات التي تستقبلها الأذن مثلا تبقى إحساسا مجهولا إذا لم يتعرف عليه الدماغ ولم يفسره، ومن هنا تأتي أهمية الإدراك الحسي.

يعاني المصابون بعرض داون من صعوبات أكيدة على مستوى الإدراك الحسي إذ أن هذه العملية تأتي عندهم متأخرة، بمعنى أن تفسير المحسوسات وترجمتها يتم متأخرا، وقد لا يتم في بعض الأحيان.[34]

3 - 2 - 3 الانتباه:

إن امتلاك الإنسان لعديد من الحواس التي تعمل معا بنشاط دائب في نفس الوقت يجعلنا نتساءل: كيف يتسنى لنا أن نكون واعين بمثير واحد على حدة بمعزل عن المثيرات الأخرى،[35]

الإجابة عن هذا التساؤل تقودنا مباشرة إلى الانتباه الذي يعد أساس إتمام العمليات العقلية والمعرفية بنجاح كتلك التي تتم عن طريق الوعي مثل التعلم.

يعرّف الانتباه بأنه عملية الإدراك الاختباري، وتتضمن تركيز وعي الفرد على مثير معين دون غيره من المثيرات، فهو يساعد الفرد على حفظ المعلومات وتخزينها بأسلوب جيد في المراكز العليا بالمخ مما يساعد في استرجاعها واستخدامها مرة أخرى عند الحاجة إليها، والمهارات اللغوية عند الطفل لا تكتمل مع الانتباه الجيد والتواصل البصري مع الأفراد المحيطين به.

يعاني الكثير من الأطفال ممن لديهم متلازمة داون من تشتت في الانتباه وضعف في التواصل البصري، الأمر الذي يساهم في تأخر نمو

اللغة لديهم بشكل ملحوظ مع وجود عيوب عديدة في مخارج الألفاظ، فالانتباه هو الخطوة الأولى من مهارات ما قبل الكلام، لذا يجب العمل على تنمية انتباههم.

وينقسم الانتباه إلى عدة أنواع تتم من خلالها العملية التعليمية والارتقاء بجميع قدرات الفرد اللغوية والذهنية والإدراكية والسلوكية والاجتماعية والأكاديمية، ولكل نوع طابع خاص في كيفية توصيل المعلومات والخبرات للفرد، ومن هذه الأنواع[36]:

الانتباه الإرادي: وهو ما يحدث حين يتجه الفرد بإيجابية وفعالية واهتمامه إلى إشارات حسية يعينها ويهمل ما عداها.

الانتباه اللاإرادي: وهو ما يحدث عندما تجذب انتباهنا إشارة حسية دون قصد منا وذلك كما في حالة سماعنا لصوت غير مألوف.

الانتباه التلقائي: حيث يوجه الفرد تركيزه ووعيه بدافع فطري غريزي إلى المثير، فهذا النوع يحدث من تلقاء الفرد ذاته[37]

ويتأثر الانتباه بمجموعة من العوامل الداخلية والخارجية، فمن العوامل الخارجية المؤثرة فيه: شدة المثير وحدّته وتغيره وانتظامه بالإضافة إلى الألوان وعلو الصوت.

ومن العوامل الداخلية المؤثرة في الانتباه نذكر: الاهتمام والحرمان الجسمي أو الاجتماعي والتعب ومستوى الاستثارة.[38]

يمر الانتباه بعدة مراحل خلال السنوات الأولى من حياة الطفل وتلعب الأسرة دورا بالغ الأهمية في نمو الانتباه وتطوره، ومساعدة الطفل على الانتقال من مرحلة إلى أخرى في التوقيت الطبيعي لها، مما يساعد على

الارتقاء بجميع قدرات الطفل ويمر الأطفال ممن لديهم متلازمة داون بجميع مراحل النمو الطبيعي للانتباه ولكن أحيانا يظهر لدى الكثير منهم تشتت في الانتباه وضعف في التواصل البصري مما يؤدي إلى التأخر في اللحاق بالمستوى الطبيعي للانتباه طبقا للعمر الزمني للطفل ويؤثر ذلك على نمو قدراته بوجه عام[39]

3 - 3 الأسباب النفسية والاجتماعية.

عادة ما نذكر الأسباب الاجتماعية لاضطرابات النطق مع الأسباب النفسية وذلك لأنها متداخلة معها، ويبدو أن هناك عملية واحدة ويشترك فيها العامل الاجتماعي والنفسي[40].

فكثيرا ما تكون العوامل الاجتماعية المحيطة بالمصاب بمتلازمة داون سبب بعض ما يعانيه من اضطرابات نفسية وكثيرا ما تكون اضطراباته النفسية سببا في اختلال علاقاته الاجتماعية، وهذا كله يؤثر بشكل كبير على سلامة النطق عنده، خاصة في المراحل الأولى من عمره (الطفولة والطفولة الثانية).

بالإضافة إلى ذلك كثيرا ما ترتكب الأسرة والمحيط الاجتماعي عامة أخطاء في تعاملها مع الطفل المصاب بعرض داون مساهمة - ودون قصد- في تفاقم صعوبات النطق لديه ولعل أكثر هذه الأخطاء ما يلي:

3 - 3 - 1 الدلال المفرط:

إن معرفة إصابة الشخص بمتلازمة داون تتم حال ولادته ويمكن أن تعرف قبل ذلك بإجراء بعض الفحوصات.[41]

يعتب كثير من الآباء - وحال معرفتهم- أن لديهم طفلا مصابا بعرض داون، معاقا ومتأخرا ذهنيا وبالتالي يجب معاملته معاملة خاصة، غير

واعين بخصائص هذه الفئة وحدود قدراتها وهنا تتخذ المعاملة الخاصة شكلين: إما الإهمال أو الدلال المفرط، في الحالة الثانية يعتبر الآباء أن النطق والكلام يتعبان طفلهم ويشعرانه بالنقص بسبب الصعوبة التي يعانيها، فيجتهدون في تخفيف العبء عنه بمحاولة معرفة ما يفكر فيه وتوفيره قبل أن يطلب ذلك[42].

فالأم مثلا تمنح طفلها الماء ليشرب بمجرد أن يشير بيده إلى فمه، أو قد تشعل له التلفاز بمجرد أنه أشار إليه وبذلك فإنها - وبدون قصد- تقلص محاولات ابنها اللغوية وهي بذلك تحرمه من أن يتعلم من خلال الخطأ والمحاولة الثانية والتكرار.

2-3-3 الإهمال:

وهو شكل آخر من أشكال المعاملة الخاصة فكثير من الأسر ترى أن المصاب بعرض داون مختل عقليا لا ينبغي إضاعة الوقت أو الجهد معه لأن النتيجة واحدة، وبذلك فهم يحرمونه من أية فرصة علاج قد تتاح له عن طريق التدخل المبكر، كما أنه يحرم من التعليم أو الالتحاق بالمراكز الخاصة في العديد من الأحيان، مما يجعل قدراته بصفة عامة وقدراته اللغوية بصفة خاصة تبقى محدودة.

كما أن الإهمال وعدم إشراك المصاب بعرض داون في الحياة الاجتماعية داخل الأسرة أو خارجها يزيد من صعوبات خاصة منها صعوبة النطق. فالمصاب بعرض داون ونظرا لما يعانيه من تشوه على مستوى جهاز النطق بحاجة دائما إلى الممارسة والتمرين اللغوي ليتمكن من السيطرة على أصوات اللغة ومفرداتها في السن المناسب.

3 - 3 - 3 عدم المعرفة بقدراتهم الخاصة:

إن جهل الأسرة بقدرات طفلها الخاصة وبإمكاناته الفيزيولوجية والعقلية تساهم في تفاقم اضطرابات النطق لديه فكثيرا ما يطلب من الطفل في سن مبكرة إصدار بعض الأصوات وعندما يعجز يعنف ويقارن بطفل عادي في سنه يحسن إصدار تلك الأصوات أو الكلمات؛ اعتقادا أن هذا قد يشكل حافزا للطفل المصاب هذا الذي وفي تلك المرحلة لا يملك القدرة الفيزيولوجية (جهاز النطق) والعقلية (الإدراك الحسي، الانتباه،...) اللازمة في فهم ما يطلب منه وإعادته.

ويلعب التنبيه فوق الحد الطبيعي أثرا سلبيا على مهارة لغة الطفل، فقد وجد أن الطفل الذي يجبر على قول ألفاظ معينة كثيرا ما يكون سلبيا في نموه اللغوي وهذا يعني أن التنبيه فوق الحد الطبيعي وعدم تقدير قابلية الطفل اللغوية والطلب منه بأن يتحدث لغة تتجاوز قدراته تؤدي إلى نتائج سلبية تؤخر كلام الطفل.[43]

بهذه الطريقة يدفع عن غير قصد بالمصاب بعرض داون إلى صعوبات أخرى، كأن يرفض الكلام أو ينعزل وقد يصبح عدوانيا في العديد من الأحيان.

3 - 3- 4- تشجيعه على الخطأ:

إن الكثير من عيوب النطق التي يعاني منها المصاب بعرض داون ليست إلا عادة مكتسبة لا دخل لجهازه الصوتي أو قدراته العقلية فيها، فكثيرا ما يخطأ الأطفال في سن الصغر في نطق بعض الأصوات كما قد يبدلون الكلمات والمقاطع الصوتية، وعدم انتباه الأسرة لهذه الأخطاء أو إهمالها والعمل على تصحيحها، يجعل الطفل يعتقد أنها صحيحة فيستمر

في نفس الخطأ حتى يصبح عادة راسخة يصعب إزالتها أو تصحيحها إلا بعرضه على أخصائي تقويم النطق؟.

3 - 3 - 5 افتقاره للحنان والحب اللازمين:

يخضع النمو اللغوي إلى الطريقة التي يعامل بها الطفل، أهي قائمة على الضغط والسيطرة أم الحرمان وعدم إتاحة الفرصة التي تمكنه من اكتساب الخبرات؟ أم هي قائمة على أساس الحب والعطف والتشجيع؟.

إن حرمان الطفل من الشعور بالحب والتشجيع وانعدام الحوافز وضآلة فرص اكتساب الجديد من الخبرات يبطئ من سرعة إتقان مخارج الحروف واكتساب الكلمات الجديدة، وعلى العموم فإن الأطفال الذين يستلمون إشارات كثيرة للكلام وتشجيع استجاباتهم، يتكلمون أسرع كما أن طريقة كلامهم أفضل.[44]

هذه العوامل الاجتماعية وغيرها تساهم بشكل كبير في إعاقة تطور النطق السليم وتعلمه بالنسبة للمصاب بمتلازمة داون كما أنها قد تكون سببا في العديد من اعراضه النفسية والتي تعيق هي الأخرى تطور نطقه والتي نذكر منها:

الشعور بعدم الثقة في النفس: إن تشوهات المصاب بعرض داون الفيزيولوجية التي تعيق عملية النطق لديه بالإضافة إلى جعله يشعر بالعجز الدائم من طرف محيطه الاجتماعي سواء من خلال الدلال والاهتمام المفرطين، أم من خلال الإهمال، كذلك مقارنته بإخوته وجيرانه وأصدقائه يدعم لديه الشعور بعدم الثقة بالنفس مما يجعله يتخوف دائما من الكلام خشية الخطأ الذي يسبب له إحباطا جديدا أو يعرّضه للسخرية.[45]

الانعزال: يكون أطفال متلازمة داون في مراحل الطفولة الأولى ميالين للانعزال، كسالى ولا رغبة لديهم في المشاركة في النشاطات الجماعية وهذا يجعل احتكاكهم بمن هم أكبر منهم سنا ومشاركتهم اللغوية قليلة مما يساهم في بطء تعلم النطق السليم، وقد يكون مرد هذا الانعزال إلى الخوف من الفشل في اللغة بنوع خاص أو من الفشل الاجتماعي لسعة الفارق بينه وبين زملائه في الكفاية.[46]

الشعور بالنبذ: إن بعض الإهمال قد يجعل الطفل المصاب بعرض داون يشعر بالنبذ مما يجعله يفقد الثقة في المحيطين به ويرفض أي نوع من أنواع المساعدة أو الاحتكاك وهذا يجعله يعيش في منأى عن الحياة الاجتماعية وبالتالي فإن تطوره اللغوي يبقى بطيئا.

الخجل: يعرف عن المصابين بعرض داون بأنهم خجولون في مرحليتي الطفولة والطفولة المبكرة، لكن سرعان ما يصبحون اجتماعيين في المراحل اللاحقة، ولكن ونظرا لأهمية المرحلتين السابقتين في اكتساب اللغة وتعلم النطق فإن الخجل يعيق ذلك، كما قد يعيق العملية العلاجية، فالطفل الخجول يرفض التعامل مع أخصائي علاج عيوب النطق (l'orthophoniste) مما يجعل عملية التقويم غير ممكنة.[47]

في ختام هذه الورقة البحثية يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

* التعامل مع فئة متلازمة داون ينبغي أن يظل بعيدا عن الصورة النمطية اللصيقة بها، والمتجذرة بعمق في العقل العام، الذي لا زال يسميهم بالمنغوليين – مع ما يحمل المصطلح من خلفيات-، والسعي لتصميم طرق إستراتيجية بديلة لتعليمهم، مع الأخذ بعين الاعتبار الأسباب التي تعيق ذلك.

* عرض داون من أكثر أنواع التأخر الذهني انتشارا، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن المصابين بهذا العرض قابلون للتعلم والإدماج المدرسي والاجتماعي، ولا يتم هذا إلا بتظافر جهود الأسرة والباحثين المختصين والمؤسسات المعنية.

* يظل برنامج التدخل المبكر هو الحل الأمثل للحد من عيوب اللغة والكلام لدى فئة متلازمة داون، ولا يتم إعداد هذا البرنامج إلا من طرف الأخصائيين في حقل معرفي واحد، بل ويتطلب عملا زُمريا، يجمع بين المختصين في دراسة أمراض الكلام من اللغويين والمختصين في علم النفس والاجتماع، وأخصائيي التربية، والأطباء في مختلف التخصصات، مراعاة لخصوصيات هذه الفئة على جميع المستويات.

* السعي إلى إنشاء مؤسسة وطنية ورسمية للتكفل الشامل بهذه الفئة، تضمن التنسيق بين مخلف التخصصات خدمة لهذه الفئة في المقام الأول، وللغة العربية تواصلا واتصالا في المقام الثاني.

تبقى هذه النتائج المتوصل إليها جزءا من مشروع متكامل نسعى لتحقيقه على أرض الواقع؛ إيمانا منا بقدرة هذه الفئة على التعلم والاندماج في المجتمع، إن لقيت الرعاية والدعم المناسبين، ومساعدتها على تجاوز اضطرابات اللغة والكلام قد تكون خطوة مهمة في سبيل ذلك.

الهوامش:

• - جيروم لوجين: (Jérôme Jean Louis Lejeune) إخصائي علم الوراثة الفرنسي وأحد أفراد فريق ريموند توربان، اكتشف سنة 1958 رفقة فريقه تثلث الصبغية 21 المسبب لمتلازمة داون

•• - لانجدون داون: (John Langdon Dawn 1828_1896) طبيب بريطاني اشتهر بوصفه الدقيق لملامح فئة من المتأخرين ذهنيا، أطلق عليهم بعد ذلك اسم المنغوليين نسبة للمنحدرين من عرق المغول بسبب التشابه بينهم، ليظهر بعد ذلك أن لهذه التسمية دلالات سلبية ومؤذية، كما أنها غير صحيحة من حيث دلالتها العرقية.

••• - ريموند توربان: (Raymond Alexandre Turpin 1895_1988) عالم الوراثة فرنسي، درس هو وفريق من طلبته من بينهم جيروم لوجين، الخصائص الجينية للأطفال المنغوليين كما سماهم داون، ليكتشفوا بعدها بأن لا علاقة لهم بعرق المغول، وأن سبب حالتهم هو وجود كروموزوم زائد في الصبغية 21، ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الفئة تسمى بحاملي متلازمة داون، أو تثلث الصبغية 21.

1- www.trisomie21-geist21.fr

2- dictionnaire de psychologie, Norbert Sillamy, édition Janine faure, 1991, p173

3- Encyclopédie Encarta, ©Microsoft Corporation.2005.Tous droits réservés.

4 - فاخر عاقل، معجم علم النفس: إنجليزي فرنسي عربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1985، ص112.

5 - كمال الدسوقي، الطب العقلي و النفسي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت-لبنان، دط، 1984، ص210

6 - سهير محمد سلامة شاش، اضطرابات التواصل، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، ط2 ، 2014، ص55.

7 - عن موقع: أطفال الخليج ذوو الاحتياجات الخاصة، www. gulfkids.com

8- M. Cuilleret, trisomie21 aides et conseils, Masson, Paris, 4éme édition, 2003, p7

9- M. Cuilleret, trisomiques parmi nous, Snep, Bruxelles, 1981, p50

10 - M. cuilleret, trisomiques parmi nous, p52

11 -آمال الشماع، كتاب من لا يحضره طبيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1983

12 - M. Cuilleret, trisomie 21 aides et conseils, p7

13 - www.trisomie21@geist21.fr

14 - مصطفى نوري القمش، الإعاقة السمعية و اضطرابات النطق واللغة دار الفكر للطباعة و النشر، الأردن 1999، دط، ص15

15 - M. Cuilletert, trisomie21 aides et conseils, p7

16 - منى صبحي الحديدي، مقدمة في الإعاقة البصرية، دار الفكر للطباعة، الأردن، دط، 1998، ص 51.

17 - عن موقع الجمعية البحرينية لمتلازمة داون www.bdss.org ، إعداد سارة محمد زكريا، أخصائية تربية خاصة في مركز العناية بمتلازمة.

18 - منصور بن محمد الغامدي، الصوتيات العربية، مكتبة التوبة، الرياض،ط1، 2001 ، ص176.

19 - J.A Rondal et Lambert, questions et repenses sur le mongolisme, p45.

20 - D. Smith- Awilson, l'enfant trisomique, édition centurion, 1979, p66

21 - عن موقع: أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة www. gulfkids.com

22- www.trisomie21@geist21.fr

23 - منصور بن محمد الغامدي، الصوتيات العربية، ص180.

24- François le thunche, la voix : anatomie et physiologie des organes de la voix et de la parole, p129

25- www.trisomie21@geist21.fr

26 - منصور بن محمد الغامدي، الصوتيات العربية، ص181.

27- J.A Rondal et Lambert, questions et repenses sur le mongolisme, p45

28 - منصور بن محمد الغامدي: الصوتيات العربية، ص 180

29 - J.A Rondal et Lambert, questions et repenses sur le mongolisme, p46

30 - صباح حنا هرمز، سيكولوجية لغة الأطفال، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد- العراق، ط1، 1989، ص122

31- D. Smith- Awilson, l'enfant trisomique, p66

32 - كامل محمد محمد عويضة، سيكولوجية التربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص124

33 - نفسه، ص123.

34- M. Cuilleret, trisomie 21 aides et conseils, p8

35 - كامل محمد محمد عويضة، سيكولوجية التربية، ص123.

36 - عن موقع الجمعية البحرينية لمتلازمة داون www.bdss.org ، إعداد سارة محمد زكريا، أخصائية تربية خاصة في مركز العناية بمتلازمة داون.

37 - المرجع السابق .

38 - كامل محمد محمد عويضة، سيكولوجية التربية، مرجع سابق، ص131 - 132.

39 - عن موقع الجمعية البحرينية لمتلازمة داون www.bdss.org ، إعداد سارة محمد زكريا، أخصائية تربية خاصة في مركز العناية بمتلازمة داون.

40 - صباح حنا هرمز، سيكولوجيا لغة الأطفال، مرجع سابق، ص 164

41- Encyclopédie Universalys, ©Microsoft Corporation. 2003. Tous droits réservés.

42- M.Cuilleret, tridomie21 aides et conseils, p51

43 - صباح حنا هرمز، سيكولوجيا لغة الأطفال ، ص 142.

44 - المرجع نفسه ص 143

45 - عن موقع الجمعية البحرينية لمتلازمة داون www.bdss.org ، إعداد سارة محمد زكريا، أخصائية تربية خاصة في مركز العناية بمتلازمة داون.

46 - صباح حنا هرمز، سيكولوجيا لغة الأطفال، ص 166

47 - L'équipe d'éducateurs de l'école des parents, les difficultés de votre enfant, Atelier pascal Vercken, 1977, p113.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية - الجزائر-
2016
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (023) 96 56 10 /11